الجزء الثالث

elikandi.com

obeikandl.com

الجزء الثالث

يقول رسول الله ﷺ : من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين،وإنما العلم بالتعلم ، وأن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم. فمن أخذه أخذ بحظ وافر [١] .

وروى الإمام مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده .

وروى الترمذي من حديث أبي الدرداء ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من سلك طريقاً يبتغى فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا لما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من فى السماوات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وأن العلماء ورثة الأنبياء ، وأن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر [٢] .

وروى ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ـ قالوا : وما رياض الجنة يارسول الله ؟ قال:-حلق الذكر ، فإن لله تعالى سيارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر ، فإذا اتوا عليهم حفوا بهم .

يقول ابن حجر : ومجالس الذكر هى مجالس الحلال والحرام ومجالس سائر الطاعات ـ وقيل مجالس العلم والتذكر ، وهى التى يذكر فيها كلام الله وسنة رسوله ﷺ وأخبار السلف ، وكلام الأئمة والعلماء [٣] .

---

(١) من حديث معاوية المتفق عليه (فتح الباري ١ / ٢٧٩ ، ٢٨٠) – رياض الصالحين للنووي ٣٧٩ / ١٣٧٤ .

(٢) أخرجه أبوداود والترمذي وابن ماجه (رياض الصالحين ٣٨١ / ١٣٨٦) (القرطبي ٤/ ٣٢٢١) (ابن كثير ٣/ ٥٥٧) .

(٣) وقد رواه الترمذي من حديث أنس وحسنه .

أخرج الطبراني عن أبي هريرة ﷺ أنه مر بسوق المدينة فوقف عليها فقال : يا أهل السوق ما أعجزكم ؟ قالوا وما ذاك يا أبا هريرة ؟ قال : ذاك ميراث رسول الله ﷺ يقسم وأنتم هاهنا !! ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه ؟ قالوا وأين هو ؟ قال فى المسجد . فخرجوا سراعاً ، ووقف أبوهريرة لهم حتى رجعوا فقال لهم : ما لكم ؟ فقالوا : يا أباهريرة قد أتينا المسجد فدخلنا فيه . لم نر فيه شيئاً يقسم !! فقال لهم : وما رأيتم بالمسجد أحدا ؟ قالوا بلى : رأينا قوماً يصلون ، وقوماً يقرؤون القرآن ، وقوماً يتذاكرون الحلال والحرام ، فقال لهم أبوهريرة : ويحكم !! فذاك ميراث محمد ﷺ[1] .

أولاً : ميراث الملة العادلة والأمة المعتدلة (دين الإسلام) .

أورثنا الله تبارك وتعالى الإسلام ، وهو الدين الذى شرعه لعباده على لسان رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم ،، وضع فيه التشريع الذى تكفل بكل ما تحتاجه البشرية من عقائد وعبادات ، وأخلاق ومعاملات، وحدود وجنايات ، وشئون السياسة والإقتصاد والمعاهدات ، والمبادئ والأحكام والعلاقات .. كل التشريعات التى تعالج مشاكل البشرية وتحقق السعادة والفلاح لكل الإنسانية .

دين الملة القائمة العادلة ، والأمة المستقيمة المعتدلة ، والشريعة السمحاء،، بحكمه وشرعه وقيمه وموازينه ومبادئه .

﴿ مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ [الأنعام] .

منهج كامل ونظام شامل بأركانه وأصوله، وخصائصه، وأنظمته، ومقاصده ومراميه، ومبادئه وقواعده ، وأوامره ونواهيه .. فيه الحكم والعدل والنظام والأمن والسلام .. لا غموض فيه ولا تعقيد ، ولا فرقة ولا إختلاف .. يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، ويدعو إلى الخير والكمال والفضيلة .

﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج:٧٨] .

نزهه الله من دعاوي اليهود والنصارى فقال سبحانه وتعالى :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران] .

قال الله فى كتابه على لسانه داعياً لنبينا محمد ﷺ .

---

(١) حياة الصحابة الكاندوهلوي ٣/ ١٠٧

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة].

إنها الرسالة الربانية الخاتمة التى إرتضاها الله ديناً لخلقه ، وأتم بها نعمته على خير خلقه وخاتم أنبيائه ورسله .

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران:١٩].

والمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل ، وبكل كتاب أنزل،لا يكفرون بشيء من ذلك .. بل هم يصدقون بما أنزل من عند الله ، وبكل نبي بعثه الله .

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [آل عمران] .

إنه دين الأنبياء والرسل جميعهم وأتباعهم .

قال نوح : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يونس].

وقال إبراهيم وإسماعيل: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [البقرة] .

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة] .

وقال يعقوب لبنيه : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة] .

وقال موسى: ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [يونس] .

وقال سبحانه وتعالى فى عيسى عليه السلام :

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [آل عمران] .

وقال لسحرة فرعون : ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ۚ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأعراف] .

وقال سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [النمل].

وقالت ملكة سبأ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل].

وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل].

الإستسلام لله فى هذا الدين بالتوحيد والطاعة .. فالتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل الصالح[1].. والأصل فيه هو معرفة الله .. فذلك أول الدين وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له سبحانه وتعالى:

﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الحج].

*** القرآن الكريم هو أصل هذا الدين ومرجعه، وهو القانون الذى انتظم من العقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة ما يكفل للبشر سعادتهم فى الدنيا وحياتهم الآخرة لو أنهم استقاموا وتخلقوا والتزموا بما أورثهم الله من التشريع فى هذا الدين .. والذين يقرءون كتاب الله ويتدبرونه ويعملون بما جاء فيه ويؤدون ما عليهم من الطاعة والعبادة فيه، ويؤدون الصلاة بحدودها، ويتصدقون من الأموال بما أعطاهم الله فى الخفاء والجهر ... هؤلاء تجارتهم لن تهلك، ويوفيهم الله ثواب أعمالهم فى الدنيا وينعم عليهم من فضله وهو سبحانه الغفور الشكور .. قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر].

والسنة تطلق على قول النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته، وهي مرادفة للحديث[2] والسنة شرعا ما ورد عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير[3].

---

(١) نهج البلاغة الشيخ محمد عبده.

(٢) (جماعة النشر بهيئة علماء الوعظ بالأزهر الشريف) كتاب قبسات من السنة للشيخ أحمد البسيوني ص ٢٣.

(٣) الفقه الميسر لفضيلة الشيخ (محمد سيد طنطاوي). شيخ الأزهر (ص ١١).

وفي التفسير قال فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله : جاء القرآن بالأصول الثابتة، وترك للرسول ﷺ مهمة أن يبيِّنه للناس ويشرحه ويوضح ما فيه ، وأمنه علي التشريع ـ فأصبحت سنته ﷺ هي التشريع الثاني بعد القرآن الكريم[١].

وفي القرطبي « جعل الله إلي رسوله ﷺ بيان ما كان من القرآن مجملا، وتفسير ما كان منه مشكلا ، وتحقيق ما كان منه محتملا،ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الإختصاص به، ومنزلة التفويض إليه»[٢] .

فمن يرجو ثواب الله ورحمته فى الدنيا والآخرة لا يتخلف عنه ﷺ ، ولا يرغب بنفسه عن هدايته ، أو يترك سبيلها .. ويظل خاشعاً لله شاكراً لله .

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب] .

هو دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها : القاعدة فيه عبادة الله وحده ، والوحدانية لله وحده ، وإخلاص الدين كله لله وحده ، وعقد الأعمال كلها إبتغاء وجه الله وحده بالنية الخالصة الصادقة لمرضاة الله وحده ـ ومنطق الإسلام يقضى بأن تكون الحياة كلها عبادة وكلها طاعة.

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات] .

القرآن فى هذا الدين يحدد المنهج ويقود النظام .. والسنة فيه رباط واتباع برسول الله ﷺ فى علمه وعمله ، وقوله وفعله ، فى حربه وسلمه ، وعدالته وتقاريره ، وأخلاقه وأحكامه ... وكل ما فى هذا الدين من تعاليم فإنما هو نداء وتوجيه للخير والكمال والرفعة والرقى والعزة والكرامة .. تتزكى بها النفوس وتتطهر ، وتتدعم بها المبادئ والقيم والروابط الإنسانية على أساس من الحب والرحمة والإخاء، والعدل والمساواة وتحفظ المسلم من الأضرار والمفاسد ، وتنقى عقيدته من الشوائب والأخطار ، وتحافظ له على نفسه وعقله ونسله وماله .

فإذا ما ترك المسلمون العمل بقواعد هذا الدين وتعاليمه فقدوا الحصانة ضد أى إنحراف والمقاومة ضد أى فساد .. فأنطلقت الشهوات ، وفعلت المنكرات ، وفسدت

---

(١) تفسير فضيلة الشيخ الشعراوي ١٣/ ٧٩٥٨ .

(٢) نقلا من مقدمة القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) (ص ٥٠).

العقائد ، وتخبط الناس فى الجهل والخلاعة ، وانحرفوا عن فطرة الله .. وحل الطمع محل القناعة ، والجشع محل الخشية، والغرور محل الخوف من الله ، وذهبت الرحمة من القلوب .

ولا صلاح للقلوب حتى تستقر فيها معرفة الله وعظمته ومحبته وخشيته ومهابته ورجاؤه والتوكل عليه .. ولا صلاح للنفوس حتى تستقيم على منهج الله وشريعته وتتبع السلف الأولين الذين تأدبوا بآداب هذا الدين ووقفوا عند حدوده فخضعت لهم رقاب الجبابرة .

ومن ثم فلا أمن للنفس ولا أمان ولا راحة ولا إطمئنان إلا بالعودة إلى دين الله والتمسك بكتاب الله والعمل بسنة رسول الله .. فتصح العقائد، وتخلص الأعمال والنيات إبتغاء مرضاة الله .

العقائد فى هذا الدين مرتبطة بالأعمال ، والأعمال مرتبطة بالمشاعر والنية، والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم] .

والمؤمن فى كل حياته دائم الصلة بالله ، دائم العبادة لله ، دائم الإخلاص لله فى كل شأن من شئون الحياة .

﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام] .

ومن سلك طريقاً غير طريق الإسلام فلن يقبل منه .. فقد أخبرنا الله تبارك وتعالى أنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام .

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران] .

وقد جمع رسول الله ﷺ الدين فى أربعة كلمات فقال عليه الصلاة والسلام: إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها و سكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها [1] .

---

(١) رواه الدارقطني وغيره من حديث أبي ثعلبه الخشني .

فقسم عليه الصلاة والسلام أحكام الله فى أربعة أقسام هى الفرائض والمحرمات والحدود والمسكوت عنه .. وذلك لجميع أحكام الدين كلها .. وقال العلماء أحكام الدين الشرعية خمسة « واجب ـ حرام ـ مسنون ـ مكروه ـ مباح » .. والأوامر فيه تنحصر فى أربعة :

« العقيدة ـ العبادة ـ المعاملة ـ الأخلاق» ومرجعه إلى ثلاثة :

« المأمور ـ المحذور ـ الصبر على المقدور .. أو قيل إن الدين كله يرجع إلى فعل المأمورات ، وترك المحظورات ، والتوقف عن الشبهات ـ ولا يصلح العمل فيه إلا بتقوى الله والنية الحسنة والإصابة، فيتفق العمل فى ظاهره على موافقة السنة ويكون المقصد فى باطنه إبتغاء وجه الله عز وجل » وذكروا أنه يكفى الإنسان لدينه أربعة أحاديث:

الأول « الأعمال بالنيات » ، والثاني « الحلال بين والحرام بين » ، والثالث « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » ، والرابع « لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه » .

وقد نظم طاهر بن مغور الأحاديث الأربعة فقال :

عمدة الدين عندنا كلمات ... أربـع من كلام خير البريـة

إتق الشبهات وازهد ودع ... ما ليس يعنيك واعملن بنيـة [1]

الحديث الأول : فى أثر النيات فى الأعمال :

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل إمرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى إمرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه[2] ـ وفى رواية زيادة « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله .. ثم عقبها بالجملة الأخيرة ».

والهجرة ترك مكان إلى مكان آخر مأخوذة من الهجر ، وهو مفارقة الإنسان غيره ببدنه أو لسانه أو قلبه ، واستعملت فى لسان الشارع فى ترك دار الخوف إلى دار الأمن كما فعل بعض الصحابة فى تركهم مكة إلى الحبشة أول الأمر ، وفى ترك دار الكفر إلى دار الإسلام فراراً بالدين كما فعل المسلمون فى مغادرتهم مكة إلى المدينة لما انتشر الإسلام فيها وهاجر إليها رسول الله ﷺ ، وفى ترك ما نهي الله عنه .

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١/ ٤٩ .

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

والأعمال تابعة للنيات مقدرة بها وموزونة بميزانها ، فدرجة كل عمل من درجة النية الباعثة عليه ، فإن كانت خيراً فخير وإن شراً فشر ... وكمال الأعمال بالنية ، ولكل إنسان جزاء ما نواه ، فمن كانت نيته ثواب الله ومرضاته فله ذلك ، ومن كانت نيته شراً فله الويل ... ومن كانت هجرته بقصد خدمة الدين وإعلاء كلمة الله بتعلم كتابه وسنة رسوله ﷺ وإقامة سلطانها والتمكين لها فتلك هى الهجرة الحقة التى تنبغى لكل مسلم .

والحديث يحبب إلينا الرغبة فى معالي الأمور ، ويحثنا على الإخلاص فى الطاعات ويحضنا على خدمة الدين ولو بمفارقة الوطن والمال والولد ، ويبين أن الأعمال ليست بمظهرها ، بل للباعث عليها آثر كبير فى إنحطاطها أو علوها وعقابها أو ثوابها .

الحديث الثاني : فى ترك المشتبهات :

عن أبي عبد الله النعمان بن بشير ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد إستبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وأن لكل ملك حمى ألا وأن حمى الله فى أرضه محارمه ، ألا وأن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب[١] ... والحديث يرشدنا فيه رسول الله ﷺ إلى ما هو خير لنا فى ديننا وأعراضنا ، وهو الإبتعاد عن مواطن الريبة ، فيسلم الدين من النقص ، والعرض من الطعن ـ الحلال هو الطيب النافع ، والحرام هو الخبيث الضار ، وبين الحلال والحرام أمور خفية متشبهة لا يدرى كثير من الناس أهى من الحلال أم من الحرام ؟ ومن الشبيهات الأمور التى لا تطمئن إليها نفسك الطيبة فدعها إلى ما تطمئن إليه عملاً بحديث « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »[٢] .. ومن جرأ نفسه وشجعها على إقتحام الشبهات والوقوع فيها مع قيام الشك ومخالطة الريب كاد يواقع الحرام البين ـ فالشبهات وقاية دون الحرام ، فمن انتهكها كاد يتردى فى هاوية الحرام ، ومن تجنبها كان فى مأمن منها بعيداً عنها . فاجعل بينك وبين الحرام حصنا ، واضرب دونه سدا .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

(٢) رواه الترمذي والنسائي وغيرهما عن الحسن بن علي .

والحديث يحذرنا من الشبهات ، والوقوف في مواقف الريب ، ويدعونا إلى الاحتراس وبعد النظر ويحضنا على تخليص الدين من الشوائب ـ وما ترك الله ورسوله حلالاً إلا مبيناً، ولا حراماً إلا مبيناً وتركنا رسول الله ﷺ على محجة بيضاء نقيه ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك وترك لنا السبيل نهجاً واضحاً وعلماً من كل شيء ـ ذلك لأن موضوع الحلال والحرام هو قوام الإسلام ودليل الإيمان ، وميزان الصدق في حب المؤمن لربه ولرسوله ـ فلا إيمان بلا عمل ، ولا عمل إلا على مقتضى الأمر والنهى ، ولا إلتزام بأمر آمر ونهي ناه إلا عن حب ، والحب دون إتباع كذب في الدعوى ..الإيمان بلا عمل قد يكون نفاقا ، والإسلام دون ولاء للشريعة الشاملة لسلوك المؤمن فيما يأتيه وينتهى عنه من أعمال القلوب والجوارح فوضى واضطراب . وما من أمة عدلت عن تشريع الله إلا أخذت بالدمار والهلاك، وما من فرد أغفل الأمر والنهى إلا اختل أمره ، واضطرب حاله .. ولهذا سبق النداء من المولى الجبار على لسان نوح إلى جميع الأمم بأن التطهر من الحرام شرط لتيسير الأحوال المادية والمعنوية ـ وتمام الخلافة على الأرض،وقوة السلطان على المعاندين [1].

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح] .

الحديث الثالث: « وفيه الحث على ترك مالا يعنى الإنسان في حياته ومعاده» :

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه[2].

ومعنى هذا الحديث انه من حَسُنَ إسلامه ترك مالا يعنيه من قول وفعل واقتصر على ما لا يعنيه من الأقوال والأفعال ، ومعنى يعنيه أن تتعلق عنايته به ويكون من مقصده

---

(١) من مقدمة كتاب هذا حلال وهذا حرام للشيخ عبدالقادر أحمد عطا .

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه من رواية الأوزاعي عن أبي سلمه عن أبي هريرة وقد حكى الإمام أبوعمرو ابن الصلاح عن أبي محمد ابن أبي زيد إمام المالكية في زمانه أنه قال : جماع آداب الخير وأزمته يتفرع من اربعة أحاديث قول النبي ﷺ من كان يؤمن بالله واليوم الأخر فليقل خيراً أو ليصمت وقوله من حسن سلام المرء تركه مالا يعنيه وقوله للذى إختصر له في الوصية : لا تغضب ، وقوله المؤمن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه .

ومطلوبه .. والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، فإذا حسن الإسلام إقتضى ترك ما لا يعنى من المحرمات أو المشتبهات والمكروهات وفضول المباحات التى لا يحتاج إليها إستحياءاً من الله .

وفى المسند والترمذي عن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً «الاستحياء من الله تعالى أن تحفظ الرأس وما وعى ، وتحفظ البطن وما حوى ، ولتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا » فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء .

وفى صحيح ابن حبان عن أبي ذر ﷺ ـ عن النبي ﷺ قال : كان فى صحف إبراهيم عليه السلام .. وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن تكون له ساعات .. ساعة ينادى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها فى صنع الله تعالى ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب .. وعلى العاقل أن لا يكون ظاعناً إلا لثلاث : تزود لمعاد ، أو حرفة لمعاش ، أو لذة فى غير محرم ..وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلاً على شأنه حافظاً للسانه ، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه .

الحديث الرابع: عن أبي حمزة أنس بن مالك ﷺ خادم رسول الله ﷺ ـ عن النبي ﷺ قال: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه [1] .

وخرج الإمام أحمد من حديث معاذ ﷺ أنه سأل النبي ﷺ عن أفضل الإيمان قال: أفضل الإيمان أن تحب لله وتبغض لله وتعمل لسانك فى ذكر الله ـ قال:وماذا يارسول الله؟ قال : أن تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكرهه لنفسك وأن تقول خيراً أو تصمت .. قال ابن عباس رضي الله عنهما : إنى لأمر على الآية من كتاب الله فأود أن الناس كلهم يعلمون منها ما أعلم ـ وقال الشافعى : وددت أن الناس تعلموا هذا العلم ولم ينسب إلىّ منه شيء.

وفى الجملة فينبغى للمؤمن أن يحب للمؤمنين ما يحبه لنفسه ويكره لهم ما يكرهه لنفسه، فإن رأى فى أخيه المسلم نقصاً فى دينه إجتهد فى إصلاحه ، ولا يكون المؤمن مؤمناً

---

(١) رواه البخاري ومسلم ولفظ مسلم « حتى يحب لأخيه » وخرجه الإمام أحمد رحمه الله ولفظه لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحبه لنفسه من الخير ، والإيمان كثيراً ما ينتفى لإنتفاء بعض أركانه وواجباته كقوله ﷺ لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن،ولا يشرب الخ حين يشربها وهو مؤمن ـ وقوله ﷺ لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه.

حقا حتى يرضى للناس ما يرضاه لنفسه ، وإن رأى فى غيره فضيلة فاق بها عليه فيتمنى لنفسه مثلها ، فإن كانت تلك الفضيلة دينية كان حسناً ، وقد تمنى النبي ﷺ لنفسه منزلة الشهادة وقال عليه الصلاة والسلام : لا حسد إلا فى إثنتين : رجلاً آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وأناء النهار . ورجلاً آتاه الله القرآن فهو يقرؤه آناء الليل وآناء النهار ، وقال فى من ينفق ماله فى طاعة الله : لو أن لى مالاً لفعلت فيه كما فعل هذا ـ فهما فى الأجر سواء[1].

تلك أربعة أحاديث ذكرها الفتح فى شرح صحيح البخارى وقال فيها الكفاية لدينك .

ثانياً : ميراث النعمة الباقية والحجة البالغة (القرآن الكريم) .

أورث الله سبحانه وتعالى عباده النعمة الباقية ، والحجة البالغة ، الحكم العدل ، والقدوة الحسنة ، والأسوة الطيبة ، والمنهج المستقيم ، والشرع القويم .. قانون الإسلام وروحه بالحق واليقين ، والتشريع المبين..الأصل الأول فى الدين ودستور الله الدائم والميراث الأول والأخير إلى يوم الدين كتاب الله العظيم «القرآن الكريم»،الكتاب الخالد والمرجع الوحيد للأمة ، والفرقان الذى يفرق بين الحق والباطل والشك واليقين كتاب الدنيا والدين .

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة:٤٨].

كتاب دعوة ودستور وقانون وتشريع ونظام ومنهج كامل وشامل لإدارة شئون الحياة دنيا ودين فى كل زمان ومكان،معجزة رسول الله ﷺ على مدى الزمان .. كلام الله العزيز، تكلم به قولاً وأنزله على رسوله وحياً وآمن به المؤمنون حقاً .. فهو وإن خط بالبنان، وتلى باللسان ، وحفظ بالجنان ، وسمع بالآذان ، وأبصرته العينان .. لا يخرجه ذلك عن كونه كلام الرحمن منه بدأ وإليه يعود .

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة] .

﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ [فُصِّلَت] .

---

(١) جامع العلوم والحكم لأبي فرج شهاب الدين الحنبلي (بن رجب) ـ كتاب الأدب النبوي للمرحوم الدكتور محمد الخولى والحديث متفق عليه من حديث ابن عمر وله رواية أخرى لابن مسعود .

آياته واضحة وتتفق مع منطق العقل وحقائق الكون ، وأدلته قوية لا عوج فى إستقامتها .. تتحدى المعاندين وتكتم أنفاس المعارضين .. به كل الحجج والآيات البينات: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود] .

محفوظ فى الصدور ومسجل فى السطور .

﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤﴾ [عبس] .

لا يدخل إليه الباطل فليس للبطلان إليه سبيل .. تكفل الله بحفظه من التبديل والتغيير .

﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [فصلت] .

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر] .

أمثاله عبراً لمن تدبرها ، وأوامره هدى لمن استبصرها .. الأمر فيه واضح وجلى بالأدلة والبراهين على وحدانية الله،وعلى البعث والنشور،والنبوة والحساب ، والجزاء والعقاب، والميزان والصراط ، والجنة والنار.. والخبر فيه من الله جازماً وقاطعاً أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين .

﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٤﴾ [البقرة] .

وأنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لعجزوا ولو كان بعضهم عوناً لبعض.

﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ۝٨٨﴾ [الإسراء] .

فيه التوحيد والوعد والوعيد ، والزجر والتهديد والترغيب والترهيب .. فيه مكارم الأخلاق والعظة والإعتبار ، والأمر والنهى .. وجوامع الكلم والإعجاز .. فيه الحلال والحرام وفيه العبر والأمثال ، وفيه القصص القرآنى يقرر الوحدانية لله وحده .

١ ـ التوحيد فى القرآن :

وهو رأس كل شيء إذا فقده الإنسان فقد كل شيء ولم ينفعه شيء.. تنكر آيات التوحيد على المشركين شركهم بإتخاذ الأنداد والأصنام والأوثان من دون الله ، وتنكر عبادة العباد .. فجميعها مخلوقة لله .. لا تملك نفعاً ولا ضراً ولا حياة ولا نشورا .. لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج].

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ضعفت آلهتهم وهي الطالب ، وضعف الذباب وهو المطلوب .. فالوحدانية لله وحده .. وكل ما فى الوجود مخلوق لله .. والذين يعبدونه من دون الله مخلوق مثلهم .

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الأعراف].

ذلك لأن الله انفرد بكل شيء فلا ند فى ذاته ، ولا فى صفاته .. له الخلق والأمر والسلطان والقهر والرزق والنصر .. وهو بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الأعراف].

٢ ـ والوعد فى القرآن :

محقق لا شك فيه .. وعد الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالاستخلاف فى الأرض والأمن من المخاوف والعزة والسيادة ، والحياة الطيبة ، والجزاء الحسن .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور].

وقد تحقق وعد الله بنصره دينه وجعلهم خلفاء فى الأرض وأظهر الله المهاجرين على جزيرة العرب وفتح لهم بلاد الشرق والغرب وقذف فى قلوب عدوهم الرعب[1] .

---

(١) ورد في هداية المرشدين للشيخ علي محفوظ (ص١٩٣) أن الله وعد الذين جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال(ومنه نصر دين الله) (أن يجعلهم خلفاء في الأرض كما استخلف بني اسرائيل في مصر والشام بعد إهلاك فرعون والجبارين) .

وفي قوله تعالى (كما استخلف الذين من قبلهم) قال القرطبي (٦/ ٤٨٣٧) يعني بني اسرائيل ، أهلك الجبابرة بمصر والشام وأورثهم أرضهم وديارهم.

ووعد الله سبحانه وتعالى المخلصين فى عملهم بحسن الجزاء فى الدنيا والآخرة ، والحياة الطيبة .. وكان حظ المتقين بوعد الله لهم فى نعيم الدار الآخرة جزاء حسناتهم وإحسانهم فى الدنيا .

قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [النحل].

وقال سبحانه : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل] .

ووعد سبحانه وتعالى المؤمنين الصادقين أن يمنحهم الهداية فى قلوبهم بتقواهم فقال جل فى علاه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال] .

ووعد الله الذين قالوا ربنا الله الذي لا إله غيره ، ولم يشركوا به شيئا، واستقاموا علي أمر الله فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته أنه لا خوف عليهم من فزع يوم القيامة وأهواله ، ولا يحزنون علي ما خلفوا وراءهم بعد مماتهم ، وأنهم أهل الجنة ماكثين فيها أبدا ، ثوابا من الله لهم علي أعمالهم الصالحة[1] ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف].

٣ ـ والوعيد فى القرآن :

فى آياته ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات ، فهؤلاء الذين أدركتهم الغفلة عن الله وأعرضوا عنه وأمنوا كيده ، يتوجهون إلى الله فى شدتهم فإذا ما نجاهم إذا هم ينسون ويجحدون .. ينسون لحظات الشدة عندما تزول عنهم ويعودون لأهوائهم وشهواتهم .. فكيف لهم الراحة والأمان والقرار والاطمئنان بغير حماية الرحمن ؟

قال تعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾[الإسراء] .

---

(١) نقلا من مختصر الطبري ٢/ ٣٥٣ .

وعيد وتهديد أن يخسف الله هذه الأرض فإذا هى تضطرب فيرتج كل ما على ظهرها أو يتحطم ويمور كل ما عليها ، أو تأتى العواصف والرياح فتدمغهم .

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك] .

وأوعد العاصين بالخزى والذل وضنك المعيشة فى الحياة الدنيا وهم الذين تولوا ولم يستجيبوا لأمر الله ، فحشرهم الله عمياً عن رؤية الأشياء .

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه] .

ولقد خوف الله فى القرآن بضروب الوعيد للتذكرة والموعظة .. فبالوعد ساق الطائعين إلى طاعته ، وبالوعيد أوقف العاصين عند حد الأدب فخافوا معصيته .

٤ – والترغيب فى القرآن :

إذ يقول سبحانه وتعالى فى شأن الخاشعين لله ـ الخاشعة قلوبهم وهم من عذابه خائفون لا يستكبرون: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة] .

مقطوعون لطاعة الله وعبادته يدعون ربهم خوفاً من عقابه وطمعاً فى عفوه ورحمته ، وينفقون مما رزقهم الله فى سبيله ، ويؤدون ما عليهم من حقوق وواجبات ـ فلا تعلم نفس ما أخفى الله لهؤلاء يوم القيامة مما تقر به أعينهم فى جنات الله ثواباً على أعمالهم .

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات] .

لا يشغلهم عن الله راحة أخرى .. قال الإمام ابن كثير:

فالمتقون في حال كونهم في الجنان والعيون آخذين ما آتاهم ربهم ـ أي من السرور والنعيم والغبطة ، وقوله عز وجل «إنهم كانوا قبل ذلك» أي في الدار الدنيا [1] .

---

(١) (ابن كثير ٣/ ٣٨٣) ـ نقلا من تفسير م الطبري ٢/ ٣٨٩ .

٥ ـ والوعظ فى القرآن :

إنذار للناس بيوم القيامة مذكراً بموقف الذين ظلموا وفرطوا فى حياتهم الدنيا ، وهم يتوجهون إلى الله بالرجاء أن يؤخرهم إلى أجل قريب ليجيبوا الدعوة ، ويتبعوا الرسل .. بعد أن كانوا قد أقسموا أن الدنيا دارهم لا يموتون ولا يبعثون .. وهم الذين سكنوا مساكن قوم نوح وعاد وثمود من الأمم الطاغية .. ولم يتعظوا فإذا هم عند الواقعة يأملون ويرجون .

وقد مضت سنة الله أنه لا ينفع إيمان ولا عمل لنفس لم تؤمن من قبل ولم تكسب عملاً صالحا فى إيمانها ، فإذا جاءت أشراط الساعة وعلاماتها لا ينفع بعده إيمان ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام] .

يتوجه الذين ظلموا يومئذ إلى الله بالرجاء والدعاء يأملون ما لم يعد فيه رجاء .. يأملون التأخير في الأجل ليؤمنوا بالله ويصدقوا الرسل.

قال سبحانه وتعالى:

﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ [إبراهيم] .

فلما أحل بهم عقاب الله قالوا أقررنا بوحدانية الله وصدقنا أنه لا إله إلا الله وجحدنا بالآلهة التى عبدناها مع الله .. ولكن بعد فوات الأوان ! ولو أخرهم الله وأنظرهم حيناً من الزمان وإن طال ، ثم جاء أمر الله فلا يغنى عنهم ما كانوا يكسبون ولا يغنى عنهم ما كانوا فيه من النعيم : ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء] .

أو كالذى يبخل بنفسه وماله ويستغنى عن الهداية ويعرض نفسه للفساد فينحرف عن طريق الرشاد فإنه إذا مات لن يغنى عنه ماله الذى بخل به واستغنى به.

﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [الليل] .

ـ وليس أشقى من البخيل بماله يشقى فى الدنيا بجمعه ويحاسب فى الآخرة على منعه ، فلا يأمن فى الدنيا همه ولا هو ناج فى الآخرة من إثمه ـ ويوم يقوم الأشهاد لا يقبل من

المشركين عذر ولا فدية ولهم الإبعاد والطرد من رحمة الله ولهم سوء الدار ..﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [غافر].

٦ ـ ومن جوامع آيات القرآن :

ما يأمر الله به من العدل والعفو الحلم والصفح والأمر بالمعروف واحتمال الأذى ممن جهل عليك والإعراض عنه ... « ونأخذ منها القليل » .

فقد أمر الله بالقسط والإنصاف وأداء فريضة الله وحقه الذى أوجبه فى القرابة وصلة الأرحام ونهى عن الزنا والفحشاء وكل ما تنكره العقول ، ونهى عن الظلم والتعدى والبغى .. فقال سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل].

ـ أى لتتذكروا وتنيبوا إلى الله ، وأمر سبحانه بالعفو والصفح وترك الغلظة والأمر بالمعروف من كل قول وعمل دعا الله له والإعراض عمن جهل عليك بإحتمال الأذى منه..

فقال سبحانه: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف].

روى ابن حاتم قال : لما نزلت الآية سأل النبي ﷺ جبريل عنها فقال له : إن الله يامرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عن من ظلمك[1] .

وفى رواية لرزين قال : وأوصاني ربى بتسع (الإخلاص فى السر والعلانية ـ العدل فى الرضا والغضب ـ والقصد فى الغنى والفقر ـ وأن أعفو عن من ظلمنى وأعطى من حرمنى ـ وأصل من قطعنى ـ وأن يكون صمتى فكراً ـ ونطقى ذكراً ـ ونظرى عبرة[2] فإذا أغضب أهل الإيمان أحد فوجب عليهم المغفرة .

﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشورى].

فمن عفى عمن أساء إليه فلم يعاقبه ابتغاء وجه الله فأجر عفوه على الله والله يثيبه عليه:

﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورى].

---

(١) ابن مردويه م حديث ابر وقيس بن سعد بن عباده - وأنس بأسانيد حسان (الإحياء ٢/ ٤٨) .

(٢) وصايا الرسول للشيخ طه عفيفي (٩ / ٨٥) .

لا يحب أهل الظلم الذين يتعدون على الناس ويسيئون إليهم .. فشملت آيات الله الحلم والصبر والعفو وتحمل الأذى فى سبيل الله ،، وكل هذه من مكارم الأخلاق .. ولمن صبر على الإساءة وغفر للمسيئ فلم ينتصر منه ابتغاء وجه الله وجزيل ثوابه فإن ذلك من عزم الأمور التى ندب الله إليها عباده وعزم عليهم العمل بها .

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى] .

ولا يستوى أهل الطاعة والإيمان بأهل الشرك والعصيان..فادفع بالحلم جهل الجاهل، وبالعفو إساءة المسئ ، ادفع بحلمك جهل من يجهل عليك ، فإذا فعلت وجدت الذى بينك وبينه عداوة كأنه صديق قريب قد قادته الحسنة إليه إلى مصافاتك وصحبتك .

قال تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فُصِّلَت] .

أى ما يعطى هذه المنزلة إلا الذين صبروا على المكاره وتحملوا الأذى فنالوا رضي الله .... وقال سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ فيما كان يلقاه من أذى المشركين .

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾ [المزّمل] .

وكان ذلك قبل الأمر بالقتال ، وكان المسلمون فى مكة قلة مستضعفين .. فلما عز الله الإسلام وكثر أتباعه أمر الله المسلمين بقتالهم [1] ... والذين يكتمون غيظهم إذا أغضبوا وأصفحوا عمن أساء إليهم فذلك إحسان يحبه الله .

قال سبحانه وتعالى فى صفات الذين يبادرون إلى مغفرته ويسارعون إلى جنته .

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران].

٧ ـ ومن الأوامر والنواهى فى القرآن .

جمع الله الأوامر والنواهى ومصالح الدنيا والآخرة فى ثلاثة عشر أمر ونهى فى كتاب الله . حرم الله فيها الشرك وأوصى بطاعة الوالدين وحرم قتل الأولاد بالوأد خشية الفقر ، وكل ما يستقبح فعله من الفواحش ما ظهر منها وما بطن وخفى .. وحرم سبحانه قتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بما أباح سبحانه فيما جاء به البلاغ فى الكتاب والسنة كالقصاص والرجم والردة ... وحذر سبحانه من القرب إلى مال اليتيم ، وأمر بالعدل

---

(١) م الطبرى ٢/ ٤٩٦ .

والقسط فى الكيل والميزان وألا يبخس الناس حقوقهم .. كذلك العدل فى القول ، وأن إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . فقال سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : وأمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الإختلاف والتفرقة وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات فى دين الله ،، وقال الإمام أحمد بن حنبل عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال:خط رسول الله ﷺ خطاً بيده ثم قال: « هذا سبيل الله مستقيما » وخط عن يمينه وشماله ثم قال:هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ [1] :

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣]

هذا ولم يحرمنا الله من العطاء بفضله وكرمه لتناول بعض هذه الأوامر والوصايا فى موقعها بهذا الكتاب إن شاء الله ...

٨ ـ إعجاز القرآن فى الخبر والبيان .

ومن تدبر القرآن الكريم وجد فيه من وجوه الإعجاز فى الألفاظ والمعانى الظاهرة منها والخفية ، عظمة وفصاحة فى الخبر والبيان .. فيتحدث عن المغيبات فتقع مثل ما أخبر القرآن .. يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الروم] .

---

(١) ابن كثير ٢/ ١٩٠ .

بعث كسرى جيشاً إلى الروم واستعمل عليهم رجلاً يسمى شهريران، فسار إلى الروم بأهل فارس وظهر عليهم فقتلهم وخرب مدائنهم وقطع زيتونهم ،، وكان قيصر قد بعث رجلاً يدعى يحنس فالتقى مع شهريران بأذرعات وبصرى وهى أدنى الشام إلى أرض العرب ، فغلب فارس الروم ... وبلغ النبي ﷺ وأصحابه بمكة فشق ذلك عليهم ، وكان النبي ﷺ يكره أن يظهر الأميون من أهل المجوس على أهل الكتاب من الروم ، وفرح كفار مكة وشمتوا ، فلقوا أصحاب النبي ﷺ فقالوا إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون،وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم فأنزل الله تعالى [١] :

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾ [الروم] .

الروم من سلالة العيص بن اسحق بن إبراهيم وهم أبناء عم بنى إسرائيل ويقال لهم بنو الأصفر ، وكانوا على دين اليونان ، واليونان من سلالة يافث بن نوح أبناء عم الترك وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة ويقال لها المتحيره،ويصلون إلى القطب الشمالى.. وهم الذين أسسوا دمشق وبنوا معبدها وفيه محاريب إلى جهة الشمال .. فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة [٢] .

الأرض هنا : هى أرض الشام وأدنى الأرض فيها ثلاثة أقوال .

اذرعات : وهى ما بين بلاد العرب والشام « قاله عكرمه ».

الجزيرة : وهى موضع بين العراق والشام «قاله مجاهد» .

الأردن وفلسطين « قاله مقاتل» .

قال بن عطيه :

إن كانت الوقعة بأذرعات فهى من أدنى الأرض بالقياس إلى مكه.

وإن كانت الوقعة بالجزيرة فهى أدنى بالقياس إلى أرض كسرى .

وإن كانت بالأردن فهى أدنى أرض الروم [٣] .

---

(١) الشعراوى ١٨/ ١١٢٨٩ .

(٢) ابن كثير ٣/ ٤٢٤ .

(٣) القرطبي الجامع لأحكام القرآن ٧ / ٥٢٦٠ .

٩ ـ وخرق الله لرسوله الحجاب لمشاهد الأحداث فى الماضى والمستقبل .

ومحمد ﷺ النبي الأمي المقيم فى جزيرة العرب ولا يعرف شيئاً عن قوة الروم أو قوة الفرس يخبر بنتيجة المعركة التى لم تبدأ بعد بين الروم والفرس ، بعد أن غُلبت الروم من الفرس ، وانتصر أهل المجوس على أهل الكتاب من الروم ـ يخبر رسول الله ﷺ أن المعركة القادمة بينهما ستكون فى بضع سنين « دون العشر سنوات من ثلاثة إلى عشرة » وينتصر الروم على الفرس ويغلبوها ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله : ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥ ﴾ [الروم] .

تبشر بنصر الله للمؤمنين بعد أن يتفرق شمل الكفار ويغلبون ويهزم كفار قريش ويولون أدبارهم للمؤمنين ،، ويتحدى بها رسول الله ﷺ فى قرآن يتلى إلى يوم القيامة .. وهو ﷺ واثق من حدوث ما أخبر به .. لقد خرق الله لرسوله حجاب المستقبل .

﴿ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ [الروم] .

روى ابن جرير بإسناده عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال : كانت فارس ظاهرة على الروم ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم ـ فلما نزلت الآيات قالوا لأبي بكر إن صاحبك يقول إن الروم تظهر على فارس فى بضع سنين .

قال : صدق ـ قالوا هل لك أن نقامرك ؟ فبايعوه على أربع قلائص[1] إلى سبع سنين فمضت السبع ولم يكن شيئ ، ففرح المشركون بذلك فشق على المسلمين ـ فذكر ذلك النبي ﷺ فقال : ما بضع سنين عندكم ؟ قالوا دون العشر ـ قال : اذهب فزايدهم وازدد سنتين فى الأجل ـ قال فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس ففرح المؤمنون بذلك[2] .

أى ثقة فى أمر يحدث فى المستقبل يتحدث بها النبي ﷺ بكل القوة والجراءة ؟ إلا تلك الثقة بالله الذى يملك كل شيئ ، ويعلم كل شيء .

لا ملك ولا نبي ولا رسول إلا إذا أطلعه الله على ذلك :

---

(١) القلوص : هى الناقة التى تركب .

(٢) ابن كثير ٢/ ٤٢٣ ، الظلال ٥/ ٢٧٥٦ .

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن].

وأى ثقة هذه التى تُنطق لسان أبي بكر الصديق ﷺ دون تفكير ليصدق ما قاله رسول الله ﷺ .. قالوا إن صاحبك يقول إن الروم تظهر على فارس فى بضع سنين ... قال : صدق ـ وفى إسراء رسول الله ﷺ ، قالوا هل لك فى صاحبك ـ يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس ثم رجع إلى مكة فى ليلة واحدة – فقال أبوبكر : أوقال ذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : فأنا أشهد لئن كان قال ذلك فقد صدق ـ قالوا فتصدقه فى أن يأتى الشام فى ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح ؟ قال نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك ـ أصدقه بخبر السماء .

قال أبوسلمه «فيها سمى الصديق »[1] .

إنها ثقة الإيمان بالله والتصديق برسول الله ﷺ إيمان المحبين الصادقين الطائعين لله ورسوله ـ وذلك الفرقان الذى يمنحه الله للمؤمنين الذين عملوا واتقوا ربهم فيما علموا من صدق الرسالة وصدق الرسول .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال] .

وفرح المؤمنون بنصر الروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى وهم المجوس ، وقيل إن نصرة الروم على فارس كانت عام الحديبية ، وقيل انها صادفت يوم انتصار المسلمين ببدر «والله أعلم ».

يقول فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي .

لا يحدث شيء إلا بمراد الله تعالى حتى لو انتصر الباطل: لا يتم ذلك إلا لمراده تعالى؛ لأن الله تعالى لا يُبقي الباطل ولا يُعلي الكفر إلا ليظهر الحق، فحين يُعَضُّ الناس بالباطل، ويشقَون بالكفر يفزعون إلى الإيمان ويتمسكون به... قال تعالى :

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة] .

كلمة الله هي العليا بداية ودائما، وإنّ علت كلمة الباطل إلى حين[2] .

---

(١) ابن كثير (٣/ ١١) .

(٢) تفسير الشيخ الشعراوي ١٨/ ١١٣٠٨.

والحديث لازال متصلاً عن القرآن الكريم كتاب الله العزيز العليم والميراث الأول والأخير ... والمراد هنا « إخبار القرآن بالغيبيات ووقوع الأحداث بصدق ما بلغ القرآن فى وعد الله الحق ، وخبره الصادق » .

والغيب أمر فوق طاقة البشر لا يعلمه إلا الله ، ولا يستطيع إدراكه أحد ، استأثر به سبحانه وتعالى وأودع ما شاء من غيبه بطريق الوحى إلى رسله الكرام معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوءتهم .. يكشفه سبحانه لهم بقدر فى حدود ما يعاونهم على تبليغ الرسالة،وما كان يوحى به إليهم إلا غيباً من غيبه ، والرسل مؤيدون بالمعجزات ومنها الإخبار عن بعض المغيبات ، قال الله فى عيسى عليه السلام :

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾ [آل عمران] .

وفى موضع أخر من كتاب الله يقص القرآن مصارع المكذبين المعاندين الذين ذكرنا أقوالهم فى بداية الكتاب فى عرض سريع لمصارع قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وفرعون وملئه ، ويخاطب كفار قريش ويحذرهم مصرعاً كهذه المصارع فما تمنعهم قوتهم ولا تجمعهم من مثل ذلك المصير الذى لقيه كفار هذه القرون الغابرة ، فليست لهم براءة فى الصحف المنزلة ، ولكن القوة غرتهم ، والجمع أغراهم فيقولون لا هازم لنا ولا غالب ـ ويرد القرآن :

﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ٤٤ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥﴾ [القمر] .

قال مقاتل : ضرب أبوجهل فرسه يوم بدر فتقدم من الصف الأول وقال :

نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه فأنزل الله الآية، وقال بن عباس رضي الله عنهما : كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين .

وعن بن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : وهو فى قبة له يوم بدر «أنشدك عهدك ووعدك اللهم ان شئت لم تعبد بعد اليوم أبدا » .

فأخذ أبوبكر رضي الله عنه بيده وقال : حسبك يارسول الله فقد ألححت على ربك ، وهو فى الدرع فخرج وهو يقول :

﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ٤٦﴾ [القمر].

أى أدهى وأمر مما لحقهم يوم بدر،وأدهى من الداهية وهى الأمر العظيم [1] .

---

(١) القرطبي ٩/ ٦٥٤٩ .

وكانت هذه هزيمة الدنيا ،، ولكنها ليست الهزيمة الأخيرة فهناك أدهى وأمر من مصارع الجبارين .

روى ابن حاتم بإسناده إلى عكرمة قال : لما نزلت الآية قال عمر : أى جمع يهزم ؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثبت فى الدرع وهو يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] .

فعرفت تأويلها يومئذ (١).

وخرق الله لرسوله حجاب الماضي : فأخبره بحوادث وأحداث الأمم السابقة كما فى قوله تعالى :

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [القصص] .

فما كان رسول الله ﷺ بجانب غربى الجبل إذ ألزم الله موسى وقومه أمر الوحى وما كان حاضراً لذلك شاهداً له ، ولكن الله خلق أمماً من بعد ذلك ـ وقد تطاول عهدها فحرفوا وبدلوا الشرائع ـ وما كان رسول الله ﷺ مقيماً فى أهل مدين يقرأ عليهم كتاب الله ليعرف خبرهم ـ ولكن الله كان يرسل الرسل، وعرف رسوله ﷺ وابتعثه إلى الخلق لينذر قوما لم يأتهم قبله رسول ـ رحمة منه سبحانه وتعالى ليتذكروا وينيبوا إلى الله .

١٠ـ وخرق الله لرسوله حجاب المكان وما يدور فى نفوس المعاندين.

كانت خطة رسول الله ﷺ فى التعامل مع المنافقين تتصف بالنصح لهم بالاستقامة والإخلاص وتنهاهم عن الدسائس والمؤامرات التى يدبرونها بالإتفاق مع اليهود فى المدينة وفى مجالسهم التي يتناجون فيها ويدبرون هذه الدسائس والمؤامرات ، وقد أخبر الله رسوله ﷺ بما كانوا يقولونه فى أنفسهم وفى مجالسهم . قال سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة] .

---

(١) ابن كثير ٤/ ٢٦٦ .

ففضح الله أمرهم وأخبر رسول الله ﷺ بما فى نفوسهم وأخبره بما يدور فى نفوسهم وبما يقولون وما هو مكنون فى صدورهم ، ولكنهم رغم هذا معاندون ومنكرون . وقوله تعالى :

﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَاۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ [المجادلة] .

أى يحرفون الكلام ويبهمون السلام وهو فى الباطن شتم ويقولون فى أنفسهم لو كان هذا نبياً حقا لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة فى الدنيا[1]، فقال الله تعالى :

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَاۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ [المجادلة] .

فمن الذى أخبر رسول الله ﷺ بما فى نفوسهم ؟ ـ إنه الله الذى يعلم ما فى السموات وما فى الأرض .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة] .

ولا أظلم ممن ذكره الله بآياته وبينها له ووضحها ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها كأنه لا يعرفها ، قال قتادة : إياكم والإعراض عن ذكر الله فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرة ، وأعوز أشد العوز، وعظم من أعظم الذنوب ـ ولهذا قال الله تعالى متهدداً لمن فعل ذلك بالإنتقام .

عن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ثلاث من فعلهن فقد أجرم من عقد لواء فى غير حق ، أو عق والديه ،أو مشى مع ظالم ينصره [2] . ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة] .

١١ـ ويكشف الله لرسوله الحجاب فى أحداث مؤته .

وكانت هذه الغزوة فى جمادى الأولى سنة ثمان ، وسببها أن رسول الله ﷺ بعث الحرث بن عمير الأزدى أحد بنى لهب بكتابه إلى الشام إلى ملك الروم أو بصرى ـ فعرض له

---

(١) ابن كثير ٤/ ٣٢٣ .

(٢) رواه بن جرير عن عمران عن بن المبارك عن..... عن عباده عن جناده بنأميه عن معاذ ﷺ (بن كثير ٣/ ٤٦٢) .

شرحبيل بن عمرو الغسانى فأوثقه رباطا ثم قدمه فضرب عنقه ، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره ـ فاشتد ذلك عليه حين بلغه الخبر .. فبعث البعث واستعمل عليه زيد بن حارثة .. ودارت المعركة على أرض الأردن ، ورسول الله ﷺ بالمدينة [١] .

وأهل السيرة لا يطلقون اسم الغزوة إلا على التى حضرها رسول الله ﷺ ... وكل حدث حربى لم يحضره رسول الله ﷺ يسمى سريه .. إلا هذه المرة هى التى سميت بغزوة مؤته، وانفردت بها مع أن رسول الله ﷺ لم يحضرها ولم يشهدها .. قالوا بل شهدها رسول الله ﷺ وهو بالمدينة بما كشف الله له من حجاب المكان ، واطلعه على ما يدور هناك ـ حتى يخبر صحابته بما يدور فى الحرب كأنه يراها فيقول: أخذ الراية فلان فقتل ، فأخذها فلان فقتل ، فلما جاءهم الخبر وجدوا الأمر كما أخبر به سيدنا رسول الله ﷺ [٢] .

عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ نعى زيدا وجعفرا وابن رواحه للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ثم أخذ ابن رواحه فأصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم [٣] .

« وفى صحيح مسلم عن أبي ذر ﷺ عن النبب ﷺ قال : إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط فأستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحما .. » .

وكانت هذه الأرض هى أرض مصر ، وقد افتتحها عمرو بن العاص فى سنة عشرين أيام عمر بن الخطاب ﷺ [٤] .

«وقال رسول الله ﷺ : إذا هلك قيصر فلاقيصر بعده ، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ـ والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله» .

قال البخاري عن أبي هريرة ﷺ ـ عن النبي ﷺ قال : لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر وحتى تقاتلوا الترك صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الأنوف[٥]،كأن وجوههم المجان المطرقة ، وتجدون خير الناس أشدهم كراهة لهذا الأمر حتى يدخل فيه ،

---

(١) زاد المعاد لابن القيم ٢/ ١٥٥ .

(٢) الشعراوي ١٨/ ١١٣٠٥.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه ٤٣٦٢ .

(٤) صفوة الصفوة لابن الجوزى (الفتن والملاحم لابن كثير) .

(٥) الذلف بالتحريك : قصر الأنف وصغره .

والناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام ، وليأتين على أحدكم زمان لأن يراني أحب إليه من أن يكون له مثل أهله وماله .

وقال البخاري عن أبي هريرة لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا حوراً وكرمان من الأعاجم حمر الوجوه فطس الأنوف كأن وجوههم المجان المطرقة نعالهم الشعر ، وفي رواية أحمد .

«عراض الوجوه » ـ وهؤلاء هم الترك وقاتلهم الصحابة فهزموهم وغنموهم .. والأمر لم ينته بعد فمازالت الدنيا في إنتظار خروج يأجوج ومأجوج ..

وقد كان ما أخبر به عليه الصلاة والسلام ... وسلب ملك كسرى إستجابة لدعوة النبي ﷺ بعد أن مزق اللعين كتاب رسول الله ﷺ .

« وقد أشرنا من قبل إلى هذا الموضوع » ثم استؤصل ما في يده وما في ملكه في خلافة عثمان ﷺ.. وكانت يد قيصر الروم قد إنزاحت عن بلاد الشام والجزيرة في عهد أبوبكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم جميعاً (١) .

١٢ ـ تنبؤات الخلافة وولاية الأمر .

وفي كتاب التوبة لابن تيمية عن رواية الإمام أحمد في قول رسول الله ﷺ« عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة » .

قال عليه الصلاة والسلام : الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تصير ملكا ...

وقد كانت على تمام الثلاثين مع الأشهر التي تولاها الحسن ﷺ .

وفي تفسير قول الله تعالى : ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التحريم] .

روى الطبراني عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : دخلت حفصه على النبي ﷺ في بيتها وهو يطأ ماريه ـ فقال لها رسول الله ﷺ لا تخبري عائشة حتى أبشرك ببشارة « إن أباك يلي الأمر من بعد أبي بكر إذا أنا مت » فانطلقت حفصه فأخبرت عائشة فأظهره الله عليه «أي أطلعه الله على أنها قد نبأت به» فعرف بعضه وأعرض عن بعض ـ قال أعرض عن قوله إن أباك وأباها يكونا من بعدي ـ كره رسول الله ﷺ أن ينشر ذلك الناس .

---

(١) الفتن والملاحم (البداية والنهاية لابن كثير - والحديث في الصحيحين عن أبي هريرة .

فقالت عائشة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ من أنبأك هذا ؟

قال : « نبأني العليم الخبير »[١] .

ومن الملوحات الغيبية ورد في تفسير بن كثير ما جاء من حديث أبي بكر الهزلي عن عكرمه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ دخل على خديجة وهي في الموت فقال : يا خديجة إذا لقيت ضرائرك فأقرئيهن مني السلام .. فقالت يارسول الله وهل تزوجت قبلي ؟ قال : لا ـ ولكن الله زوجني مريم ابنة عمران وآسيا إمرأة فرعون وكلثم أخت موسى ..وفي رواية أخرى عن أبي أمامه قال: قال رسول الله ﷺ : أُعلمت أن الله زوجني في الجنة مريم بنت عمران وكلثم أخت موسى وأسيا امرأة فرعون .. فقالت هنيئاً لك يارسول الله[٢] .

وقد أورده القرطبي في تفسيره عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال لخديجة وهي تجود بنفسها . أتكرهين ما قد نزل بك ؟ ولقد جعل الله في الكره خيرا ـ فإذا قدمت على ضراتك فأقرئيهن مني السلام « مريم بنت عمران»، وأسيا بنت مزاحم ، وكليمه أو قال حكيمة بنت عمران أخت موسى بن عمران ـ فقالت بالرفاء والبنين يارسول الله .

وروى قتاده عن أنس ـ عن رسول الله ﷺ قال : حسبك من نساء العالمين أربع «مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وأسيا امرأة فرعون بنت مزاحم»[٣] .

١٣ـ مؤامرات اليهود بالسحر والسم لرسول الله ﷺ :

وفي قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة] .

طرح طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم بما فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم وتركوها كأنهم لا يعلمون ما فيها ، وأقبلوا على تعلم السحر وأتباعه ولهذا أرادوا كيداً لرسول الله ﷺ وسحروه في مشط ومشاقه وجف طلعه ذكر تحت راعوفه ببئر أروان ، وكان الذي تولى ذلك منهم رجل يقال له لبيد بن الأعصم لعنه الله وقبحه ـ فأطلع الله على

---

(١) ابن كثير ٤/ ٣٩٠ ، القرطبي ١/ ٦٩١٢ .

(٢) ابن كثير ٤/ ٣٩٠ .

(٣) القرطبي ١٠/ ٦٩٢٩ .

ذلك رسوله ﷺ وشفاه منه كما ثبت ذلك مبسوطاً فى الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها[١].

ومشهد أخر لليهود الذين تآمروا على قتل محمد ﷺ وقد أهدوه شاه مسمومة وما كاد الرسول ﷺ يأكل منها حتى قال إن هذه الشاه تخبرنى أنها مسمومة ـ فأنطق الله العظم يكلم النبي ﷺ .. أنا مسمومة لا تأكل منى ـ وأعلم الله رسوله ﷺ مؤامراتهم كما أعلمه بالملعون لبيد بن الأعصم الملعون اليهودى الساحر[٢].

١٤ ـ عمر بن الخطاب وشفافية العطاء .

إنه الله وحده الذى يعلم كل شيئ علماً مطلقاً ـ هو المختص بعلم الغيب فلا يطلع الغيب أحداً من خلقه ـ استأثر به سبحانه ، وأودع ما شاء من غيبه بطريق الوحى إلى رسله الكرام بقدر ما يعاونهم على تبليغ الرسالة ، كذلك سبحانه يتأذن للعباد بشيئ من الشفافية والرأى السديد والعقل الراجح فى كرامات أوليائه .

.. وأذكر هنا عمر بن الخطاب ﷺ الذى وافقه القرآن فى مراده قال عمر ﷺ: وافقت ربي فى ثلاث .

قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟ فنزلت الآية .

﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥].

وقلت يارسول الله : يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب ، وكان النساء قبل أن تنزل آية الحجاب عرضة للكلام والضحك والفرح الشيطاني : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٩].

وقد بلغني معاتبة النبي ﷺ ببعض نسائه فدخلت عليهن فقلت إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيراً منكن فأنزل الله تعالى : ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ﴾ [التحريم:٥].

---

(١) ابن كثير ١/ ١٣٤ - القرطبي ١/ ٥٤٣ .

(٢) حديث اليهودية زينب امرأة سلام بن مشكم التى وضعت السم فى الطعام ، وكان بشر بن البراء قد تناوله منها وأصاغها فمات والحديث أخرجه البخاري وأحمد وأبوداوود مرفوعاً عن أبي هريرة ﷺ .

هذا شيء يسير من شمائل عمر،وكفاه من رضوان الله عليه أنه من العشرة المبشرين بالجنة، والحديث عنه يطول ـ ونحن بصدد ما يتأذن الله بقدر من علمه للعباد ـ ونعلم أن عمر بن الخطاب ﷺ كان قد بعث سارية بن زنيم الدئلى لفتح مدينة «فسا» وهى مدينة بفارس وحاصرهم ما شاء الله ، ثم أنهم استمدوا فتجمعوا وتجمعت إليهم أكراد فارس ، فدهم المسلمين أمر عظيم وجمع كثير .

فرأى عمر فى تلك الليلة فيما يرى النائم معركتهم وعددهم فى ساعة من النهار فنادى من الغد : الصلاة جامعة حتى إذا كانت فى الساعة التى رأى فيها ما رأى خرج إليهم وكان أريهم والمسلمون بصحراء، أن قاموا فيها أحيط بهم ، وأن أزروا إلى جبل أى انحازوا واجتمعوا وأنضم بعضهم إلى بعض ، والجبل من خلفهم لم يؤتوا إلا من وجه واحد ، ثم قام فقال : يأيها الناس إنى رأيت هذين الجمعين ـ وأخبر بحالهما ـ ثم قال : ياسارية الجبل الجبل ، ثم أقبل عليهم وقال : إن لله جنودا ولعل بعضها أن يبلغهم .

ولما كانت تلك الساعة من ذلك اليوم أجمع سارية والمسلمون على الإسناد إلى الجبل أى الصعود إليه ففعلوا وقاتلوا القوم من وجه واحد فهزمهم الله لهم [1] .

١٥ ـ عمار بين معاوية وعلى وتحقيق نبوءة الرسول عليه الصلاة والسلام .

ونذكر موقفاً آخر وأخيراً حتى لا تأخذنا عظمة البيان والإعجاز القرآنى والغيب الذى أودع الله خلقه ما شاء منه ولا يحيطون بشيئ من علمه ـ حتى لا يأخذنا هذا عن هدف الكتاب الذى يتحدث عن ميراث رسول الله ﷺ ـ ولازلنا فى الميراث الأول والأخير وهو كتاب الله العظيم القرآن الكريم ،، ونختمها كما بدأناها فى أمور الغيب لحضرة النبي ﷺ : كان عليه الصلاة السلام قد قال فى عمار بن ياسر : ويح عمار تقتله الفئة الباغية ـ فأخبر بذلك عن مصير عمار بن ياسر بما كشف له الله من الأسرار والمغيبات .

وفى موقعة صفين دار القتال بين على بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، وكان عمار بن ياسر فى صفوف على فقتله جنود معاوية ،، ونعلم أن علي بن أبي طالب ﷺ تربى فى حجر رسول الله ﷺ وشرب من معينه، فكل معلوماته إسلامية ، وله فى الحق حجة ومنطق ـ فتذكر مع الصحابة قول رسول الله ﷺ لعمار ويح عمار تقتله الفئة الباغية ـ فعلموا أنها فئة معاوية .

---

(١) تاريخ الطبرى ٤/ ١٧٨ - البداية والنهاية ٧/ ١٣٠ ، ١٣١ ووردت فى خطب أمير المؤمنين للدكتور محمد عاشور .

فأخذ الصحابة يتركون صفوف معاوية فى المعركة إلى صفوف على ،، فأسرع عمرو بن العاص ﷺ وكان فى جيش معاوية فقال له ياأمير المؤمنين : فشت فاشيه فى الجيش إن هى استمرت فلن يبقى معنا أحد .. قال وما هى ؟ قال تذكر الناس قول رسول الله ﷺ ويح عمار تقتله الفئة الباغية ـ قال معاوية : فأفشى فيهم إنما قتله من أخرجه للقتال « أي على » فلما بلغ على هذه المقاله قال بما عنده من الفرقان والحجة:إذاً قولوا لهم من قتل حمزة بن عبدالمطلب[1] ؟

« بهذا نكتفى بضرب الأمثال التى علمنا منها ما تحدث عنه القرآن من المغيبات، فوقعت حقاً مثل ما أخبر القرآن وأضفنا بعض الكشف والشفافية لما حدث مع عمر بن الخطاب ﷺ » .

ورضي الله عن عمر بن الخطاب الذى كان ينزل الوحى على وفق رأيه كان يقول : بئس المقام بأرض ليس فيها أبوالحسن« أى على بن أبي طالب ﷺ » .

وبتلك البلاغة والبيان القرآنى فى كشف أمور الغيب وتحديد النهاية قبل أن تبدأ يتحدث القرآن فى الأحكام والأوامر والنواهى مخاطباً المؤمنين فى كل ما يأمر به وينهى عنه ـ لذلك ورد عن بن مسعود ﷺ وغيره من السلف قال : إذا سمعت الله تعالى يقول فى القرآن يأيها الذين أمنوا فأرعها سمعك فإنها خير يأمر به أو شر ينهى عنه .

١٦ ـ ومن حرمة القرآن وأمره الجلى .

ألا يقرأ فى الأسواق ولا فى مواطن اللغط واللهو واللغو ومجمع السفهاء ، وقد ذكر الله عباد الرحمن وأثنى عليهم فقال :

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الفرقان] .

الإستماع إلى القرآن والإنصات إليه حيثما قرئ فإذا قال الله فالجميع منصتون بالسمع له .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف] .

وإن الناس يخسرون الخسارة العظيمة بالإنصراف عن القرآن والإستماع إليه والتصنت.

أن يفهم العبد أمر الله ويتدبر معانيه ، ويعتبر بما جاء فيه من طاعة الله وعبادته ، وأداء حقوقه وفرائضه ، والإذعان لأوامره ، والإزدجار لنواهيه، فيخشع قلبه لله ويلين ويخشى

---

(١) تفسير الشيخ الشعراوي ١٨/ ١١٢٩١ .

الله ويتقيه .. ومعنى التدبر أن يشغل القارئ للقرآن قلبه بالتفكر فى معنى ما لفظ به ، فيعرف معنى كل آية ويتأمل الأوامر والنواهى ـ فإذا قصر إعتذر واستغفر ، وإذا مر بآية رحمة استبشر وسأل ، وإذا مر بآية عذاب أشفق وتعوذ ، وآية التنزه نزه وعظم ، وآية الدعاء تضرع وطلب: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص] .

فاستمع إليه بخشوع وتدبر ما فيه ـ فيه الهدى والنور والرحمة والشفاء ـ جاء من الله بالحجج البينات ليبصر المؤمنين بها الهدى من الضلال والإيمان من الكفر .

وقد ثبت فى الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطى من الآيات ما أمن على مثله البشر وإنما الذى أوتيه وحياً أوحاه الله إلىَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة «لفظ مسلم» وقوله ﷺ : وإنما كان الذى أوتيته وحيا أي الذي اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه ـ بخلاف غيره من الكتب الإلهية [1] .

أن يقف العبد على آية الوعد فيرغب إلى الله تعالى ويسأله من فضله ، وأن يقف على آية الوعيد فيستجير بالله منه ، وعند سماع كلام الجبار المهيمن العزيز الغفار من الوعد والوعيد ، والتخويف والتهديد ـ تقشعر الجلود من الخشية والخوف ثم تلين الجلود والقلوب إلى ذكر الله لما يرجون ويؤملون من رحمة الله ولطفه .قال سبحانه وتعالى : ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزُّمَر] .

وليس مؤمناً من ترك حدود الله وفرائضه ولم يتبع ما أنزل الله فى كتابه وآياته وأحكامه، والمؤمن هو الذى يخاف قلبه عند ذكر الله فيخضع لذكره وينصت لآياته وتنفعل به جوارحه .. فإذا تليت الآيات صدق بها وبمن أنزلها .. فازداد إيماناً وتوكلاً على خالقه ومولاه .. فأدى الصلاة بحدودها وأنفق مما رزقه الله فى وجوه البر والخير والإحسان ...

هؤلاء الذين يعملون بما علموا وقد طابق فعلهم قولهم ـ لهم العفو والمغفرة من الله ، والدرجات الرفيعة ، والرزق الكريم فى الجنة التى أورثها الله لهم .

---

(١) ابن كثير ١ (٦٠-٦١) .

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال] .

وليس الخائف من تتساقط دموعه على خديه بالبكاء ثم يمسح عينيه ، ولكن من ترك كل ما يعاقب عليه ـ وأمرت به الشريعة أو نهت عنه ، ومن خاف شيئاً هرب منه إلا الله سبحانه وتعالى من كان يخافه ويتقيه ويخشاه سرعان ما يهرب إليه.

أخرج بن أبى الدنيا : إذا إقشعر جسد العبد من مخافة الله عز وجل تحاتت عنه خطاياه كما تتحاتت عن الشجرة اليابسة ورقها .فإذا اقشعر جلد المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه وما اقشعر جلد عبد من خشية الله إلا حرمه الله على النار[١] .

وذكر أبوحامد الغزالى حديث رسول الله ﷺ « لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن فى الضرع »[٢] .

١٧ ـ القلوب تصدأ وجلاؤها فى ذكر الله .

وإن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد وجلاؤها فى ذكر الله .. وأفضل الذكر كتاب الله .. يزيل الهم والغم ، وينور الوجه والقلب ، ويجلب الرزق ، ويورث المحبة والمراقبة والإنابة والخشية من جلال الله .. وبه تطمئن القلوب ، والذين لا يؤمنون بالآخرة لا تطمئن قلوبهم .

والقرآن يذهب ما فى القلوب من أمراض الشك والنفاق والشرك والوسوسة والهوى والزيغ والدنس والحيرة والقلق،ويعصم العقل من الزلل .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾[الرعد].

من عمى عنها فقد أساء لنفسه .. وأما الذين شرح الله صدورهم للإيمان وتذوقوا حلاوته زادهم الله بالقرآن إيماناً إلى إيمانهم وهدى إلى هداهم وأصلح بالهم وأتاهم تقواهم. قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾[التوبة] .

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾[محمد] .

---

(١) القرطبي ٨/ ٥٨٩٤ رواه الطبراني والبيهقي .

(٢) رواه الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي وابن ماجه من حديث أبوهريرة .

إنه كلام رب العالمين .. غير مخلوق .. كلام من ليس كمثله شيئ .. أنزله سبحانه عربياً بلسان العرب ليعقلوه ويفقهوا ما فيه ، شرح فيه واجبات الأحكام .. وجعل أمثاله عبراً لمن تدبرها ، وأوامره هدى لمن استبصرها .. وفرق فيه بين الحلال والحرام .

وإن القلوب لتخشع له ، وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد ، ولو أن للجبال عقولاً ما تحملت الثبات أمام خشية الله على قدر صلابتها وقسوتها ، ولكن الله تعالى امتن على رسوله صلى الله عليه وسلم أن ثبته لما لا تثبت له الجبال الراسخة :

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١] .

أخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه لو أنزل هذا القرآن على جبل وهو حجر ، لرآيته متصدعاً من خشية الله بينما بن أدم معرض ولاه عما فيه من العبر والذكر ،،، وتلك الأمثال يشبهها الله للناس ليتفكروا فيها وينيبوا للحق . قال تعالى :

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر] .

وأين قوة القلوب من قوة الجبال ؟ وهى على قدر صلابتها وقسوتها تلين وتخشع ...... وقلوب البشر قاسية !!

﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة] .

ونحن مخاطبون بهذا القرآن كما خوطب به الأولون،، فمن أوتى القرآن وعلمه فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدع ، وارتكب من المآثم قبحا ، ومن الجرائم فضوحاً ... كان القرآن حجة عليه وخصماً لديه ...

وما هو إلا تذكرة للإنس والجن ، تفكير بالوعد للطائعين ،، والوعيد للخاسرين ...وحقيقة ما فيه من الوعد والوعيد ستعلم بعد وقت ليس ببعيد.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص] .

١٨ ـ عطاء القرآن المتجدد إلى يوم القيامة .

دلائل قدرة الله وعظمة كماله تتجلى فى كتابه وآياته الكريمة بالحجج والأدلة على سلطان الله وقدرته .. وعطاء القرآن متجدد إلى يوم القيامة ، والتجدد فى العطاء هو بمثابة تجدد الرسالة الخالدة الصالحة لكل زمان ... وكل ما وصل إليه الخبراء والعلماء

والباحثون من علوم واكتشافات إنما هو شهادة على أن الإسلام هو دين الله الخالد ،، وأن القرآن الكريم سوف يبقى عطاؤه دليلاً على صدق رسالة النبي ﷺ وصدق ما جاء به من عند الله تعالى .

وقبل أن يخرج المكتشفون في العصر الحديث من كوكب الأرض إلى الفضاء الخارجي، وبأكثر من ألف وأربعمائة سنة نزل القرآن على رسول الله ﷺ ليبين بعض مكنونات الله في كونه وما يكون عندما تتطور البشرية وترتقي .

السماء فيها ملايين الملايين من الأجرام ـ لا يصطدم منها اثنان ، ولا مجموعة بالأخرى ـ والمجموعة بها بالألف مليون نجم : كمجموعة المجرة التي ينتسب إليها عالمنا الشمسي .. وفيها ما هو أصغر ، وما هو أكبر آلاف المرات ... كلها تجري وتسبح ، لا تلتقي ولا تتصادم .

جعل الله سبحانه وتعالى الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء ، وجعل شعاع القمر نورا ـ فأعطى للشمس سلطانها نهاراً ، وللقمر سلطانه ليلا وقد قدره منازل ، إذ يبدو صغيراً في البداية ، ثم يتزايد نوره حتى يكتمل إبداره ، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر .

قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [يونس].

لقد تحدث القرآن الكريم عن منازل القمر التي لا تتغير حتى تشبه قنو الرطب حين يجف ويتقوس [1] .

قال سبحانه : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس] .

وبين القرآن عن وجود مدار لكل من الشمس والقمر يتحرك كل جرم منها بحركة خاصة، ولم يكن في مقدور أحد حينما ذكر القرآن ذلك أن يتخيل السباحة في فلك دائري لكل من الشمس والقمر في الفضاء إلا بعد الاكتشافات الحديثة ، وبعد هذه القرون العديدة من نزول القرآن الكريم.

---

(١) وفي القرطبي ٨/ ٥٦٦٦ قال الزجاج هو عود العذق الذي عليه الشماريخ ـ وقال قتادة: هو العذق اليابس المنحني من النخلة - وأهل مصر يسمونه الإسباطة .

«تحدث القرآن عن أسرار الكون وفيها منازل القمر الذى يستدل منها فى معرفة الزمان وحساب السنين والأيام .. فبالشمس تعرف الأيام ، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام » أقسم الله تعالى فى القرآن بحمرة الأفق قبل طلوع الشمس وبعد غروبها ، وبالضياء والظلام عندما يقبل الليل ويدبر النهار ، وبالقمر إذا اجتمع واستوى فى ليال إكتماله ، وهو يفيض على الأرض بنوره « لتركبن يا محمد طبقاً عن طبق » .

قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ [الانشقاق] .

ورحلة السماء التي استهوت أهل الأرض فى الإسراء والمعراج .. ذلك الحدث العظيم الذي شهد فيه رسول الله ﷺ بالرؤية اليقينية المتممة للإيمان والعلم فى أعلى مرائيها كبرى آيات ربه الدالة على وحدانية الله .

قال سبحانه وتعالى : ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم] .

وقال سبحانه : ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم] .

لقد رأى محمد ﷺ ليلة المعراج الآيات العجيبة والعظيمة ، واطلع على ملكوت السماوات والأرض ورأى السماوات العلى، والجنة والنار ، وسدرة المنتهى .....

إنه القرآن ـ الخارق للعادة فى كل زمان ومكان فوق قوى البشر كافة وإن غزت عقولهم أفاق الفضاء ، وركبوا بها متون الكواكب ، لا تناله قدراتهم ، ولا تستشرف إليهم أوهامهم وإن إجتازت السبع طباق .. لقد كان استخدام الإنسان لمركبات الفضاء أمراً بعيداً حتى عن الخيال ، ولكن القرآن الكريم أشار إليها حين قال سبحانه :

﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل].

وتلك إشارة من الله تعالى إلى ما سوف يحدث ويستحدث من وسائل المواصلات الحديثة التى لم تكن معلومة فى عصر نزول القرآن،وكانت غيباً مجهولا..

بل إن القرآن الكريم أشار إلى تلك الوسائل التى يستخدمها الإنسان فى الوصول إلى القمر سابحاً فى الفضاء الخارجي فقال تعالى :

﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يس] .

﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ تشير إلى الأجيال القادمة من بنى البشر ، وما سيحدث من تطور فى هذه السفن المشحونة التى سوف يحملون عليها .

إنه القرآن .. فيه الكنوز والأسرار .. يلفت أنظار العلماء إلى نظرية الضغط الجوى ـ إذا جعل ضيق الصدر البالغ ملازماً لما يصاعد فى السماء ويرتفع إلى الطبقات العليا فى الجو .

قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام] .

وحتى الأن .. وبعد هذه القرون فلا تزال هناك دوائر من المعلوم لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى ، وستظل هذه الدوائر مغلقة على الإنسان مهما وصل ترقيه العلمى ... يكتشف العلماء الجديد فى كل يوم جديد من أيام الله ، وبالقدر الذى يأذن به الله .. ليظل عطاء القرآن متجدداً وممتداً إلى نهاية الزمان .. صالح لكل مكان وزمان ـ لا تنتهى عجائبه ولا تنقض مكنوناته .

وإذا كانت الولايات المتحدة قد جاءت بجديد حينما أطلقت أقمارها الصناعية تدور حول الأرض وصورت وجه القمر المختفى عنا ، وخرجت أول مركبة فضاء إلى سطح القمر .. فذلك لا يعنى إلا اعترافاً من علمائها وباحثيها ومكتشفيها ، وأكثرهم على غير ملة الإسلام ، آن الإسلام هو دين الله ، وآن القرآن هو الحق من عند الله ـ فما استطاع أحدهم أن يركب طبقاً فوق طبق ـ ولم يكن ليكتشف شيئاً إلا بقدرات علميه فائقة لا تستغنى بعلمها عن أدق الأجهزة العلمية ، وأرفع العلماء علماً فى شئون البحث والإستكشاف .. ثم يأتون فى النهاية إلى جزئية من ملايين العلوم المكنونة فى علم الله أخذوها بإرادة الله الذى مكنها لعلماء الأرض ليريهم آياته فى الأفاق ... وذلك يعني أيضاً الشهادة لأهل الدنيا المبهورين بالغرب وأفكار الغرب ، والمأخوذين بروعة القدرات المادية أفكار تنقصها القيم وتفتقدها المبادئ التى تشد البناء إلى بعض وتعيد الأمر برمته إلى خالقه ... ومهما ارتقت الحضارات لديهم فى الأبحاث والاكتشافات سيعودون جميعاً إلى نقطة الصفر ليتبين لهم أنه الحق – ولن يتساووا مع أهل الإيمان بالله الذين يملكون المبادئ ويتصفون بالأخلاق ويؤمنون بأن القدرة والمقدرة لله وحده .

... ومن ثم فإن سلطان القرآن القوى المتين يهزم قدراتهم ويكتسح خيالهم بالواقع والحق ـ بآياته الدالة وحججه الواضحه على أنه معجزة العصر ومعجزة كل عصر ، وأن عطاءه متجدد باق وشاهداً حياً على صدق رسول الله ﷺ .

فليبحث العلماء وليكتشفوا لتزيد الشهادات والإعترافات بواقع الحق الذي يعيد أعداء هذه الأمة إلى رشدهم وصوابهم .

... وإذ نتابع ما أصابهم الرشد والهدى بمتابعة أخبارهم وإعلان الكثير منهم فى بلاد الكفر إسلامهم لدين الله بعد ما تبين لهم الحق ... ونذكر هنا مثالاً لهذا العالم الإنجليزى « آرثر » الذى اكتشف من أبحاثه التى يجريها أن النوم هو الموت ، وأن النفس تخرج من الجسم فى الحالتين غير أنها تعود فى حالة النوم ولا تعود فى حالة الموت .. ووجد أن هناك علاقة وثيقة بين ما وجده من بحوث وبين القرآن الكريم الذى يخاطب العقل والوجدان « فأشهر إسلامه » وبعد أن أشهر إسلامه قال : إن هناك قصوراً فى الدعوة إلى الإسلام . مثال أخر لرجلين آخرين من كبار الخبراء العالميين أعلنا إسلامهما ـ الدكتور «أرث جيمس» رئيس أكاديمية الكهرباء والعلوم الإلكترونية ببريطانيا والثانى هو الدكتور «رولاند ميل لاهى» الخبير الاستشارى بالبنك الدولى للإنشاء والتعمير ـ وهو كندى الجنسية وأطلق على نفسه اسم «علي» ـ كما أن الدكتور « آرثر » سمى نفسه « عبدالله » ـ « ذلك فى أحد المؤتمرات العلمية » وقد تعرف العلماء على عمق الإسلام وأصالته وصلاحيته لكل أرض ، ولكل زمان ـ فعادوا إلى الله شاهدين مقرين بوحدانيته سبحانه وتعالى معترفين بقدرته وسلطانه وعظمته ، مستسلمين لمنهجه ناطقين بالشهادتين أنه لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله ﷺ[1] .

وعندما تنضح عقول المتكبرين فيدركون بقوة علمهم وإمكانياتهم أن كل هذا من عطاء الله المتجدد فى كتابه إلى أن تقوم الساعة .. وأن الإسلام هو الدين الوحيد الذى يتناسب مع ما وصلت إليه البشرية ، وأنه منهج التدبر والتفكر ، والبحث والعطاء المتجدد ـ فيروا بأعينهم كل آية جديدة كما رأوها فى تجاربهم على منازل القمر ومشاهدة بعض مكنونات الله فى كونه ... عند ذلك سيعودون إلى الحق ، ولن يصح إلا الصحيح .

فإذا ما ظلوا على عنادهم وتحديهم فلتلحق بهم اللعنة مهما كان علمهم ورقيهم .. ولهم الخزى والمهانة .... وعلينا نحن المؤمنين أن نأخذ منهم ما يفيدنا وينفعنا ويساعدنا فى مسايرة الرقى والتقدم وبما لا يخالف منهج ديننا وكتابنا .. ولنترك لهم عقائدهم الفاسدة يفعلون بها ما يشاءون حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون.

---

(١) الوعي الإسلامى العدد ٢٥٥ / ٨٥ ربيع الأول ١٤٠٦ .

١٩ ـ قوة الصلة بالقرآن بين المخلوق وخالقه .

لقد وجهت آيات القرآن الكريم العرب والمسلمين إلى التفكير فى خلق السموات والأرض والكواكب والنجوم والمدارات مما دفع العلماء ورواد الفلك على دراسة هذا الكون واستنباط النظريات وابتكار الآلات التى ينعم بها علماء العصر الحديث .

وقد أقسم الله تعالى بمواقع النجوم ومغاربها فى السماء .. وقسم الله له القدر العظيم ـ أقسم أن القرآن الكريم مصون عند الله لا يمسه الأذى ، ولا يمسه إلا الطاهرون المطهرون من الذنوب وأنه تنزيل من رب العالمين ، فقال سبحانه .

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الواقعة].

وهل كان المخاطبون بهذا القرآن يعلمون شيئاً عن مواقع النجوم؟أم ظهرت آيات الله ما ظهر منها بعد تقدم الحضارات وتطور العلم والاكتشافات؟

بعض الأسرار التى أطلقها الله فى كونه ، وأمر سبحانه خلقه بالبحث والاجتهاد سبق تفكير العلماء وبحثهم بهذه القرون العديدة ..

وقد جاء به القرآن فإنه تحدٍّ للمكابرين والمعاندين فى كل جيل وكل زمان فلا ينسب أحد الفضل لنفسه فى خلق الأشياء ، فهى مخلوقه قبل خلق الإنسان وإنما هو كشف واكتشاف لمكنونات الله فى كونه .

سيكشف الإنسان أسرار الكون وما فيه من العجائب التى تحير العقول والأفكار حتى يستدلوا على صدق القرآن وعظمة المنان الذى بشر بإعجازه فى كتابه بكل ما هو جديد وأخبرنا أنه سبحانه وتعالى سيظهر لهم دلالاته فى كتابه بكل ما هو جديد وأخبرنا أنه سبحانه وتعالى سيظهر لهم دلالاته وحججه على كون هذا القرآن حقا من عند الله على رسول الله.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فُصِّلَت] .

والبشرية على وعد مع الله سبحانه وتعالى بأن يرينا آياته فتحقق لنا العلم وصدق ما دعا الله إليه .

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [النمل] .

سيكشف الإنسان أسرار الكون وما فيه ـ وما أنتم أيها الناس بمعجزين الله فى الأرض ولا من فى السماء معجزين الله ، إن هم عصوه فلا ولى إلا الله ولا نصير ينصركم من الله إن أحل بكم عقوبته .

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [العنكبوت] .

القرآن يقوى الصلة العقلية بين المخلوق وخالقه حين يطلب التفكير فى الظواهر الطبيعية الدالة على إبداع الخالق .. وعلى العقول أن تدرك الحقائق الجديدة ، وتعقل آيات الله وتتفكر فى مشاهد السماوات والأرض وما فيها من كواكب سيارات وثوابت وبحار وجبال وقفار وأشجار، ونبات وزروع وثمار ، وحيوان ومعادن ، ومنافع مختلفة الألوان .. ويلتفت العبد إلى قدرة الخالق فلا يكون كالذين يعلمون أن الله خالقهم ورازقهم وهم يشركون .

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف] .

أو كالصم البكم الذين لا يعقلون والذين قال الله فيهم : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف] .

فذكر الله سبحانه وتعالى أدلة قدرته ووحدانيته ليعتبر الناس ويتعظوا،قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران] .

أولم ينظر المكذبون فى ملك الله وسلطانه الواسع فى السماوات والأرض ؟ وفيما خلق الله فيهما ليعتبروا ويعلموا أن ذلك كله من فعل الله؟

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [الأعراف] .

وليحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيموتوا على غير ملة الإسلام .. ومن ثم فآيات الله دالة على وحدانيته وأنه إله كل شيئ وخالق كل شيء .. هذا ملكه وهذه سماؤه فى إرتفاعها وإتساعها وكواكبها وأقمارها وأجرامها ودوران أفلاكها .

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس] .

وهذه الأرض فى كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها وعمرانها وما فيها من المنافع واختلاف الليل والنهار .

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان] .

وهذا البحر الذى سخر لحمل السفن لمعايش الناس وما أنزل الله من السماء فأحيا به الأرض بعد موتها .

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يس] .

وما إلى ذلك من رزق الله الذى شمل كل شيء : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ [هود] .

والرياح والمطر والسحاب المسخر السائر بين السماء والأرض إلى ما يشاء الله – كلها آيات الله ودلالاته البينة على وحدانيته .

قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة] .

وقد أدركها الأعرابى حين سئل ما الدليل على وجود الرب تعالى: فقال ياسبحان الله . إن البعر ليدل على البعير ، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج،ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير.....

وسأل بعض الزنادقة أبا حنيفه ﷺ عن وجود الباري فقال لهم : دعوني فإني مفكر فى أمر قد أخبرت عنه .. ذكروا لي أن سفينة فى البحر فيها أنواع المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها وهي مع ذلك تذهب وتجئ وتسير بنفسها ، وتخترق الأمواج العظام .. فقالوا هذا شيئ لا يقوله عاقل : فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوى والسفلى وما اشتملت عليه ليس لها صانع ؟ ! فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه .

وعن الشافعى أنه سئل عن وجود الصانع فقال:هذا ورق التوت طعمه واحد .. تأكله الدود فيخرج منه الأبريم .. وتأكله النحل فيخرج منه العسل .. وتأكله الشاه والبقر والأغنام فتلقيه بعراً وروثا .. وتأكله الظباء فيخرج منها المسك ... وهو شيء واحد .

فواعجبا كيف يعصى الإله ، أم كيف يجحده الجاحد وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد .

الشمس والبدر من أنوار حكمته ، والبر والبحر فيض من عطاياه .

النمل تحت الصخور الصم قدسه ، النحل يهتف حمداً في خلاياه .

والناس يعصونه جهراً فيسترهم ، والعبد ينسى وربي ليس ينساه .

٢٠ ـ مختارات من الأحاديث النبوية وأقوال الصحابة وآثار السلف الصالح .

«خيركم من تعلم القرآن وعلمه ، أو قال إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه»[١].

« من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده » ـ فأعلمنا رسول الله ﷺ أن مجالس السكينة والرحمة في مجالس القرآن»[٢].

« وخرج عليه الصلاة والسلام على حلقة من أصحابه فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومن به علينا . قال : آلله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ قالوا : آلله ما أجلسنا إلا ذلك . قال : أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة»[٣].

«وقال رسول الله ﷺ فيما يبلغ عن ربه ، يقول ربنا تبارك وتعالى « من شغله القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي للسائلين » وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»[٤].

« وأخبرنا رسول الله ﷺ أنه بكل حرف تتلون من القرآن حسنة ، وإنها لحسنة مضاعفة أي بعشر أمثالها ، فقال عليه الصلاة والسلام « إن هذا القرآن مأدبة الله فأقبلوا إلى مأدبته ما استطعتم ـ إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين ، والشفاء النافع ـ عصمة من تمسك به .. ونجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقضي

---

(١) البخاري ٦/ ٢٣٦ عن عثمان بن عفان ﷺ .

(٢) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري .

(٣) الحديث عن معاوية ﷺ (الترغيب والترهيب ٢/ ٢٨٠) .

(٤) الحديث عن أبي سعيد ﷺ (الترغيب والترهيب ٢/ ٢٤٢ ، ٢٤٣) - القرطبي ١/ ٥٢) .

عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد .. اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول آلم حرف ولكن « آ » حرف و« ل » حرف و « م » حرف » [١].

« وقال عليه الصلاة والسلام يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » [٢].

وقد أمر الله تبارك وتعالى بترتيل القرآن فقال :

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزّمل] .

فاقرءوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا ـ والماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران .

« قال عبدالله بن عمر ﷺ : اعلموا أن العبد إذا قام من الليل فتسوك وتوضأ ثم كبر وقرأ ـ وضع الملك فاه على فيه ويقول:أتل أتل فقد طبت وطاب لك » .

قراءة القرآن مع الصلاة كنز مكنون ، وخير موضوع ، فأستكثروا منه ما استطعتم ... فإن الصلاة نور ، والزكاة برهان ، والصبر ضياء ، والصوم جنة ، والقرآن حجة لكم أو عليكم .

فاكرموا القرآن ولا تهينوه ، فإن الله مكرم من أكرمه ، ومهين من أهانه ، وأعلموا أنه من تلاه وحفظه وعمل به واتبع ما فيه كانت له عند الله دعوة مستجابة إن شاء عجلها له في دنياه ، وإلا كانت ذخراً في الآخرة : وأعلموا أن ما عند الله خير وأبقى للذين أمنوا وعلى ربهم يتوكلون [٣] .

« ومن أقوال بن مسعود ﷺ : ينبغى لحامل القرآن أن يعرف بليله إذ الناس نائمون ، وبنهاره إذ الناس يفطرون ، وبحزنه إذ الناس يفرحون ، وببكائه إذ الناس يضحكون،وبصمته إذ الناس يخلطون، وبخشوعه إذ الناس يغتالـون» .

وينبغى لحامل القرآن أن يكون باكياً محزونا،حكيماً حليما عليماً سكيتا،، ولا ينبغى لحامل القرآن أن يكون جافياً ولا غافلاً ولا صخابا ،ولا صياحا،ولا حديدا [٤] .

وإذا سمعت الله يقول يأيها الذين أمنوا فأرعها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه .

---

(١) عن عبدالله بن مسعود ﷺ (الترغيب والترهيب ٢/ ٢٤٨) .

(٢) عن عبدالله بن عمرو بن العاص (الترغيب والترهيب ٢/ ٢٤٥) .

(٣) حياة الصحابة ٣/ ٢٣٤ .

(٤) حياة الصحابة ٣/ ٢٤٢ (الصخاب [الشديد الصياح] الحديد [سريع الغضب]) .

«وقال أبى بن كعب ﷺ: عليكم السبيل والسنة .. فإنه ما على الأرض عبد على السبيل والسنة ذكر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله فيعذبه ، وما على الأرض عبد على السبيل والسنة ذكر الله فى نفسه فاقشعر جلده من خشية الله إلا كان مثله كمثل شجرة يبس ورقها فهى كذلك إذا أصابها ريح شديد فتحاتَّ عنها ورقها إلا حط الله عنه خطاياه كما تحاتَّ من تلك الشجرة ورقها [١] .

والناس مع القرآن أربعة أنواع :

مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل «الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب » .

ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة «لا ريح لها وطعمها طيب» .

ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانه ريحها طيب وطعمها مر .

ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها .

ومثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبك منه شيء أصابك من ريحه .. ومثل الجليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه [٢] .

.. عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة « يقول الصيام أى رب منعته الطعام والشهوة فشفعني فيه » ويقول القرآن منعته النوم بالليل فشفعني فيه ـ قال فيشفعان .

وفي الحديث من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين [٣] .

ولما طغت الماديات علي المعنويات « واشتغل الناس بالدنيا وأموالها ماجت الفتن موج البحر وعرضت علي القلوب كما تعرض الحصير عودا عودا ـ فأنكرتها قلوب » وأشربتها أخرى ـ فكانت القلوب علي قلبين : علي أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض وعلى أسود مربادا مثل الكوزي مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه ـ فما المخرج من تلك الفتن ؟ ـ قال الأمام علي بن أبي طالب ﷺ :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : أما إنها ستكون فتنة قلت : فما المخرج يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله تعالي : فيه نبأ ما قبلكم « وخبر ما بعدكم » وحكم ما بينكم « هو الفصل

---

(١) حياة الصحابة ٣/ ٢٤٤ .

(٢) المقصود بالأترجة التي تجمع طيب الطعم والريح كالتفاح (الترغيب والترهيب ٢/ ٢٤٣) .

(٣) الترغيب والترهيب ٢/ ٢٧١ - المقنطرين (أي ممن كتب له قنطار من الأجر) .

ليس بالهزل » من تركه من جبار قصمه الله تعالي «ومن ابتغي الهدي في غيره أضله الله تعالي .. وهو حبل الله المتين » وهو الذكر الحكيم «وهو الصراط المستقيم» وهو الذي لا تزيغ به الأهواء «ولا تلتبس به الألسنة» « ولا يشبع منه العلماء» « ولا يخلق من كثرة الرد » ولا تنقضي عجائبه ـ وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا :

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن] .

من قال به صدق « ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل » ومن دعا إليه هدي إلي صراط مستقيم [١] .

وفي القرآن شفاء ورحمة لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان ـ شفاء يؤدي إلي الطمأنينة والأمان ـ والتمسك به يعني حفظه وتلاوته « والقيام به أناء الليل والنهار» وتدبر آياته «وإحلال حلاله وتحريم حرامه» والإنقياد لأوامره «والانزجار بزواجره» والأعتبار بأمثاله «والاتعاظ بقصصه «والعمل بمحكمه « والتسليم بمتشابهه والوقوف عند حدوده» .

فإذا أردت الإنتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه وألق سمعك واحضر حضور من يخاطب به...فإنه خطاب من الله لك علي لسان رسول الله ﷺ : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق] .

٢١ـ مهمة القرآن فى حياة الإنسان .

المهمة التى نزل القرآن من أجلها ليست لتجليد المصاحف بالأحجام المختلفة وزخرفتها فيوضع منها ما يوضع ديكوراً فى المكتبات والمحلات التجارية للزينة والعرض، أو أمام سائقى السيارات والتاكسيات لتمنع بركته الوقوع فى الحوادث ، أو ما يوضع تحت الوسائد ليمنع الكوابيس والأحلام المزعجة ، أو أحجاماً صغيرة للتمائم فى صدور الأطفال ، والوقاية من الحسد وشر العين ، أو يستخدم فى ضروب السحر ليحبب المرآة إلى زوجها ـ إلى أخر ما يقوم به الناس من تعطيل مفهوم القرآن ومقصده ، وتسخيره لمآرب الشياطين وأهوائهم .

المهمة التى نزل القرآن من أجلها ليست للتغنى به فى المآتم والمناسبات والحفلات ـ وقد سجلت الأصوات به على شرائط يسمعها الناس فى الأسواق والمقاهى وهم يلهون

---

(١) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ١/ ١٦٥ .

ويكذبون ، ويحلفون الأيمان الكاذبة ، وأيمان الطلاق في بيعهم وشرائهم في أسواقهم ، وهم يتناولون الشتائم في مواقف العربات ، ويحلفون بالمصاحف ويستمعون إلى شرائط القرآن وهم على المقاهي يلعبون ويقامرون .

وإذا دعيت في ليلة زفاف أو خطوبة تقام على مسرح لوجدت ما يؤسف له حقا .. الحفل يبدأ بأسماء الله الحسنى .. وهذا شيئ عظيم ـ ولكن ماذا بعد ؟! .. تضاء أنوار المسرح وتبدأ الموسيقى والأغاني ومشاهد الراقصات العاريات وكأن آيات الله الحسنى التي بدأ بها الحفل كانت ديكوراً لما بعدها من المهازل !! للأسف هذا هو الذي يحدث في مسارح الأفراح .

قال الإمام علي بن أبي طالب ﷺ : يأتي على الناس زمان لا يبقى فيه من القرآن إلا رسمه ، ومن الإسلام إلا إسمه ، مساجدهم يومئذ عامرة من البنى خراب من الهدى .. سكانها وعمارها شر أهل الأرض ، منهم تخرج الفتنة ، وإليهم تأوى الخطيئة ..يردون من شذ عنها فيها ، ويسوقون من تأخر عنها إليها .يقول الله تعالى : فبى حلفت لأبعثن على أولئك فتنة أترك الحليم فيها حيران ، وقد فعل ... ونحن نستقيل الله عثرة الغفلة [1].

ترك المسلمون القرآن كمصدر للهداية والتقويم والإرشاد ، وقدسوه في أبواب أخرى ... كالتداوى من أمراض الأبدان أو إفتتاح المحافل أو الندوات بتلاوته .. ولو كانت هذه المحافل مخالفة لسنة الإسلام .. وليس في ذلك مقصد القرآن .

لقد أنزل الله القرآن على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقيم منهج الله وشريعته في الأرض بالنظام والقانون ، فلا ينحرف إنسان مع هذا الدستور السماوى عن فطرة الله .

أنزل الله القرآن لهداية البشرية ، وهداية البشرية لا تكون إلا بالعمل بمقتضى هذا الدستور وتنفيذ أحكامه والإلتزام بما جاء به والعمل بما تقرؤه وتتعلمه ... وكان هذا شأن المسلمين الأولين . أقبلوا عليه حفظاً ودراسة ومعرفة بأحكامه ، وعلاجاً للقلوب من رجس العقائد الفاسدة ... وكان أصحاب رسول الله ﷺ كدوى النحل إذا سمعتهم وهم يقرءون القرآن أصلابهم منحنية على أجزاء القرآن يتسابقون في الحسنات والدرجات ـ يعملون بما يقرءون ويحفظون .

أنزل الله القرآن ليهدى السالكين لأقوم الطرق وأوضح السبل بمناهج الإستقامة الموصلة إلى الجنة ، وليخرج الناس من ظلمات الكفر والبدع والجهالات والضلالات إلى نور الإسلام وهداية الإسلام .. وإلى شريعة الله السمحاء .

---

(١) نهج البلاغة للشيخ محمد عبده ٤/ ٨٨ .

﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة] .

أنزل الله القرآن الكريم على قلب النبي ﷺ ليقيم به دولة وينشئ به نظاماً ـ أنزله سبحانه ليربي به الضمائر والأخلاق والعقول ، ويطهر به النفوس ، وينشر به القيم والمبادئ ـ ويقيم الفضائل، ويحدد الروابط الإجتماعية ويقومها بين أبناء الأمة.

أنزل الله القرآن يربي به الأجيال على الطاعة والإمتثال لله ، ويؤلف بين قلوب العباد ويحفظ للناس أمنهم وكرامتهم .

أنزل الله القرآن ليخضع الرقاب لله وحده ويخلص الناس من ذل الخلق للخلق ، ويمنع الفرقة والتفرقة ، ويحدد للناس منهج الحياة ـ يأمر بالخير وينهى عن الشر ، وعلى الناس أن يلتزموا لتحقيق مقصد القرآن ورفع رايته بتوحيد الله لا شريك له وإخلاص العبادة له وحده ، وهدم كل ألوان الشرك والبغى والباطل والطغيان .

هذا هو كتاب الله ودستور الله تنشرح به الصدور وتصفو به الأفئدة وتتطهر به النفوس، وتتغذى به العقول والأرواح ، وتتنزل به السكينة والرحمة لهداية الناس .

قال سبحانه : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء] .

.. ومن حقه علينا أن نعظمه ونطبقه فى حياتنا العملية حفظاً وتلاوة وعملاً وتطبيقاً واستسلاماً وتنفيذاً لمنهج الله فيه .

ثالثاً : ميراث العلم :

وأورثنا رسول الله ﷺ العلم مصدره من الله الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، والذى خلق الإنسان وعلمه البيان ـ وقد أقسم سبحانه وتعالى بالقلم لما له من أعظم الأثر فى رفع مستوى المعرفة والعلم والثقافة ومحو الأمية.

قال سبحانه : ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ ﴾ [القلم] .

وقال سبحانه : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرحمن] .

وقال جل فى علاه : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [المجادلة] .

المؤمنون يرفعهم الله بطاعتهم لربهم ، والعلماء يرفعهم على المؤمنين الذين لم يؤتوا العلم درجات يوم القيامة ، ولا يخفي عليه سبحانه المطيع من العاصي ، وهو مجاز كلاً

بعمله ، فبالعلم والإيمان تهذب النفوس ، وتستقيم الفطرة ، وتصح العقيدة ، ويوجه السلوك إلى بيان الله بالفهم والإدراك ..

يرد المؤمنون على المنكرين للبعث بعلمهم بمعنى كتاب الله إلى يوم البعث ، وكما أقاموا عليهم حجة الله فى الدنيا يردون عليهم فى الأخرة : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الروم] .

فهذا يوم العقاب الذى لا ينفع فيه اعتذار الظالمين ولا هم يرجعون إلى الدنيا ولا هم يستعتبون: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [فُصِّلَت] .

وهذا كتاب أعمالهم من يوم خلقهم إلى يوم بعثهم هذا ما يقوله المؤمنون العلماء فى الآخرة لهم كما أقاموا عليهم حجة الله فى الدنيا .

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الروم] .

١ ـ من أحاديث رسول الله ﷺ فى العلم :

«عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» « رواه البخاري » .

« وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : من سلك طريقاً يلتمس فيه علما ، سهل الله له طريقاً إلى الجنة » « رواه مسلم » .

«وعنه أيضاً ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا » « رواه مسلم » .

« وعن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » « رواه الترمذى » .

« وعن بن مسعود ﷺقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : نضر الله امرءا سمع منى شيئا فبلغه كما سمعه ، فربَّ مبلغ أوعى من سامع « رواه الترمذى » .

«وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » « رواه أبوداود والترمذي » .

«وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرق الجنة يوم القيامة » «يعنى ريحها» «رواه أبوداود » .

«وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما، اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» «متفق عليه».

وروى الترمذي أيضا: من تعلم العلم ليباهى به العلماء أو يمارى به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه فهو فى النار، وأشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه.

وكان رسول الله ﷺ يقول فى دعائه: اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع ودعاء لا يسمع[1].

وقال عبدالله بن مسعود: منهومان لا يشبعان صاحب العلم وصاحب الدنيا ولا يستويان. فأما صاحب العلم فيزداد رضا الرحمن وأما صاحب الدنيا فيتمادى فى الطغيان، ثم قرأ عبدالله[2]:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق].

قال بن عباس رضى الله عنهما: خير سليمان بين العلم والمال والملك، فأختار العلم فأعطى المال والملك معه.

٢ ـ العلم ميراث سليمان وداود عليهما السلام وفيه حياة للقلوب.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٥ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ۝١٦﴾ [النمل].

آتاهما الله النبوة والخلافة فى الأرض، وجمع لهما سعادة الدنيا والآخرة ـ ولم تكن وراثة سليمان لأبيه وراثة مال، ولو كانت كذلك لورث معه جميع أولاد داود عليه السلام ولكن الله خص سليمان بوراثة أبيه من الحكمة والنبوة، وسخر له سبحانه الأنس والجن والطير والوحش وآتاه ما لم يؤت أحدا من العالمين، وعلمه منطق الطير والقضاء وتوجيه الرياح المسخرة له بأمر الله.

---

(١) أخرجه بن ماجه من حديث جابر بإسناد حسن.

(٢) رواه بن أبى حاتم عن زيد بن اسماعيل الصائغ عن جعفر بن عون عن عبدالله – وقد رواه الطبرانى عن رسول الله ﷺ بشاهد مثله – بن كثير ٤/ ٥٢٨

والعلم حياة القلوب من الجهل ، ومصابيح الأنوار من الظلم يجعله الله فى قلوب الذاكرين الطائعين ، وما أشقى الذين حرموا من نوره .. وقد أحيا الله الموتى بالجهل بنور العلم والهدى والإيمان ، ولا يستوى المطيع والعاصى ، ولا يستوى الذين ينتفعون بعلمهم ويعملون به مع من لم ينتفع به ولم يعمل به فهو بمنزلة من لم يعلم .. وقد ضرب الله مثلا للمؤمن الذى كان هالكا فى الضلالة حائرا فأحيا الله قلبه بالإيمان وهداه لطاعته ، ووفقه لاتباع رسله ـ فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه فقد ضل وهما لا يستويان .

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام] .

ومن يهتدى بنور القرآن وعلمه فيعمل بما أمر به الله لا يستوى مع هذا فى الظلمات والجهالات والأهواء والضلالات .

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود] .

كذلك الذين اكتسبوا السيئات فى الدنيا لا يستوون مع أهل الإيمان الذين أخلصوا طاعتهم وعبادتهم لله .

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية] .

روى أن هذه الآية سميت « بكاءة المؤمنين» ذلك أنهم كانوا إذا قرئت عليهم فاضت أعينهم بالدمع ـ يقول كل منهم ترى أى الفريقين أنا ؟ وقد ظل رسول الله ﷺ ثلاثة أيام ونفسه تعاف الطعام لما تنزل عليه قول الله تعالى فى وصف أهل النار .

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل] .

وعمر ﷺ جبار الجاهلية وعملاق الإسلام خر مغشياً عليه وظل شهراً مريضاً عندما سمع القارئ يقرأ .

﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ [الطور] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص] .

وهكذا يخبرنا القرآن الكريم فى آياته الكثيرة والتى يجعل لكل فئة منزلتهم فى الهدى والهلاك كلٌ على قدر طاعته أو معصيته . كذلك العلم والجهل لا يستويان .

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر] .

٣ ـ العلماء ورثة الأنبياء ولديهم الحجة والبيان من فيض السماء .

والعلماء ورثة الأنبياء ورثوا العلم من رسول الله ﷺ وهم وحدهم الذين يدركون الدلالات البينات من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على ما فيه خير الناس ، ولديهم الحجة التى تلزمهم الطاعة والإمتثال لأوامر الله بما يحقق لهم السعادة والاستقرار والنعيم فى الحياة الدنيا والآخرة .

لقد بين الله تعالى أنها دلائل واضحة فى صدور الذين وهبهم الله العلم لمعرفة دين الله وأحكامه ، وكذلك فى صدور الذين أوتوا العلم .

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت] .

أى وما يبخس حق آيات الله ويردها إلا الظالمون المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق وعنه يحيدون .

وقد أخبر رسول الله ﷺ «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقه» (١) .

وعن أبي اسحق قال : ما ترك رسول الله ﷺ إلا سلاحه وبغلته وأرضاً جعلها صدقة(٢) .

وعن أبي هريرة ﷺ قال: جاءت فاطمة إلى أبي بكر رضي الله عنهما فقالت : من يرثك ؟ فقال : أهلي وولدى ـ فقالت : مالى لا أرث أبى ؟ فقال أبوبكر : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا نورث » ولكنى أعول من كان رسول الله ﷺ يعوله وأنفق على ما كان رسول الله ﷺ ينفق عليه(٣) .

---

(١) ابن كثير ٣/ ٣٥٨ ـ والحديث عن عائشة رضي الله عنها أخرجه البخاري ٤٠٣٤ كتاب المغازي .

(٢) أخرجه البخاري فى صحيحه ٢٧٣٩ كتاب الوصايا .

(٣) أخرجها لمصنف فى جامعه ١٦٠٨ كتاب السيرة .

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : لا يقسم ورثتى ديناراً ولا ذرهما ، ما تركت بعد نفقة نسائى ومؤنة عاملى فهو صدقة[١].

والعلماء هم الذين يتدبرون كتاب الله تعالى ويدركون بعلمهم قدرة الله وعظمته ، وأن الله على كل شيئ قدير ، ويخشون الله حق خشيته ، يرغبون فيما رغب الله فيه ، ويزهدون فيما سخط الله منه ، ويستحقون هذا الميراث من الأنبياء .

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر] .

والعلماء هم الذين يدركون بعلمهم معنى التوحيد الخالص لله ، وقد شهد الله لهم فى كتابه فقال سحانه وتعالى :

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران] .

لا شريك له فى سلطانه ولا مناوئ له فى علو شأنه .. وبشهادة الله تطمئن لوحدانيته بقدرتها وجبروتها وعلمها وحكمتها العادلة ذلك بحكمه القائم بالقسط .. شهد الله لنفسه شهادة الذات للذات بأنه إله واحد لا شريك له ينازعه فيما يريد ـ وشهادة المشهد تشهده الملائكة ـ والعلماء يشهدون شهادة الإستدلال .

وقد كانت خلافة أدم على الأرض وفضله على الملائكة بسبب العلم الذى منّ الله تعالى به عليه ، علم يتصف حامله بالخشية والخشوع والتواضع وحسن الخلق والزهد .

والخشوع من سمات المؤمنين الخاشعين لله فى كل وقت وحين يتأسون فى رسول الله ﷺ الرعاية والمودة وحسن المعاملة واللين ـ ذلك ميراثهم من التواضع وحفظ الجناح .

قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ [الحجر] .

ويتأسون فى رسول الله ﷺ الرحمة والبشاشة والود والحلم والزهد فلا يضيقون لجهل الناس أو عدم معرفتهم .

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص] .

وقد يسر الله تعالى عليهم العلم أمراً ونهياً وخبراً وحفظاً وتلاوة ، وتفسيراً لآياته وسنة رسوله ﷺ .

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٠﴾﴾ [القمر] .

---

(١) البخاري فى صحيحه ٢٧٧٦ كتاب الوصايا

أي سهلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه فهل من طالب لحفظه فيعان عليه؟

٤ـ طلب العلم فريضة عظيمة ومرتبة شريفة .

رعن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : طلب العلم فريضة على كل مسلم [١] .

وفي رواية طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة « رواه بن ماجه » .

والإسلام هو الدين الذى أسس على العلم فى عقائده وشرائعه ، ويقر أن العبادة التى لا تقوم على أساس العلم من كتاب أو سنة لا خير فيها ولا قيمة لها ، وإن فقيهاً واحداً أشد على الشيطان من ألف عابد[٢]،وإن قليل العلم خير من كثير العبادة [٣]... ويدعو الإسلام إلى طلب العلم والرحلة إليه إذا لم يتيسر إلا فى مكان بعيد ـ فطلب العلم فريضة عظيمة ، ومرتبة شريفة لا يوازنها عمل .

قال سبحانه وتعالى :

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة] .

فلما قدم رسول الله ﷺ وأرسل السرايا إلى الكفار نفر المسلون جميعاً إلى الجهاد وتركوه ﷺ وحده فى المدينة فنزلت الآية الكريمة تنهى المؤمنين أن يخرجوا فى غزو وجهاد ويتركوا رسول الله ﷺ وحيدا لئلا يطمع فى الاعتداء عليه أحد من الكفار ، والجهاد فرض كفاية إذ لو نفر الكل لضاع من ورائهم .. فصدر الأمر بخروج فريق للجهاد ، وليقم فريق أخر مع رسول الله ﷺ يتفقهوا في أمور دينهم ـ أى ليتفقه القاعدون مع النبي ﷺ أمور الدين ليعلموا المجاهدين إذا رجعوا إليهم ما تفقهوه من رسول الله ﷺ ... قال الضحاك : وكان رسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه لا يحل لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه إلا أهل الأعذار [٤] .

وكان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهم أنبياء ، وكمهم من المعارف والعلم ما وضعه الله فى قلوب الأنبياء .. ومع ذلك كانوا يشدون الرحال إلى طلب العلم . قال تعالى لرسوله ﷺ : لا تعجل بقراءة القرآن على أصحابك قبل أن يوحى إليك بيانه وقل ربِّ زدني علماً إلى ما علمتني.

---

(١) رواه أحمد فى العلل والرواية الثانية لابن ماجه .

(٢) رواه الترمذي .

(٣) رواه الطبراني .

(٤) ابن كثير ٢/ ٤٠٠ ـ القرطبي الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٣٢٢١ – م الطبري ١/ ٣٤٤ .

قال تعالى:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة] .

وقال سبحانه : ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه] .

وفى الحديث الشريف عن أبي هريرة ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ يقول : اللهم انفعنى بما علمتنى ، وعلمنى ما ينفعنى ، وزدنى علما والحمد لله على كل حال ـ وزاد أخر وأعوذ بالله من حال أهل النار [١].

وموسى ﷺ يسير إلى من هو أعلم منه ليطلب العلم بأدب لائق بنبى يستفهم العلم من العبد الصالح .

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف] .

فقد خص الله الخضر بعلم لم يطلع عليه موسى ـ كما أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر ـ كل منهما له مهمة أمره الله بها . قال الحسن البصرى رحمه الله : ليس عالم إلا فوقه عالم حتى تنتهى إلى الله عز وجل ، وقال بن عباس رضى الله عنهما : هذا أعلم من هذا وهذا أعلم من هذا ، والله فوق كل عالم منه بدئ وتعلمت العلماء وإليه يعود .. وقال : ولا يستوى المطيع والعاصى ، ولا يستوى الذين ينتفعون بعلمهم ويعملون به ممن لا ينتفع به ولم يعمل به فهو بمنزلة من لم يعلم . قال تعالى:

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف] .

٥ ـ الإسلام يحذر المؤمنين بالإسلام أن يكتموا بينات الله .

ولقد شدد الله الوعيد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة والهدى النافع بعد أن بينه الله تعالى لعباده فى كتبه التى أنزلها على رسله ـ قال سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة] .

---

(١) رواه بن ماجه (ابن كثير ٣/ ١٦٧) .

وقد استدل العلماء بهذه الآية على وجوب تبليغ العلم ، والذين يسكتون عن الحق وهم يعرفونه ويخفون الحقيقة عن سمع الناس لغرض من أغراض الدنيا تنصب عليهم اللعنة وهى الطرد والإبعاد من رحمة الله ـ وهذا الجزاء من الطرد واللعن يشمل كل من يكتم ما أنزل الله من البينات ـ وذلك تحذير للذين يؤمنون بالإسلام أن يكتموا بينات الله .

وكان أهل الكتاب « اليهود والنصارى » يعلمون أمر البشارة ببعثة خاتم النبيين ... وقد أشرنا إلى ذلك بالجزء الأول من الكتاب فقرة « محمد ﷺ فى التوراة والإنجيل » وقد احتوى كل من التوراة والإنجيل على أوصافه عليه الصلاة والسلام ـ وتقدم ذكر حديث الإمام أحمد عن عطاء بن يسار وعبدالله بن عمرو .

كما أنهم تلاعبوا بأحكام الدين وكتموا بعض ما فى كتبهم متعمدين إخفاء الحقيقة فاستحقوا الطرد والإبعاد .

روى بن ماجه والحاكم عن النبي ﷺ أنه قال : من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار، قال تعالى :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [البقرة] فهؤلاء تابوا عن كتمان العلم الحق وصلح أمرهم بالإيمان والحقيقة التى أوحاها الله إلى نبيه ﷺ ، هؤلاء لم يغلق الله عليهم باب توبته لإيمانهم بالحق والعمل بمقتضاه وهو سبحانه وتعالى التواب الرحيم .

٦ – أجر العلم بين رأى المتقدمين والمتأخرين .

وقد اتفق المتقدمون من الفقهاء على حرمة الأجر عن العلم. قال أبوحامد فى الإحياء : لا يطلب على إفادة العلم أجراً ، ولا يقصد به جزاءاً ولا شكورا .. فإن المال وما فى الدنيا خادم للبدن ، والبدن مركب النفس ومطيتها ، والمخدوم هو العلم إذ به شرف النفس .. فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه ـ فجعل المخدوم خادماً والخادم مخدوما وذلك هو الإنتكاس[1] واستدل العلماء من قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [البقرة:١٥٩] .

أنه لا يجوز أخذ الأجر على تعليم القرآن وتعليم العلوم الدينية ، لأن الآية أمرت بإظهار العلم ونشره وعدم كتمانه ،، ولا يستحق الإنسان أجراً على عمل يلزمه أداؤه ، كما لا يستحق الأجر على تعليمه .

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٢٩ .

يقول الشيخ الصابونى فى آيات الأحكام : غير أن المتأخرين من العلماء أباحوا أخذ الأجور لما رأوا تهاون الناس وعدم اكتراثهم بتعلم الدين وانشغالهم بمتاع الحياة الدنيا ، ورأوا أن ذلك يصرف الناس عن تعليم الكتاب وتعليم الدين .. والحال انه لو عدنا إلى هؤلاء المتقدمين ومنع أجر المعلمين فى الدين لن يعلم منهم أحد أو يتعلم[١].

٧ ـ فاقد النور لا يستنير به غيره ، ومتى يستقيم الظل والعودأعوج؟

والإسلام يحث المعلم أن يكون عاملاً بعلمه ولا يختلف قوله عن فعله ـ قال حجة الإسلام الغزالى رحمة الله تعالى عليه فيما كتبه إلى أبى حامد أحمد بن سلامة بالموصل : أما الوعظ فلست أرى نفسى أهلاً له لأن الوعظ زكاة نصابه الإتعاظ ، فمن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة ؟ وفاقد النور كيف يستنير به غيره ، ومتى يستقيم الظل والعود أعوج[٢] .

ولذا قيل فى المعنى :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم
إبدأ بنفسك فأنهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يُسمع ما تقول ويُشتفى ... بالقول منك وينفع التعليم

أمانة القول والعمل .

ويظل العود أعوج إن لم يتحدث العلماء بما يعلمون ، ويفعلون ما يقولون .. فالقول والفعل أمانة ، والمطابقة بين العقيدة والسلوك أمانة ، وإبلاغ الناس بمنهج الله أمانة .. وإن الله تبارك وتعالى يصلح عمل الإنسان بأمانة قوله والإلتزام بفعله .. ويغفر الله له ذنبه.

ويحدثنا القرآن الكريم عن فريق من الناس يتجملون من الظاهر بأقوال المسلمين وأعمالهم ، ويقسمون بالله على سلامة قلوبهم وصدق إيمانهم ، ويعلم الله تبارك وتعالى أنهم مراءون ومنافقون .. وإن حقيقة ما فى قلوبهم هو ألد الخصام وأعوجه فيحذرنا سبحانه وتعالى منهم بقوله :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ

---

(١) أيات الأحكام للصابوني ١/ ١٥٢.

(٢) هداية المرشدين للشيخ علي محفوظ ص ٩١ .

﴿ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة].

وأخبرنا القرآن الكريم عن جماعة من المهاجرين تحمسوا للقتال وهم فى مكة وتمنوا من الله أن يأذن لهم به .. فلما كتب عليهم القتال فى المدينة فى الوقت الذى قدره الله .

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء:٧٧].

فيعاتبهم الله العتاب الشديد فى قوله سبحانه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف].

وفى موضع أخر من كتاب الله يندد الله سبحانه وتعالى بقوم كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بها . قال تعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة].

وهذا النص القرآنى كان يواجه حاله واقعه ببنى اسرائيل عندما كان أحبار اليهود يحضون الناس على طاعة الله وهم يواقعون المعاصى .. ويحضون الناس على الصدقة وهم يبخلون .. ويأمرون الناس بالخير والبر وهم لا يفعلون .

ومع أن هذا النص القرآنى كان يواجه تلك الحالة فى حينها إلا أن القرآن الكريم لا يخص قوماً دون قوم ، ولا يعنى جيلاً دون جيل .. إنما هو منهج البشرية على الإطلاق .. ورجال الدين على وجه الخصوص حينما يصبح الدين حرفة وصناعة ومكسبةً للعيش ، فيخلوا من واقعية العقيدة وأمانة الصلة بالله .. فيقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، ويأمرون بالخير ولا يفعلونه ، ويدعون إلى البر ولا يعملون به ، ويفتون الناس بتأويلات قد يتفق ظاهرها مع ظاهر النصوص ولكنها تختلف عن حقيقة الدين ، لتبرر الأغراض والأهواء لمن يملكون المال أو السلطان .. تماماً كما كان يفعل أحبار اليهود ،، فيسمع الناس قولاً جميلا ، ويشهدون فعلاً قبيحا .. فتتملكهم الحيرة بين القول والفعل ، فينطفئ نور الإيمان فى قلوبهم ، ويفقدون الثقة برجال الدين .

وطبيعة الناس التى فطرهم الله عليها ما بين تعارض فى المصالح والإتجاهات ، وبين الأغراض الشخصية والشهوات ، وبين صالح يدعوا الناس إلى طاعة الله .. وأخر يتبع هواه ويقضى بما يحقق مصالحه .. وفى نهاية الأمر ينفذ قدر الله الذى يمضى أمره أن تكون كلمة الحق والصلاح .. وما ينفع الناس هو الذى يمكث فى الأرض ،، وأما الزبد فيذهب معه الفساد والجهل وعبادة الأهواء والشهوات ... والناس هكذا يختلفون .

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة] .

والحمد لله فهناك فريق من الدعاه هديهم في الدعوة طريق الكتاب والسنة ، وبعضهم يستعين بضرب الأمثال وقصص الأولين سيراً على نهج القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

يقول الشافعي: أرفع الناس قدراً من لا يرى قدره، وأكثرهم فضلاً من لا يرى فضله، والدنيا كلها ظلمات إلا موضع العلم ، والعلم كله هباء إلا موضع العمل ، والعمل كله هباء إلا ما كان خالصاً لوجه الله الكريم .

« فتناً تكون أخر الزمان » قالها الإمام علي ﷺ » فقال له عمر ﷺ: متى ذلك ياعلى ؟ قال : إذا تفقه لغير الدين ، وتعلم العلم لغير العمل ، والتمست الدنيا بعمل الآخرة » .

٨ ـ وقالوا في العلم :

«قال عبدالله بن مسعود : لو أن أهل العلم صانوا العلم ووضعوه عند أهله لسادوا أهل زمانهم ، ولكنهم وضعوه عند أهل الدنيا لينالوا من دنياهم فهانوا عليكم .. سمعت نبيكم ﷺ يقول : من جعل الهموم هماً واحداً « هم المعاد » كفاه الله سائر الهموم ، ومن شيعته الهموم « أي فرقته » في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك » .

«وقال علي بن أبي طالب ﷺ : قصم ظهري رجلان : عالم متهتك وجاهل متنسك .. فالجاهل يفر الناس من تنسكه ، والعالم يفرهم بتهتكه » .

« وقال ﷺ : ياحملة العلم اعملوا به ـ فإنما العالم من علم ثم عمل، ووافق علمه عمله ، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يتجاوز تراقيهم تخالف سريرتهم علانيتهم ، ويخالف عملهم علمهم ـ يقعدون حلقا فيباهي بعضهم بعضا حتى أن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه – أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله عز وجل».

«وقال عمر بن عبدالعزيز ﷺ : من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه » .

«وقال عبدالله بن مسعود ﷺ : تعلموا العلم قبل أن يقبض وقبضه أن يذهب أهله ، ألا وإياكم والتنطع والتعمق والبدع وعليكم بالعتيق»[1] .

وقال ﷺ : إن الناس أحسنوا القول كلهم ممن وافق فعله قوله فذلك الذى أصاب حظه ، ومن خالف قوله فعله فإنما يوبخ نفسه ... وقال : ما استغنى أحد بالله إلا إحتاج إليه الناس ، وما عمل أحد بما علمه الله إلا احتاج الناس إلى ما عنده.

---

(١) رواه القرطبي ٣/ ٢٦٥٨ .

* وقالوا أيضاً فى العلم [١].

« يقول مصعب بن الزبير لابنه وهو يوصيه: تعلم العلم فإن يكن لك مال كان لك جمالا .. وإن لم يكن لك مال كان لك مالا» [٢].

«ويقول عبدالملك بن مروان لبنيه : يابنى تعلموا العلم فإن كنتم سادة فقتم، وإن كنتم وسطا سدتم ، وإن كنتم سوقه عشتم » [٣].

«قال عمر بن الخطاب ﷺ : تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلمون منهم ليتواضع لكم من تعلمونه ، ولا تكونوا كجبابرة العلماء ، فلا يقوم علمكم بجهلكم .. ورأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك فى نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك عليه بدنياك فضل ، وأن ترفع نفسك ممن هو فوقك فى الدنيا حتى تعلمه أن ليس له بدنياه عليك فضل» .

« وقال حكيم : أفسد الناس جاهل ناسك وعالم فاجر – هذا يدعوا الناس إلى جهله ، وهذا ينفر الناس عن علمه بفسقه ،، وقال أخر إذا جالست الجهلاء فانصت لهم وإذا جالست العلماء فانصت لهم .. فإن إنصاتك للجهال زيادة فى الحلم ، وفى إنصاتك للعلماء زيادة فى العلم » .

« وقال ثالث : من العلم ألا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم ، فحسبك جهلاً من عقلك أن تنطق بما لا تفهم » .

« وقال أخر : وجالس العلماء فإنك إن أصبت حمدوك ، وإن أخطأت علموك، وإن جهلت لم يعنفوك ، ولا تجالس الجهلاء . فإنك إن أصبت لم يحمدوك ، وإن أخطأت لم يعلموك ، وإن جهلت عنفوك ، وإن شهدوا لك لم ينفعوك » .

«وقال أبوالدرداء رضى الله عنه : لا يكون المرء تقيا حتى يكون عالما ، ولن يكون بالعلم جميلا حتى يكون به عاملا ، وإن من شر الناس عند الله عز وجل يوم القيامة عالماً لا ينتفع بعلمه » [٤].

---

(١) أقوال السلف الصالح من حياة الصحابة للكاندوهلى وبعضها من إحياء علوم الدين للغزالى وأخرى من جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى ولها أسانيد ودلالات إلا ما توضح أمامه مصدره فى البحث .

(٢) علماء الأزهر فى الجمعة والعيدين ص ٢١١ .

(٣) علماء الأزهر فى الجمعة والعيدين ص ٢١١ .

(٤) حياة الصحابة ٣/ ٢١١ .

« وبين الإمام علي ﷺ آداب المتعلم فقال : إن من حق العالم أن لا تكثر عليه السؤال ولا تعنته فى الجواب ، وأن لا تلح عليه إذا أعرض ، ولا تأخذ بثوبه إذا كسل ، ولا تشير إليه بيدك ، وأن لا تغمزه بعينيك ، وأن لا تسأل فى مجلسه ، وأن لا تطلب زلته ، ..... وأكثر أمير المؤمنين الوصايا ومنها : وأن لا تفشى له سراً ، وأن لا تغتاب عنده أحدا ، وأن تحفظه شاهداً وغائبا .. وأن تعم القوم بالسلام ، وأن تخصه بالتحية ، وأن تجلس بين يديه ... وإن كانت له حاجه سبقت القوم إلى خدمته ، وأن لا تمل من طول صحبته ... وإنما هو كالنخلة تنتظر متى يسقط عليك منها منفعته »[1] .

« وقال معاذ بن جبل ﷺ : تعلموا العلم ـ فإن تعلم العلم خشية ، وطلبه عباده ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقه ، وبذله لأهله قربه ، لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبيل أهل الجنة .. هو الأنيس فى الوحشة ، والصاحب فى الغربة ، والمحدث فى الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء ، والزين عند الأخلاء ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم فى الخير قادة ، وأئمة تقتص آثارهم ويقتضى بأفعالهم ، وينتهى إلى رأيهم ... ترغب الملائكة فى خلتهم بأجنحتها تمسحهم .. يستغفر لهم كل رطب ويابس .. وحيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ... لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم ... يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار ، والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة ... التفكر فيه يعدل الصيام ، ومدارسته تعدل القيام .. به توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال من الحرام .. وهو أمام العمل والعمل تابعه .. يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء »[2] .

« ويوصينا الإمام بن الجوزى فيقول احذر سبيل أحد رجلين » رجل عالم عرف الجدال فى الفقه واقتنع برئاسته ، أو نال القضاء فسعى فى حفظ منزلته ، أو زخرف الوعظ فضيق أعين شبكته .. ورجل زاهد يتقلب برآيه الفاسد فى جهالته ، ويتقرب بتقبيل يده واعتقاد بركته ، ويعمل بهواه دون شرع الله وسنته – هذان عادلان عن منهج الصواب .. مقتنعان بقشور الأعمال ، وبمعزل عن السنن التى فيها الإستقامة والسلامة ... وشر

---

(١) رواه الطبراني (والمعلومات من تهذيب مدارج السالكين لأبن القيم) .

(٢) من أحياء علوم الدين للغزالي .

الخلق هم المتزينون للناس المراءون لهم بما لم يشرعه الله ورسوله ، وهم أمقت الناس إلى الله عز وجل ، ولهم أوفر نصيب في قول الله تعالى [١] :

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [آل عمران] .

« قال الفضيل بن عياض : من تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله، وترك العمل لأجل الناس رياء ، والعمل لأجل الناس شرك .. والإخلاص أن يعافيك الله منهما .. والإخلاص يكون في مراقبة الله ونسيان الحظوظ فذلك من أعظم الأمانة ، والإخلاص هو تصفية الأعمال من الكدرات ، وبه تستوى الأقوال والأفعال ، فلا يختلف الظاهر عن الباطن في السر والعلانية ..وكمال العلم في الحلم ولين الكلام مفتاح القلوب .

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران:١٥٩] .

والرفعة عند الله بالعلم والإيمان .. العلم يهذب القلب ، والإيمان يدفع لانشراح الصدور لطاعة الله والإمتثال لأوامر الله .. يرفع الله المؤمنين بطاعتهم لربهم ، ويرفع العلماء من أهل الإيمان على المؤمنين الذين لم يؤتوا العلم درجات يوم القيامة ، والله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه المطيع من العاصي ، وهو مجاز كل بعمله .

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [المجادلة].

«قول عليه الصلاة والسلام : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة» [٢] .

والإسلام دين التوحيد الذى أسس على العلم في عقائده وشرائعه ، أعلم الله تعالى فيه رسوله ﷺ والمؤمنين أنه لا معبود ينبغى عبادته إلا الله خالق كل شيء والمالك لكل شيء ، قال سبحانه لرسوله .

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [محمد:١٩] .

وقال لعباده المؤمنين : ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [هود] .

---

(١) أقوال السلف من كتاب هداية المرشدين للشيخ علي محفوظ رحمه الله .

(٢) القرطبي ٤/ ٣٢٢٢ رواه عمران بن حصين ـ وقال يزيد بن هارون إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدرى من هم .

رابعاً : ميراث الوحدانية .

١ – الله واحد لا شريك له :

وأورثنا رسول الله ﷺ الوحدانية لله بأن يتوجه القلب بكل كيانه إلى الله ... والتوحيد هو اعتقاد القلب أن الله تعالى واحد لا شريك له ، موجود لاشك فيه ، حاضر لا يغيب ، قادر لا يعجز ، حى لا يموت ، ملك لا يزول ملكه .

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد:٣] .

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١] .

له الوجود والقدم والبقاء ، والقدرة والإرادة ، والعلم والحياة ، والسمع والبصر والكلام ... ومن صفاته العزة والإحاطة والحكمة والخبرة والرزق والقوة والمتانة ، والمشيئة والمودة ، والرحمة والمغفرة ... إلى أخر الصفات والكمالات التى لا نهاية لها .

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [غافر] .

كل شيء لله .. الأرض والسموات والعرش والخزائن .. كل شيء له وإليه.

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون] .

روى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله [١] .

وفى رواية حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله « فإذا قالوها عصموا منى دماءهم» .

قال أبوبكر : « فإن الزكاة من حقها » .

وأصدق الكلام وأفضله .. بل ورأس الأمر كله « لا إله إلا الله » ـ جاء فى الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : أفضل ما قلت أنا والنبيون قبلى لا إله إلا الله .

وما أسهل الاعتقاد بأن الله واحد لا شريك له ولا مثيل ولا منازع ولا ولد ولا صاحبه ، لكن محك الإختبار الحق هو التطبيق العملى لهذا الاعتقاد .

---

(١) رواه البخاري ١٣٩٩ باب وجوب الزكاة ، ومسلم ١/ ١٧٠ روى عن أبي هريرة .

المؤمنون يقولون : لا إله إلا الله ، والمنافقون يقولون : لا إله إلا الله .. لكن المؤمنون يقولونها وتعرف قلوبهم معناها وتعمل جوارحهم بمقتضاها.

إنها الكلمة الفارقة بين الكفر والإسلام ..كلمة التقوى والعروة الوثقى ، جعلها الله ثابتة في قلوب المؤمنين وتتذوق الألسنة قوتها وحلاوتها لا إله إلا الله وحده لا شريك له ... الكفار أقروا بالربوبية مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلهم واستحل دماءهم .. أقروا أن الله هو الخالق والرزاق والمحي والمميت والمدبر لكل الأمور .

قال تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[يونس].

لقد شهدوا وأقروا بتوحيد الربوبية ، ولكنهم كفروا بتوحيد الألوهية ، وهو أنه لا يدعى ولا يرجى ولا يستغاث إلا الله ، ولا يذبح ولا ينذر لغير الله .. مهما كان هذا الغير من سلطان مقرب أو ملك حاكم أو حتى نبي مرسل – لا شيء في مثل هذا إلا لله وحده .

قال الله فيهم : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[يونس] .

وذلك مثل من اتخذ عيسى وعزيرا والملائكة والأولياء يقصدون أنهم يقربونهم إلى الله وكما يظنون أن الله جعل لخواص الخلق عنده منزلة يرضى التجاء الناس إليهم عند الرجاء والاستغاثة بهم والدعاء ـ فيكونوا وسطاء شفعاء .

وياحسرة على العباد ـ فكم من هؤلاء في زماننا يلتمسون الشفاعة والوساطة عند من يتوجهون إليهم بالرجاء والدعاء والنذر والعطاء .

قال تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾[الزُّمَر] .

وقال جل علاه : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾[الإسراء] .

وخطاب من الله للمؤمنين قد كان لكم في خليل الرحمن قدوة حسنة تقتدون به والذين معه من أنبياء الله حين قالوا لقومهم الذين كفروا بالله وعبدوا الطاغوت أنا براء منكم ومن الذين تعبدون من دون الله من الآلهة والأنداد .

قال تعالى : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة] .

إنه الله الحى الذى لا يموت وهو وحده الذى يستحق الحمد والثناء ولا يعبد إلا إياه : ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر:٦٥] .

٢ـ جوهر الإيمان والعقائد « لا إله إلا الله » .

كلمة التوحيد ، والتوحيد جوهر الإيمان ، والإيمان جوهر العقائد الإسلامية وروح الإسلام وأصل عقائده .

« لا إله إلا الله » ينادى بها فى الأذان خمس مرات فى كل يوم وليلة من فوق المنابر وبالصوت الجهرى ـ أشهد أن لا إله إلا الله ـ أشهد أن محمداً رسول الله ... ويقولها المسلم فى صلواته بالتشهد تسعة مرات للفرض فقط ، فإذا صلى النوافل زادت بالأضعاف على قدر ما يقوم بها العبد من الصلاة لله .

وإذا رزق الله العبد مولوداً سن له رسول الله صلى الله عليه وسلم الآذان فى أذنه اليمنى والإقامة فى أذنه اليسرى لتكون أول كلمة تطرق سمع المولود هى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ... فإذا العبد وافته المنية وحضرته الوفاة بعد العمر الذى قدره الله له فى الحياة كان على أوليائه وأهله وأقاربه أن يلقنوه قبل موته « لا إله إلا الله » .

فهى كلمة الإسلام ومفتاح دار السلام ، والمنشور الذى لا يدخلَ أحد الجنة إلا به ، والحبل الذى لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه ... بها قامت الأرض والسماوات ، وفطر الله عليها جميع المخلوقات ، وبها انقسم الخلق إلى شقى وسعيد ، ومقبول وطريد ، وبها انفصلت دار الكفر من دار الإيمان ، وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان الوحدانية المطلقة لله فى كل الأمور ، والإيمان والتصديق بكل ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه ، والاستقامة على منهج الله فى كل شيء .

وفى الحديث عن أبي عمرو ، وقيل أبوعمره سفيان بن عبدالله ﷺ قال : قلت يارسول الله : قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك . قال رسول الله ﷺ : قل أمنت بالله ثم استقم [١] .

---

(١) رواه مسلم .

ومعنى الاستقامة لزوم العبادة والطاعة لله سبحانه .. وقالوا : وهي من جوامع الكلم وهي نظام الأمور ، فليستقم المؤمنون بدين الله الذى لا غلو فيه ولا زيادة ولا انحراف ولا نقصان .

يقول تبارك وتعالى : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾ [هود] .

فالإيمان بالله وعبادته على استقامة وإقرار شريعته كلها طاعة لله واعتدال فى دين الله فى الإرادة والعمل والصلاح ولا يحول بين الناس واستقامتهم على دينهم إلا تلك الفئات التى تسعى لمصالحها وأهوائها وفى سبيل ذلك تعرقل كل طريق لتعزل الناس عن فطرة خالقهم : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنفال] .

خامساً : ميراث العقيدة الإسلامية .

١ ـ الإخلاص فى قول لا إله إلا الله .

وأورثنا رسول الله ﷺ العقيدة التى تنقى عقيدة التوحيد، والعقيدة هى الرابطة بين المعتقد والمعتقد فيه ، ومقرها فى القلب وما فى القلب لا سلطان لأحد عليه إلا الله ، وخلاصة عقيدة الإسلام هى اليقين والإخلاص فى قولنا لا إله إلا الله اليقين فى قولها ، لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحُجُرات] .

والإخلاص فى قولها لقول الله تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ [البيِّنة] .

وأبرز معالم تلك العقيدة هى تحدى الظلم ومحاربة البدع والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لتستقيم العبادة والعبودية لله .

يقول رسول الله ﷺ : لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك [١] .

والعقيدة فى دين الله هى الأصل والأساس وتعنى الإيمان الجازم بالله تعالى وما يجب له من التوحيد والطاعة وما يتعلق بالغيبيات التى تتفرع من أصول هذه العقيدة وكل ما يجب اعتقاده فى حق الله .

---

(١) أخرجه البخاري بلفظه عن المغيرة ﷺ ٤ / ١٨٧ ، مسلم ٣/ ١٥٢٣ .

٢ ـ أركان العقيدة والإيمان .

وقد دل كتاب الله تعالى ، ودلت سنة رسوله ﷺ أن العقيدة الصحيحة تتلخص فى ستة أمور هي أركان الإيمان وأصول العقيدة والاعتقاد ... وعليها يكون البناء الذى يتفرع بأعمدة الإيمان كله وأعلامه فى شرع الله كله ، وفى دين الله كله .

خمسة أصول منها فى كتاب الله « وهى الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر » وواحدة فى سنة رسول الله ﷺ «وهى الإيمان بالقدر خيره وشره » والأدلة على ذلك فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ كثيرة جداً...نذكر منها قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ [البقرة:١٧٧] .

وفى نهاية سورة البقرة قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة] .

فى سورة النساء قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء] .

* الأمر الأول :

هو الإيمان بالله والتصديق بأن الله سبحانه وتعالى رب الكون كله ورب كل شيئ ومليكه هو القادر العليم المدبر الحكيم والمتصرف بعلمه وقدرته ، الخالق والرازق المحى والمميت ، مالك الدنيا والآخرة ، ورب العالمين لا خالق غيره ولا رب سواه .. هو العالم بالسر والعلانية والقادر على المنع والعطاء ، والإثابة والعقاب ، الآمر الناهى وله وحده الحمد والشكر والثناء .

هو المتصف بصفات الكمال والعظمة والجلال ، المنزه عن كل عيب ونقص ، له وحده تكون العبادة والطاعة ، وله وحده تذل الوجوه بالخشوع والخضوع ، وتنحنى له الرقاب بالسمع والطاعة .

الإيمان يستوجب الحب فيه والبغض فيه والموالاة فيه والمعاداة فيه .. كله فى الله ، فتتحول النفس من كل عبودية إلا إلى الله ، وتتخلص من الفوضى إلى النظام ، والإستهتار إلى الشكر والإعتبار ، وبالإيمان تستقيم الأعمال على طاعة الرحمن .

* الأمر الثاني :

هو الإيمان باليوم الآخر ، وهو اليوم المتصل بأخر أيام الدنيا .. وليس منها ، التصديق بوجوده وكل ما صح فيه من الأخبار، وما يكون بعد الموت من فتنة القبر وعذابه ونعيمه، وما يكون يوم القيامة من الأهوال والشدائد ، والصراط والميزان ، ونشر الصحف والإيمان بالحوض المورود لنبينا عليه الصلاة والسلام ، وأن ماءه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وآنيته عدد نجوم السماء وطوله شهر وعرضه شهر .. من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا [١] .

والصراط حق وهو الجسر المنصوب على متن جهنم بين الجنة والنار يمر عليه الأولون والآخرون ، أحد من السيف وأدق من الشعرة ... فنسأل الله الثبات [٢] .

... الإيمان بالجنة والنار وأن حياة الإنسان على هذه الأرض لم تكن سدى ولا فوضى بغير ميزان .

ينفخ إسرافيل بإذن الله في الصور النفخة الأولى ثم نفخة البعث والنشور ، وتعاد الأرواح إلى الأبدان .. ويقوم الناس من قبورهم لرب العالمين للحساب والجزاء : ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ [القمر] .

وتنصب الموازين فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، ويغفر الله سبحانه وتعالى ما دون الشرك لمن يشاء ... فإنها رحمة الله المطلقة .. يسئل الإنسان من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ .. فتلك فتنة القبر ـ فآخذ كتابه بيمينه ، وآخذ كتابه بشماله ، أو من وراء ظهره : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة] .

ونعوذ بالله من فتنة القبر وعذابه فبعدها إما عذاب مقيم وإما نعيم مستديم ، ومن عجز عن الإجابة فقد خسر الخسران المبين : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧﴾ [إبراهيم] .

---

(١) البخاري مع الفتح ١١/ ٤٦٣ ، مسلم ٤/ ١٧٩٢ : ١٧٩٨ .

(٢) البخاري مع الفتح ١١/ ٤٤٤ ، مسلم ١/ ١٨٧ .

فإذا آمن العبد بأن الله تعالى أحاط بكل شيئ علما وأدرك نفسه وأعماله من أهوال ذلك اليوم ، وتزود له بالإيمان ، وحقر من شأن الدنيا الفانية ولم يجعلها همه بل وفرّ من شرها بالعمل الصالح .. فقد تعجل النعيم عند الله العظيم .

روى الترمذي عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال : من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه ، وجمع عليه شمله ، وأتته الدنيا وهى راغمة .. ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له .. فلا يمسى إلا فقيرا ولا يصبح إلا فقيرا .. وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه بالود والرحمة ، وكان الله بكل خير إليه أسرع .

فإذا دنت ساعة الرحيل عن هذه الدنيا أخذ الكرام الكاتبون لدفاترهم يطوون ، ولم يعد لتوبة الغرغرة مكان ، ولا ليقظة الضمير سمعاً بعد فوات الأوان .

* **الأمر الثالث :**

الإيمان بالملائكة ـ وهو الإعتقاد والتصديق بأن لله تبارك وتعالى ملائكة كرام موجودون ومخلوقون من نور ، خلقهم الله لطاعته وهم قائمون بوظائفهم التى أمرهم الله بها .. سخرهم لما شاء من مصالح البشر فى الدنيا والآخرة ، هم كما وصفهم الله تعالى « عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ويسبحون بالليل والنهار لا يفترون » .

قال تعالى : ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنبياء] .

﴿ مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم] .

وهم أصناف كثيرة منهم الموكلون بحمل العرش ، ومنهم خزنة الجنة والنار ، ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد .. وقد سمى الله منهم « جبريل وميكائيل ومالك خازن النار وإسرافيل الموكل بالنفخ فى الصور » .

* الأمرين الرابع والخامس فى أركان العقيدة وهما الإيمان بالكتاب والنبين .

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأنعام] .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الحديد] .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٦٥] .

هذا فإن لله كتباً أنزلها على أنبيائه ورسله نوراً وهدى وإنها لحق وجب التصديق به ، ولا يعلم عددها إلا الله ، سمى الله منها التوراة والإنجيل والزبور والقرآن .. والقرآن أفضلها وخاتمها ، وهو المهيمن عليها والمصدق لها .

وأن لله رسلاً كثيرة وأنبياء لا يحصى عددهم إلا الله ، سمى الله منهم فى القرآن خمسا وعشرين رسولا ، أخرهم وأفضلهم وخاتمهم محمد رسول الله ﷺ الذى أرسله الله للناس جميعا ، ثم انقطع من بعده الوحى .. فهو خاتم الأنبياء والمرسلين .

الركن السادس : من أركان العقيدة : الإيمان بالقدر خيره وشره .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القمر] .

وفى سنة رسول الله ﷺ فيما أخرجه البخاري عن أبي هريرة ﷺ عن عمر بن الخطاب ﷺ قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد .. حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام ـ فقال رسول الله ﷺ : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا . قال صدقت .. فعجبنا له يسأله ويصدقه ..

قال : فأخبرنى عن الإيمان قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .. قال صدقت .. قال فأخبرنى عن الإحسان قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .. قال فأخبرنى عن الساعة .. قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل .. فقال : فأخبرنى عن أماراتها ؟ قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاة يتطاولون فى البنيان .. ثم انطلق فلبثت مليا ، ثم قال ياعمر : أتدرى من السائل ؟ قلت الله ورسوله أعلم . قال : إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم [١] .

وفى الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال : إحتج أدم موسى فقال موسى يأدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ، فقال له أدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده . أتلومنى على أمر قدره الله على قبل أن يخلقنى بأربعين سنة .. قال : فحج أدم موسى [٢] .

---

(١) أخرجه البخاري فى كتاب الإيمان باب سؤال جبريل (باب الإيمان) .

(٢) أيغلبه بحجته - والحديث أخرجه البخاري ومسلم فى كتاب القدر باب حجاج أدم موسى .

وعن أبي هريرة ﷺ قال:جاء مشركوا قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر فنزلت[١] ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر].

وعنه ﷺ قال : نزلت في أناس من أمتي يكونون في أخر الزمان يكذبون بقدر الله[٢].

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال : قيل له إن رجلاً قدم علينا يكذب بالقدر فقال : دلوني عليه «وهو أعمى» قالوا: وما تصنع به يا أبا عباس ؟ قال : والذي نفسي بيده لئن استمكنت منه لأعضن أنفه حتى أقطعه ، ولئن وقعت رقبته في يدي لأدفنها ـ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كأني بنساء بني فهر يطفن بالخزرج تصطفق إلياتهن مشركات » .. هذا أول شرك هذه الأمة ـ والذي نفسي بيده لينتهين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يكون قدر خيراً كما أخرجوه من أن يكون قدر شرا[٣] . ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر].

في ضلال عن الحق تتعذب به النفوس وفي سعر من الشكوك والاضطراب في الآراء تكوى فيه الجلود والأبدان .. لقد كانوا يقولون من قبل : ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾ [القمر].

وهذا يشمل كل كافر ومبتدع ، وليعرفوا أين يكون الضلال وأين يكون السعر وهم يسحبون في النار على وجوههم وقد أورثهم الشك والتردد والسعر ما يستحقونه ... أورثهم النار .

وفي موضع أخر قال عبدالله بن عمر : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر[٤].

وفي صحيح مسلم من رواية عبدالله بن وهب عن عبدالله بن عمرو قال:قال رسول الله ﷺ : إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة[٥].

---

(١) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه (ابن كثير ٤/ ٢٦٧) .

(٢) ابن كثير ٤/ ٢٦٧ ورواه الإمام أحمد .

(٣) ابن كثير تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٦٧ .

(٤) رواه أبوداود عن أحمد بن حنبل .

(٥) وزاد بن وهب وكان عرشه على الماء (ورواه الترمذي) .

وفى الحديث الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ـ إحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت كان كذا وكذا ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان [١] .

وفى حديث بن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال له : وأعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، ولو اجتمعوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك ، جفت الأقلام وطويت الصحف[٢] .

بذلك تكتمل أركان الإيمان الستة بالأدلة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ كما ذكر العلماء ، وما تبين تفصيله بعاليه .

يقول صاحب الظلال : كل شيء فى هذا الوجود بقدر ، وحركة الكون كله مقدرة مدبرة حتى النفس يخرج من الصدر محسوب حسابه صغير وكبير ، وناطق وصامت ، ومتحرك وساكن .. كل شيء حاضر ومعلوم ومجهول .

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر] .

ويذكر زواج يعقوب من امرأة أخرى هى أم يوسف وبنيامين أخيه ـ لم يكن حادثاً فردياً ، وإنما كان قدراً مقدورا ـ ليحقد إخوه يوسف من غير أمه عليه ـ فيأخذوه فيلقوه فى الجب ، ولا يقتلوه لتلتقطه السيارة لتبيعه فى مصر ـ لينشأ فى قصر العزيز ، لتراوده امرأة العزيز عن نفسه ـ ليستعلى على الإغراء ـ ليلقى فى السجن ـ لماذا ؟ ... ليتلاقى فى السجن مع خادمي الملك ، ليفسر لهما الرؤيا ـ لماذا ؟ إلى تلك اللحظة لا يوجد جواب ! ويقف الناس يتساءلون لماذا يتعذب يوسف ويتعذب يعقوب ؟ لماذا يفقد هذا النبى يعقوب بصره من الحزن ؟ .. والإجابة بعد أكثر من ربع قرن فى العذاب ! .. لأن القدر يعده ليتولى أمر مصر وشعبها ، والشعوب المجاورة فى سنى القحط السبعة ! ثم ليستقدم أبويه وإخوته ليكون من نسلهم شعب بنوا إسرائيل ليضطهدهم فرعون ـ لينشأ بينهم موسى ، وما صاحب حياته من تقدير وتدبير ـ لتنشأ من وراء ذلك كله قضايا وأحداث وتيارات يعيش العالم فيها اليوم بكليته ! ..

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم - ورواه الترمذي - يوجد بوصايا الرسول (وابن كثير ٤/ ٢٦٨) .

ويذكر الظلال أن زواج إبراهيم جد يعقوب من هاجر المصرية لم يكن حادثاً شخصياً فردياً ـ إنما كان وما سبقه فى حياة إبراهيم من أحداث أدت إلى مغادرة موطنة فى العراق ومروره بمصر ليأخذ منها هاجر ، لتلد له إسماعيل ـ ليسكن إسماعيل وأمه عند البيت الحرام ـ لينشأ محمد ﷺ من نسل إبراهيم عليه السلام فى هذه الجزيرة أصلح مكان على وجه الأرض لرسالة الإسلام ـ ليكون من ذلك كله ذلك الحدث الأكبر فى تاريخ البشرية .

إنه قدر الله النافذ والشامل لكل حادث وما وراءه من تبديل وتغيير .. وتخفى على الناس حكمة التدبير فيستعجلون ويقترحون ، وقد يسخطون أو يتطاولون ـ والله يعلمهم فى هذا القرآن أن كل شيء بقدر ليسلموا الأمر لصاحب الأمر،وتطمئن قلوبهم وتستريح، ويسير مع قدر الله فى أنس بصحبته ـ صحبة القدر الثابت الوثيق ..وهى كلمة واحدة تنشئ هذا الوجود وتبدل فيه وتغير وتذهب به كما يشاء الله ـ تحيى كل حى وترده إلى الموت وتبعثه ، مبعث الخلائق جميعاً ، وتجمعهم ليوم الحشر والحساب كلمة واحدة هى « كن فيكون » .

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القمر] .

سادساً : ميراث الإيمان جوهر العقائد الإسلامية وترجمته إلى واقع ملموس فى تصرفات الناس .

١ ـ ميراث النفوس من الإيمان .

قال العلماء : الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان .. وقالوا قول باللسان وعمل بالأركان وعقد بالجنان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان ... وقالوا هو قول وعمل واعتقاد فمن ترك الإقرار فهو كافر ، من ترك التصديق فهو منافق ، ومن ترك العمل فهو فاسق .

قال سهل بن عبدالله التسترى : هو قول وعمل ونية وسنة ، فالإيمان إذا كان قولاً بلا عمل فهو كفر ، وإذا كان قولاً وعملا بلا نيه فهو نفاق ، وإذا كان قولا وعملا ونيه بلا سنه فهو بدعة [١] .

وقال معاوية بن عمرو عن بن اسحق الفزارى عن الأوزاعى قال : لا يستقيم الإيمان إلا بالقول ، ولا يستقيم الإيمان والقول إلا بالعمل ، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بنية موافقة السنة [٢] .

---

(١)الإيمان لابن تيمية ص ١٢٣ .

(٢) الإيمان لابن تيمية ص ١٢٣ .

والإيمان الصادق الصحيح هذا الذى يظهر أثره فى تهذيب النفوس واستقامة الأعمال . فى هذا الإيمان الفوز بكل خير ، والنجاة من كل شر .. وليس ينفع المرء أن يقول أنا مؤمن وهو خبيث النفس سيئ القول ، ولكن المؤمن من تزود بالعلم والمعرفة ـ فجمل باطنه بنور الله ، وأكمل ظاهره بالعبودية لله ، وتحلى فى حياته ومعاملاته بأخلاق سيدنا رسول الله ﷺ ، والمعرفة بالقلب لا تنفع ما لم تتكلم بالشهادتين .

قال الحسن البصرى : ليس الإيمان بالتحلى ولا بالتمنى ولكنه ما وقر فى القلوب ، وصدقته الأعمال ، وقال : من قال حسنا وعمل غير صالح رد الله عليه قوله .. ومن قال حسنا وعمل صالحا رفعة العمل ذلك فإن الله تعالى يقول : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر].

هذا الإيمان لابد أن يترجم إلى واقع ملموس فى تصرفات الناس وأفعالهم وسلوكياتهم وأخلاقهم إذ أن الأخلاق لها مكانة عالية فى الإيمان – فذلك الذى يظهر أثره فى النفوس وتستقيم به الأعمال .

بين لنا صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه كيف تتفق العقيدة مع السلوك بالتصرف الإيمانى فالمؤمن الذى وقر الإيمان فى قلبه فطهره ودفعه إلى الخير وسما به عن الدنيا رأيته عف اللسان فلا يقول إلا جميلا أما الذى نقص إيمانه ولم ترسخ العقيدة فى قلبه تراه طعانا يقدح فى الأعراض ولعانا سباب الشتام ، وفاحشاً ينطق بهجر الكلام وقبيحه ، أو بذيئا يسفه فى القول ويخرج عن دائرة الأدب .عن ابن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ليس المؤمن بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذئ « والبذئ من البذاء بمعنى الكلام القبيح »[1] .

وآية الإيمان الحق ـ أن يرى الفرد نفسه عضواً فى المجتمع ، نفعه نفع لنفسه وضره إضرار بها ، فإذا أحس هذا الإحساس الصادق وانطبع فى نفسه رأى غيره كنفسه بل رآه نفسه فيحب له ما يحب لنفسه .

عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه[2] .

---

(١) أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد والنسائي .

وبين لنا رسول الله ﷺ أن أخوة المسلم للمسلم يترتب عليها المحبة والمودة والمواساة والنصرة وجلب الخير ودفع الضرر ، وأنه من مقتضى هذه الأخوة لا ينتقص حقه فى نفسه أو ماله أو عرضه ـ وإلا فأين الإيمان ؟ وحث عليه الصلاة والسلام على السعى فى مصالح الناس ، ودفع البلايا عن المسلمين فى الدنيا ـ وضمن لفاعل ذلك رفع الكرب عنه يوم القيامة .

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة [١] .

وفى حديث أبي هريرة ﷺ ـ قال رسول الله ﷺ : المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه ، التقوى ها هنا ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم [٢] .

وبين رسول الله ﷺ أن الذى يعكر صفو جاره وينغص عليه حياته ويعمل على الإضرار به فإنه غير مؤمن ، بل وأكد عليه الصلاة والسلام بالحلف والتكرار أنه غير مؤمن :

عن أبي شريح قال : قال النبي ﷺ : والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن ـ قيل من يا رسول الله ؟ قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه [٣] .

« لا يأمن غشمه وظلمه واضمار الشر وتدبير المكايد فلا ينعم بهذا الجوار » .

وفى حديث أخر قرن رسول الله ﷺ إكرام الضيف والإحسان إلى الجار والنطق بالخير قرنها جميعا بالإيمان فقال أبوهريرة ﷺ : قال رسول الله ﷺ : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت [٤] .

والمؤمن لأخيه المؤمن ودود متودد آلف متآلف لا يعرف الهجر والعداء والنفور والخصام لأن ذلك يوجب الفرقة ويمزق الوحدة ... من أجل هذا حرم رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبوداود والنسائي (متفق عليه) .

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن ، بن كثير ٤/ ٢١٤ .

(٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم .

(٤) أخرجه الشيخان وابن ماجه .

على الإنسان أن يهجر أخاه فوق ثلاث ـ رخصها النبي ﷺ حتى تهدأ الأعصاب ونار الغضب أو تخمد .

عن أبي أيوب الأنصارى أن رسول الله ﷺ قال : لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام[١] .

وقال عليه الصلاة والسلام يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من اتبع عوراتهم تبع الله عورته ومن تبع الله عورته يفضحه فى بيته[٢] .

وقد نهى الله تبارك وتعالى عن الغيبة فقال سبحانه : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحجرات] .

وفى صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال : ذكرك أخاه بما يكرهه .

« قيل أرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد إغتبته وإن لم يكن فقد بهته» ـ وكما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حيا ، وكما كرهتم أن يغتابكم الناس فاكرهوا غيبة الناس[٣] .

والشاهد أن الإيمان الصادق الصحيح هو الذى يظهر أثره فى تهذيب النفوس واستقامة الأعمال ولابد أن يترجم إلى واقع ملموس فى تصرفات الناس وأفعالهم وسلوكياتهم ليتحقق الفوز بكل خير والنجاة من كل شر .

والإيمان قد اقترن به كل صفات الخير والسلوكيات الأخلاقية التى لو فقدها المؤمن فقد معها إيمانه .

وفى الحديث الذى رواه مسلم قوله ﷺ : والذى نفسى بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيئ إن فعلتموه تحاببتم . افشوا السلام بينكم .

وقال عليه الصلاة والسلام فى الحديث المتفق عليه من رواية أبي هريرة ـ ورواه البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال النبي ﷺ : لا يزنى الزانى حين يزنى

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) ابن كثير ٤/ ٢١٤ - تفرد به أبوداود .

(٣) القرطبي ٩ / ٦٣٨٩ .

وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا تنتهب النهبة يرفع الناس إليه أبصارهم وهو مؤمن .

وثبت فى الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : العينان تزنيان وزناهما النظر ، والأذن تزنى وزناها السمع ، واليد تزنى ، وزناها البطش ، والرجل تزنى وزناها المشى ، والقلب يتمنى ذلك ويشتهى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه .

وفى حديث الإمام أحمد قول النبي ﷺ : الإسلام أن تسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك .

وقد ذكرنا قبل قول رسول الله ﷺ أنه ما بعث الله من نبى إلا كان فى أمته قوم يهتدون بهديه ويستنوا بسنته ثم أمة يخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل [١] .

والإسلام والإيمان لا يفترقان فمن صدق بالله فقد آمن به ، ومن آمن بالله فقد خضع له وقد أسلم له ومن صام وصلى وقام بفرائض الله وانتهى عما نهى الله عنه فقد استكمل الإيمان .

٢ ـ دلائل الإيمان فى التصديق والإيقان .

ورد فى صحيح البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة « أعلاها أو فأرفعها أو فأفضلها على اختلاف الروايات » قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ... والحياء شعبة من الإيمان [٢] .

والإيمان فى اللغة التصديق ، وفى الشرع هو التصديق بكل ما علم من الدين بالضرورة ـ وقد وضع الإمام الحافظ أبوحاتم بن حبان النقط على الحروف لإزالة موضع الشك فى «أو» فى قوله بضع وستون أو بضع وسبعون . قال رحمه الله: وتتبعت معنى الحديث مدة ،

---

(١) الحديث عن بن مسعود ورواه مسلم .

(٢) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه (فأفضلها) - وقد ورد هذا الحديث بألفاظ فمنها الإيمان بضع وسبعون شعبه فأفضلها قول لا إله إلا الله والحياء شعبة من الإيمان (أخرجه الإمام أحمد ومسلم وأبوداود - ومنها الايمان بضع وستون شعبه (أخرجه البخاري وابن حبان فى صحيحيها عن أبي هريرة) .

وعدد الطاعات فإذا هي تزيد عن هذا العدد شيئاً كثيرا ، فرجعت إلى السنن فعددت كل طاعة عدها رسول الله ﷺ من الإيمان فإذا هى تنقص عن البضع والسبعين ـ فرجعت إلى كتاب الله تعالى فقرأته بالتدبر وعددت كل طاعة عدها الله تعالى من الإيمان فإذا هى تنقص عن البضع والسبعين .. فضممت الكتاب إلى السنن وأسقطت المعاد فإذا كل شيء عده الله تعالى ونبيه ﷺ من الإيمان تسع وسبعون شعبة لا يزيد عليه ولا ينقص فعلمت أن مراد النبي ﷺ أن هذا العدد فى الكتاب والسنة أ . هـ[1] .

وقيل للحسن البصري ما حسن الخلق ؟ قال : بذل الندى وكف الأذى وطلاقة الوجه ـ وقد دلت الأحاديث الصحيحة أن الأعمال الظاهرة من الإيمان .

فى المسند عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال:الإسلام علانية والإيمان فى القلب ، وقال عليه الصلاة والسلام إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب .. فمن صلح قلبه صلح جسده وقال سفيان بن عينيه : كان العلماء فيما مضى يكتب بعضهم إلى بعض بهؤلاء الكلمات : من أصلح سريرته أصلح الله علانيته ، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه[2] ، فعلم أن القلب إذا صلح بالإيمان صلح الجسد بالإسلام وهو من الإيمان ـ يدل ذلك على أنه قال فى حديث جبريل« هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم » فجعل الدين هو الإسلام والإيمان والإحسان ـ فتبين أن ديننا يجمع الثلاثة ، لكن هو درجات .

وفى شرح العقيدة الواسطية يقول بن تيمية رحمه الله : الدين والإيمان عند أهل السنة هو قول وعمل واعتقاد ـ قول بالقلب واللسان ، وعمل بالقلب واللسان والجوارح ، وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .

« قول القلب تصديقه وإيقانه ، وقول اللسان النطق بالشهادتين والإقرار بلوازمها » .

« وعمل القلب النية والإخلاص والمحبة والإنقياد والإقبال على الله والتوكل عليه .. ولوازم ذلك وتوابعه ، وكل ما هو من أعمال القلوب» .

« وعمل اللسان هو ما لا يؤدى إلا به كتلاوة القرآن وسائر الأذكار من التسبيح والتحميد والتكبير والدعاء والإستغفار وغير ذلك » .

---

(١) مختصر شعب الإيمان للبيهقي .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا فى كتاب الإخلاص .

« وعمل الجوارح هو ما لا يؤدى إلا بها مثل القيام والركوع والسجود والمشى فى مرضاة الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر »[1] .

٣ ـ زيادة الإيمان وشرط الكمال فيه .

وقد ذهب السلف إلى أن الإيمان اعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالأركان .. وذهبوا إلى أن الإيمان يزيد وينقص وأرادوا بذلك أن الأعمال شرط فى كماله ، ومن هنا نشأ لهم القول بالزيادة والنقص . قال سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح:٤] .

أى أنزل الطمأنينة فى قلوبهم إلى الحق الذى بعث الله به رسوله ﷺ ليزدادوا بتصديقهم إيماناً مع إيمانهم .

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾ [الكهف] .

أى أذعنوا لربهم بالإيمان وزادهم الله إيماناً إلى إيمانهم وبصيرة بدينهم .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾ [مريم] .

يزيد من آمن به وصدق بآياته هدى على هداه بما يتجدد له من الإيمان والعمل الصالح، والأعمال الصالحات خير عند ربك جزاءاً لأهلها وخير رجوعاً وعاقبه .

وقال جل فى علاه : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد] .

وهم الذين شرح الله صدورهم للإيمان فزادهم الله به إيماناً إلى إيمانهم وأعطاهم الله تقواهم بطاعتهم إياه .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ﴾ [المدثر:٣١] .

أى تصديقاً إلى تصديقهم بما أنزل الله .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [التوبة] .

إذا أنزل الله سورة من سور القرآن على نبيه ﷺ ، فمن المنافقين من يقول استهزاءا أيكم أيها الناس قد زادته هذه السورة تصديقاً بالله وآياته ، فأما المؤمنون فزادهم الله إيماناً

---

(١) معارج القبول ٢/ ١٧ .

وتصديقاً وهم يفرحون بما أعطاهم الله من الإيمان واليقين ـ وأما الذين فى قلوبهم نفاق وشك فى دين الله فزادتهم نفاقاً إلى نفاقهم ، وشكاً فوق شكهم وهلكوا وهم جاحدون بالله وآياته : ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة] .

قال السدى : لما تجهز النبي ﷺ للمسير إلى بدر الصغرى لميعاد أبي سفيان ـ أتاهم المنافقون وحذروهم وخوفوهم من قوة عددهم ، وأنهم جمعوا الجموع الكثيرة لملاقاة المؤمنين ، ولكن المؤمنين لم يكترثوا لذلك ـ بل توكلوا على الله واستعانوا به .

فزادهم ذلك إيماناً وتصديقاً فى دينهم .

﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران] .

فذهب العلماء فى زيادة الإيمان أنها فى الأعمال ، وأن الإيمان يزيد وينقص من حيث الأعمال الصادرة عنه ... ولما عاين المؤمنون جماعات الكفار قالوا تسليماً منهم لأمر الله : هذا ما وعدنا الله ورسوله من الإبتلاء والمحنة وصدق الله وعده ورسوله فيما بشرنا به ، وما زادهم إجتماع الأحزاب عليهم إلا إيماناً بالله وتسليماً لقضائه وأمره قال سبحانه : ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب] .

٤ ـ الوقوع فى المأثم لا يخرج المسلم عن دينه .

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال] .

خافت قلوبهم وخضعوا لذكره فإذا قرئت عليهم آيات القرآن صدقوا بها وأيقنوا أنها من عند الله فإزدادوا بذلك إيمانا وعلى ربهم يعتمدون لا يرجون غيره ولا يرهبون سواه .

والناس منهم الضعيف والقوى والقادر والعاجز ، والمجد والمقصر ـ ويختلفون إختلافاً فى قواهم البدنية ومواهبهم النفسية والعقلية والروحية .. وتبعاً لهذا الإختلاف فمنهم من يقترب من الإسلام ومنهم من يبتعد عنه حسب حال كل فرد وظروفه وبنيته ـ إلا أن هذا الإبتعاد لا يخرج المقصر عن دائرته مادام يدين بالولاء لهذا الدين .. فإذا صدر من المسلم لفظ يدل على الكفر لم يقصد إلى معناه ، أو فعل ظاهره مكفر ـ لم يرديه فاعله تغيير إسلامه ، ولم يحكم عليه بالكفر ـ ومهما تورط المسلم فى المآثم وأقترف من جرائم فهو مسلم لا يجوز إتهامه بالرده .

روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال : من شهد أن لا إله إلا الله واستقبل قبلتنا وصلى صلاتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم ، له ما للمسلم وعليه ما على المسلم .. وقد حذر رسول الله ﷺ من أن يقذف بعضهم بعضاً بالكفر لعظم خطر هذه الجناية،فقال فيما رواه مسلم : عن بن عمر رضي الله عنهما « إذا كفر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما » وإن المسلم لا يعتبر خارجاً عن الإسلام ولا يحكم عليه بالردة إلا إذا إنشرح صدره بالكفر والعياذ بالله واطمأن قلبه به ودخل فيه بالفعل لقول الله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ [النحل:١٠٦] .

ويقول رسول الله ﷺ إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل إمرئ ما نوى [١]، ولما كان ما في القلب غيباً من الغيوب التي لا يعلمها إلا الله ـ كان لابد من صدور ما يدل على كفره دلالة قطعية لا تحتمل التأويل ـ حتى نسب إلى الإمام مالك أنه قال « من صدر عنه ما يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهاً ويحتمل الإيمان من وجه ـ حمد أمره على الإيمان » بل وإن الذي أكره على التلفظ بكلمة الكفر فنطق بها لم يخرج المسلم عن دينه مادام القلب مطمئناً بالإيمان ... فقد أعطى عمار بن ياسر للكافرين ما أرادو بلسانه مكرهاً ـ فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال له : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئن بالإيمان .. قال رسول الله ﷺ « إن عادوا فعد » ولما أكره على التلفظ بكلمة الكفر فنطق بها [٢] ، أنزل الله سبحانه وتعالى في ذلك قوله تعالى :

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النحل] .

وتشمل كلمة الكفر في إجمالها إنكار ما علم من الدين بالضرورة كوحدانية الله ، وخلقه للعالم ، والملائكة ، وإنكار النبوة ، ووحي القرآن ، والبعث والجزاء ، والفرائض كالصلاة والزكاة والصيام والحج ـ أو أحل ما حرمه الله واستباحه كالخمر والزنا والربا وأكل الخنزير ، وسب النبي وسب الدين والطعن في الكتاب والسنة ، وإلقاء المصحف في القاذورات كما فعل اليهود قبحهم الله بالأمس القريب في العراق وأفغانستان ـ وشهدنا قذارة أشكالهم وسلوكهم على شاشات التلفاز ـ وما كان من هذا القبيل .

---

(١) من حديث عمر - رواه البخاري ومسلم .

(٢) فقه السنة للشيخ سيد سابق ج ٢ ٤٥٢ : ٤٥٤ باب الردة .

٥ – المؤمنون أقسام ثلاثة « ظالم ومقتصد وسابق بالخيرات » وكلهم فى الجنة إن شاء الله .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر] .

فقسم الله تبارك وتعالى المؤمنين ثلاثة أقسام :

« ظالم لنفسه ومقتصد وسابق للخيرات » قال بن عباس رضي الله عنهما : ورث الله سبحانه وتعالى أمة محمد ﷺ كل كتاب أنزله فظالمهم يغفر له ، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيرا ، والسابق للخيرات يدخل الجنة بغير حساب .

المقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ .

الظالم لنفسه هو المفرط فى فعل الواجبات ويرتكب بعض المحرمات .

والمقتصد هو المؤدى للواجبات التارك للمحرمات ، وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات .

والسابق بالخيرات وهو الفاعل للواجبات والمستحبات والتارك للمحرمات والمكروهات [١] ، وقرأ عمر بن الخطاب ﷺ هذه الآية ثم قال : قال رسول الله ﷺ : سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له .

فكأن الله تبارك وتعالى بإعطائه القرآن أمة محمد ﷺ ورثها الكتاب الذى كان فى الأمم قبلنا،والمصطفون الأنبياء توارثوا الكتاب فانتقل عن بعضهم إلى أخر .

قال تعالى : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل:١٦] .

ميراث الحكمة والنبوة ، ميراث العلم ، وزكريا ﷺ وهو من ذرية يعقوب سأل ربه الولد ليرث من آبائه النبوة ـ قال عبدالرازق : أخبرنا معمر عن قتادة أن النبي ﷺ قال : يرحم الله زكريا وما كان عليه من وراثة مال،ويرحم الله لوطا إن كان ليأوى إلى ركن شديد[٢] .

---

(١) ابن كثير فى تفسير القرآن العظيم ٣/ ٥٥٤ - (وأهل الأعراف من استوت حسناتهم وسيئاتهم .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ١١١ .

قال زكريا عليه السلام : ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم].

قال سهل بن عبدالله : السابق العالم ، والمقتصد المتعلم ، والظالم الجاهل ـ وقيل : الظالم من استغنى بماله ، والمقتصد من استغنى بدينه ، والسابق من استغنى بربه[1].

ذلك كرم الله لهذه الأمة التى أورثها الكتاب وأدخل السابق والمقتصد والظالم لنفسه جنته يتمتع بنعيمها .. فذلك الميراث فى عطاء الله ورحمته .

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٣٣ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥﴾ [فاطر] .

قال الإمام الطبري فى تفسيره : بساتين إقامة يدخلها هؤلاء الذين اصطفاهم الله من عباده يلبسون فى الجنة أسورة من ذهب ولؤلؤ ولباسهم فيها حرير ، وقالوا حين دخلوا الجنة : الحمد لله الذى أذهب عنا جميع أنواع الشدة فلا حزن علينا .. إن ربنا لساتر لذنوب عباده بعفوه عنها ، شكور لهم على طاعتهم إياه ـ أنزلنا الجنة دار الإقامة التى لا تحول عنها فضلاً منه وإكراما ـ لا تعب ولا وجع ولا عناء ولا إعياء[2].

ولم يجبر الله الناس على الإيمان إنما وضح لهم الطريق وتركهم أحرارا وما يشاءون : ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ۝٢٩﴾ [الكهف] .

وقد بين الله للناس السبيل إلى الهدى والصلاح وأنذرهم عاقبة البغى والعدوان ، ثم أعلمهم ما يؤول إليه أمرهم .. فإما جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ويرثها المؤمنون من عباده ، وإما نار حاميه وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين الجاحدين ... أن يطلب الظالمون الماء وهم فى النار ، يغاثوا بماء قد انتهى حره يشوى من حره لحوم وجوههم .. ومن شاء فليكفر .. ليست إباحة لمن أراد!! فإذا أراد فالقرآن يبين لهم مصيره ، وليعلم الذى ترك طريق الإيمان أنه سيجرد من كل ما يملك فى هذه الدنيا ..

---

(١) القرطبي الجامع لأحكام القرآن ٨ / ٥٦١٩ : ٥٦٢٠ .

(٢) م الطبرى ٢/ ٢٣٥ .

سيعود إلى الله كل ما يملكه من مال وأولاد كما يفعل الوارث بعد موت المورث ثم يساق هو إلى جهنم ، وياويل من يعد الله عليه ذنوبه وأعماله .. فإن حسابه عسير ! .

والقرآن الكريم يضرب لنا مثلا ونموذجا من نماذج الكفر فقال سبحانه : ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ [مريم] .

والمجرمون مسوقون إلى جهنم وردا كما تساق القطعان ، لا شفاعة يومئذ إلا لمن عمل صالحا ـ فذلك الذى يستوفيه الله برحمته وعداً منه سبحانه كما وعد المؤمنين بالكرامة وحسن الإستقبال .. ولن يخلف الله وعده .

فالذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بطاعة الله وأمره ونهيه فإن الله لا يضيع ثواب من أحسن العمل وأطاعه واتبع سبيله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف] .

قال عبدالله بن مسعود ﷺ : الآجال منقوصة ، والأعمال محفوظة ، والموت يأتى بغته .. فمن يزرع خيراً يوشك أن يحصد رغبه[1] ، ومن يزرع شراً يوشك أن يحصد ندامة .. ولكل زارع مثل ما زرع ـ لا يسبق بطئ بحظه ، ولا يدرك حريص ما لم يقدر له .. فمن أعطى خيراً فالله تعالى أعطاه ، ومن وقي شراً فالله تعالى وقاه ... المتقون سادة ، والفقهاء قادة ، ومجالستهم زيادة[2] .

وأكمل المؤمنين من أخلص النية فى أعماله وأقواله واتبع منهج رسول الله ﷺ وهديه وسنته حباً فى الله وطاعة الله ـ وإلا فهو الضلال والبهتان والإفك والخسران ـ ولا قيمة لحب يقتصر على تحريك اللسان دون جهاد وحركة واتباع ـ فما أرخص الحب إذا كان كلاماً وما أعظمه عندما يكون نظاما وإلتزاما : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران] .

---

(١) (نقلا من حياة الصحابة للكاندهلوي ٣/ ٥٠٥) ومثله في(صفوة الصفوة لابن الجوزي ص ١٨٧) - وأخرجه الطبراني (٩/ ٨٥٥٣) عن عبد الله بن الوليد، وورد عن عبد الرحمن بن حجيرة بنفس النص في كتاب أصحاب الرسول للشيخ محمود المصري ص ٤٤٦.

(٢) حياة الصحابة للكاندهلوي ٣/ ٥٠٣ .

٦ ـ كيف يتحقق الإيمان :

ويتحقق الإيمان بالخوف والخشية من جلال الله تبارك وتعالى ـ قال سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران] .

وقال سبحانه وتعالى :

﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة:٤٤] .

وقال سبحانه مخاطباً أحبار اليهود من بنى إسرائيل بعد أن ذكرهم بنعمه تعالى عليهم أن يوفوا بوصية الله بالإيمان بسيدنا رسول الله ﷺ فقال : ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة] أى لا تخشوا غير الله ، وأمرهم أن يؤمنوا ويصدقوا بالقرآن ولا يبيعوا آيات الله بعرض قليل وثمن بخس من حطام الدنيا ، ويحذروا عقاب الله ونكاله، وما فعله بأسلافهم فقال: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ [البقرة] .

وبين الله تبارك وتعالى أنه سبحانه ينجى المؤمنين إذا استغاثوا به ودعوه .. وقد رأينا ما قصه القرآن فى نداء زكريا عليه السلام حين دعا ربه ألا يتركه وحده وأن يرزقه وارثاً يرثه والله خير الوارثين ـ قال سبحانه : ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء] .

فكانوا يسارعون فى طاعة الله ويعبدونه رغبة فيما يرجون ، ورهبة من عذابه ، وكانوا متذللين متواضعين .

كذلك يتحقق الإيمان فى الرجاء لله فإن الذى يملك الضر والنفع هو الله الذى له الخلق والأمر .. فبالخوف ينكف العبد عن المناهى ـ وبالرجاء يكثر من الطاعات .

قال سهل بن عبدالله : الرجاء والخوف زمامان على الإنسان فإذا استويا إستقامت أحواله وإن رجح أحدهما بطل الأخر[1] .

قال تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف] .

---

(١) القرطبي الجامع لأحكام القرآن ٥ / ٤٠٨ .

إفساد بالشرك والعصيان بعد إصلاح الله ببعثة الرسل والأنبياء ، وأن ادعوا ربكم بإخلاص الدعاء والعمل خوفاً من عقابه وطمعاً فى ثوابه الذى وعد به المحسنين .

ثم تتجلى رحمة الله لعباده الذين أسرفوا على أنفسهم فأصابوا شيئاً من الذنوب صغيراً أو كبيرا ، لا تيأسوا من رحمة الله تعالى إن الله يغفر ما دون الشرك لمن يشاء . قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزُّمَر] .

والخوف من الله يستلزم العلم به .. والعلم به يستلزم خشيته .. وخشيته تستلزم طاعته .. والخشية أبداً متضمنة للرجاء ، ولولا ذلك لكانت قنوطا .. كما أن الرجاء يستلزم الخوف ، ولولا ذلك لكان أمنا .. فأهل الخوف لله والرجاء لله هم أهل العلم الذين مدحهم الله .

وفى الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال:والله إنى لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلم بحدوده .

٧ ـ علامات الإيمان .

وأنظر كيف صنع الإيمان بهؤلاء القوم الذين أسرعوا للقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ولديهم من الصفات ما يصلون به إلى درجة العلماء والحكماء ، بعد أن إستقر الإيمان فى صدورهم وانشرحت به قلوبهم .

يروى أبوسليمان الدارنى حديث هذا الوفد الذين قالوا لرسول الله ﷺ « نحن المؤمنون» قال : فما علامة إيمانكم ؟ قالوا : خمسة عشر خصلة ...

خمس أمرتنا رسلك أن نعمل بهن ، وخمس أمرتنا رسلك أن نؤمن بهن ، وخمس تخلقنا بها فى الجاهلية ونحن عليها فى الإسلام إلا أن تكره منها شيئا .

قال رسول الله ﷺ : فما الخمس التى أمرتكم رسلى أن تعملوا بها ؟ قالوا : نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ونقيم الصلاة ، ونؤتى الزكاة ، ونصوم رمضان ، ونحج البيت « إن استطعنا إلى ذلك سبيلا » .

قال عليه الصلاة والسلام : وما الخمس التى أمرتكم رسلى أن تؤمنوا بها ؟ قالوا : أمرتنا أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت .

قال عليه الصلاة السلام : وما الخمس التى تخلقتم بها فى الجاهلية وشددتم عليها فى الإسلام ؟ قالوا : الصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والرضا بمر القضاء ، والصدق فى مواطن اللقاء ، وترك الشماتة بالأعداء .

فقال النبي ﷺ علماء حكماء كادوا من صدقهم أن يكونوا أنبياء . فقال ﷺ : وأنا أزيدكم خمساً فتتم لكم عشرون خصلة ، إن كنتم كما تقولون : فلا تجمعوا ما لا تأكلون ، ولا تبنوا ما لا تسكنون ، ولا تنافسوا في ما أنتم عنه منتقلون ، وانقوا الله الذى إليه ترجعون وعليه تعرضون ،وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون [١] .

يقول الإمام بن تيمية رحمة الله : فقد فرقوا بين الخمس التى يعمل بها فجعلوها الإسلام ، والخمس التى يؤمن بها فجعلوها الإيمان ـ وجميع الأحاديث المأثورة عن النبي ﷺ تدل على مثل هذا ... والإيمان الشامل الذى عرفه البشر هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .. وهو الإيمان الذى بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه ـ وهو الإيمان الذى يقبله الله من عباده ... الإيمان المتمثل فى عقيدة الإسلام التى جاء بها خاتم الأنبياء والمرسلين وبه تكون الطمأنينة والإستقرار .

وهو الإيمان الذى يقبله الله من عباده .. به العقيدة التى ذكرناها وقد جاءت لتنقى عقيدة التوحيد مما لحق بها من تحريف وتبديل وتكدير وآلهة متعددة وأرباباً متفرقة ... جاءت لتضع القواعد الإيمانية ، وتنظم السلوكيات ، وتحمى المجتمع من شر الوقوع فى الهاوية .

٨ ـ علي بن أبي طالب ﷺ والإيمان دعائم وشعب .

سئل الإمام علي بن أبي طالب ﷺ عن الإيمان فقال : الإيمان على أربع دعائم « الصبر واليقين والعدل والجهاد » .

الصبر منها على أربع شعب « الشوق والشفق والزهد والترقب » [٢] .

فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار اجتنب المحرمات ، ومن زهد فى الدنيا استهان بالمصيبات ، ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات .

واليقين منها على أربع شعب « على تبصرة الفطنة ، وتأول الحكمة ، وموعظة العبرة ، وسنة الأولين » [٣] .

فمن تبصر فى الفطنة تبينت له الحكمة ، ومن تبينت له الحكمة عرف العبرة فكأنما كان في الأولين .

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى الزهد ، والخطيب فى التاريخ .

(٢) والمقصود بالشفق : الخوف .

(٣) والمقصود بتأول الحكمة : أى الوصول إلى دقائقها ، العبرة والإعتبار والإتعاظ بأحوال الأولين .

والعدل منها على أربع شعب « على غائص الفهم ، وغور العلم ، وزهرة الحكم ، ورساخة الحلم» [١] .

فمن فهم علم غور العلم ، ومن علم غور العلم صدر عن شرائع الحكم[٢]، ومن حلم لم يفرط فى أمره وعاش فى الناس حميدا.

والجهاد منها على أربع شعب «على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والصدق فى المواطن ، وشنآن الفاسقين» [٣].

فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنين ، ومن نهى عن المنكر أرغم أنوف الكافرين ، ومن صدق فى المواطن قضى ما عليه ، ومن شنئ الفاسقين وغضب لله غضب الله له وأرضاه يوم القيامة .

وقال ﷺ وأرضاه :

الكفر على أربع دعائم « على التعمق والتنازع والزيغ والشقاق » [٤] فمن تعمق لم ينب إلى الحق « أى لم يزجع » ومن كثر نزاعه بالجهل دام عماه عن الحق ، ومن زاغ ساءت عنده الحسنة وحسنت عنده السيئة وسكر سكر الضلالة ، ومن شاق وعرت عليه طرقه ، وأعضل عليه أمره، وضاق عليه مخرجه [٥].

وقال ﷺ وأرضاه :

والشك على أربع شعب « على التمارى والهول والتردد والإستسلام » [٦] فمن جعل المراء ديدنا لم يصبح ليله ، ومن هاله ما بين يديه نكص على عقبيه ، ومن تردد فى الريب وطئته سنابك الشياطين ، ومن استسلم لهلكة الدنيا والآخرة هلك فيهما[٧] .

---

(١) والمقصود بغور العلم سره وباطنه ، وزهرة الحكم بضم الزاى أى حسنه .

(٢) وشرائع الحكم جمع شريعه وهى الظاهر المستقيم من المذاهب .

(٣) والمقصود بالمواطن : مواطن القتال فى سبيل الحق ، والشنئان (البغض) .

(٤) والمقصود بالتعمق : الذهاب خلف الأوهام على زعم طلب الأسرار ، والزيغ يعنى الحيدان عن مذاهب الحق والميل مع الهوى الحيوانى ، والشقاق أى الفساد .

(٥) وعر الطريق أى خشن ولم يسهل السير فيه ، وأعضل أى اشتد وأعجزت صعوبته .

(٦) التمارى هو : التجادل لإظهار قوة الجدل لا لإحقاق الحق والهول مخافتك من الأمر لا تدرى ما هجم عليك منه فتهش فى تيار الحادثات أى ما أتى عليها يأتى .

(٧) والمراء أى الجدل - والديدن (العادة) - لم يصبح ليله (أى لم يخرج من ظلام الشك إلى نهار اليقين ، والريب هو الظن (أى الذى يتردد فى ظنه ، ولا يعقد العزيمة فى أمره - نهج البلاغة للشيخ محمد عبده ج ٤ / ١٠

٩ ـ من صفات المؤمنين .

وشأن المؤمن الحق أن يكون صادقا فى كل أقواله وأفعاله أمينا على حقوق الله وحقوق العباد ضميره يقظ وحى ، وعقيدته راسخة قوية ، وإيمانه بالله وقدرته إيمان السالكين العابدين إذا جاءته الموعظة انشرح لها صدره وعملت بها جوارحه ، وظهر أثر الإيمان فى تصرفاته وأحواله .. فتلك من سمات المؤمنين الذين هم لآيات الله خاشعون ولفعل الخيرات يسارعون وهم فى عداد الصالحين .

قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون] وقال تعالى : ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان] .

ومن ثم فإنهم يخافون السؤال عند الوقوف بين يدى الله يوم القيامة فاتقوا ربهم ونهوا النفس عن الهوى فكانت لهم الجنة مأواهم بالنعيم.

قال سبحانه وتعالى : ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات] .

ثم أخبر الله تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ، الذين لا يبغون دنيا سوى كتاب الله وسنة رسوله .

قال سبحانه : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور] .

ولما حضرت الوفاة عباده بن الصامت وهو أحد نقباء الأنصار قال لابن أخيه جناده بن أبي أميه ـ ألا أنبئك بماذا عليك وماذا لك ؟ قال : بلى. قال : فإن عليك السمع والطاعة فى عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثره عليك ، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل وألا ننازع الأمر أهله إلا أن يأمروك بمعصية الله بواحا – فما أمرت به من شيء يخالف كتاب الله فاتبع كتاب الله [1].

وأخبر الله تعالى أن المؤمنين الذين صدقت قلوبهم بالله ورسوله ولم يشكوا ولم يرتابوا وتذوقوا حلاوة الإيمان فحققوا ما يتطلب منهم من الإيمان ، وبذلوا من نفائس أموالهم فى الجهاد والأعمال الصالحة هؤلاء هم الصادقون فى عقيدتهم وإيمانهم .

---

(١) ابن كثير ٣ / ٢٩٩ .

قال تعالى :

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحُجرات] .

ودلنا القرآن الكريم على تجارة رابحة لا تبور ، وفيها النجاة من العذاب المؤلم الأليم للمؤمنين الذين ثبت إيمانهم لا شك فيه ولا ارتياب .

فقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الصف] .

وإنها لأربح تجارة ، المكسب فيها مغفرة الذنوب ودخول الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى بساتين الإقامة بجنات عدن .

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الصف] .

وعلى هذه التجارة عقدت الصفقة بين رسول الله ﷺ وعبدالله بن رواحه ﷺ ليلة العقبة ـ قال عبدالله لرسول الله ﷺ .

«اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال عليه الصلاة والسلام : أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، واشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم .. قال عبدالله : فمالنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : الجنة قالوا: ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل» وفوق تلك البيعة كان نصر من الله وفتح قريب وبهذه التجارة الرابحة التى بذل المؤمنون فيها بأنفسهم وأموالهم وربحوا مغفرة الله لذنوبهم والتمتع بنعيم جناته بايع الله المؤمنين وأغلى ثمنهم واشترى أموالهم وأنفسهم وأموالهم بالجنة [1] .

قال سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة] .

---

(١) قاله محمد بن كعب القرظي وغيره عن عبدالله بن رواحه (ابن كثير ٢/ ٣٩١) .

بذلك كتب الله على نفسه الكريمة وأنزله على رسله فى التوراة على موسى والإنجيل المنزل على عيسى والقرآن المنزل على محمد رسول الله ﷺ بتأكيد هذا الوعد ، وليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد بالفوز العظيم والنعيم المقيم ـ ووعد الله حق وعهده حق .

ثم أوضح سبحانه وتعالى أوصاف هؤلاء المؤمنين التائبين من الذنوب والعابدين لربهم والحامدين لله فى السراء والضراء والصائمين المصلين الراكعين الساجدين والذين يأمرون الناس بإتباع الهدى وينهون عن كل فعل أو قول قبيح – محافظون على فرائض الله ومتمسكون بشريعته .

قال سبحانه فى أوصافهم : ﴿التَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة].

أى بشر المصدقين بوعد الله جنات النعيم .

١٠ ـ تكاليف النفس والمال والمعاشرة فى شروط البر وأركان الإيمان .

فى قول الله تبارك وتعالى :

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:١٧٧] .

إشترط الله تعالى أموراً لا يتحقق البر بدونها وقد تناولت هذه الشروط بيان العقيدة وتكاليفها وأصول الإعتقاد والبنيان الأساسى الذى قامت عليه وهى أركان الإيمان فى أصولها بكتاب الله : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة:١٧٧] .

وقد تحدثنا عنها فى ميراث العقيدة الإسلامية بفقرة أركان العقيدة .. ونعود الآن إلى بقية الشروط التى تضمنتها الآية الكريمة وقرنها الله بأركان الإيمان الخمسة وهذه الشروط الباقية تتعلق بتكاليف النفس والمال وحسن المعاشرة وتهذيب النفس بالصلاة والزكاة والوفاء بالعهد والصبر فى كل الحالات البأساء منها والضراء وحين البأس .

قال سبحانه : ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة] .

تلك شروط الله تبارك وتعالى فى تحقيق البر كما أقرتها الآية الكريمة .

وعندما نتأمل القرآن ونتدبر ما جاء فيه نجد آيات الله الكثيرة في أوامر الله وتكليفاته مقترنة بعبادة الله ووحدانيته .. كلها في رباط واحد يربط الخلق بخالقهم ويربط الناس بعضهم ببعض فتشير هذه الآيات أن الأمة واحدة لا تتفرق ولا تتجزأ وأن كتاب ربها نظام يقود بمنهج لا يتعدد ولا يتجزأ .. تنظيماته وقواعده التشريعية وشعائره التعبدية كلها في رباط واحد ينتهي إلى غاية واحدة هي عبادة الله وطاعته ووحدانيته ، فالوحدانية رباط بالخالق سبحانه وتعالى قوامه العبادة الخالصة لله ، ورباط الخلق بالخلق قوامه المودة والإحسان .. وفي الرباطين طاعة لله ، وامتثال لأمر الله .

وعلى سبيل المثال وليس الحصر :

في سورة الإسراء قرن الله سبحانه وتعالى الإحسان بالوالدين بوحدانية الله وعبادته دون سواه فقال سبحانه وتعالى :

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣] .

وقضاء الله عهد وتكليف وحكم وإلزام .

وفي سورة النساء أمر الله سبحانه وتعالى بالبر والإحسان للوالدين ... وأوصى بالحب والرحمة والحنان بالأهل والأقارب والجيران .. وأوصى سبحانه وتعالى برعاية ذي القربى واليتامى والمساكين ... وأوصى بالجار الذي تربطنا به القرابة ، وأيضاً البعيد عن القرابة ، أوصى بالرفيق في السفر والمسافر المنقطع عن بلده المنقطع عن سفره ، وما ملكت أيمانكم من العبيد والأرقاء ... أمر سبحانه وتعالى بهذا الإحسان والبر والعطف والرعاية مقروناً بأمر التوحيد لله والنهي عن الإشراك به فقال سبحانه وتعالى :

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٣٦] .

وقرن سبحانه وتعالى مودة الأرحام وصلة النفس بتقوى الله في حق الربوبية ـ في قوله تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء] .

وفي موقع أخر من كتاب الله أمر الله سبحانه وتعالى بعبادته وحده وقرن بها الإحسان إلى الوالدين بخفض جناح الذل لهما ، والرأفة بهما ، والتحنن عليهما والدعاء بالخير لهما .. وقرن سبحانه بطاعته صلة الأرحام والعطف على اليتامى والمساكين والرأفة بهم ورد

الفاقة والحاجة عنهم وأداء ما فرضه الله لهم من الحقوق ، ومن ثم أوصى سبحانه بالقول الحسن الجميل ، والأدب والخلق الكريم ، ثم أمر سبحانه بتهذيب النفوس وطهارة البدن والروح بأداء الصلاة وإتمامها ودفع الزكاة إلى مستحقيها ...

والخطاب فى حينها كان موجهاً لليهود الذين أعرضوا عن الحق والهدى إلا من عصمه الله منهم فوفى الله بعهده وميثاقه .. ولكن لا يغيب عنا أن أوامر القرآن فى أى موضوع ولأى مخاطب فهى أوامر الله الثابتة لخلقه ، الآمرة بتنفيذها والالتزام بها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ـ قال سبحانه : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة] .

آية واحدة جمعت وقرنت التوحيد المطلق لله بالإحسان والحسنى .. رباط واحد يجمع قواعد الإسلام وتكاليفه .

كما قرن سبحانه وتعالى البر بالتقوى فى قول الله تبارك وتعالى :

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة] .

فطاعة الله فى تقواه وفى البر ترضية الخلق والإحسان إليهم والمودة والرحمة بينهم وكلها فى طاعة الله .. والبر هو ما أطمأنت إليه نفسك ، والإثم ما حاك صدرك وخشيت أن يطلع عليه أحد .. والعدوان هو ظلم الناس ... فجعل الله البر فى فعل الخيرات والتقوى فى ترك المنكرات ..والتعاون فى عمارة هذا الكون بالصلاح، وليس بالتخريب والفساد والإفساد .

١١ـ حياة المؤمن بين العبادة والإحسان .

وهكذا حياة المؤمن كلها تجرى ما بين حالين . حال العبادة ، وحال الإحسان لعبادة قامت على أساس أن الله واحد لا يتعدد ولا يتجزأ ولا معبود سواه ـ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فلا تتحرك ذرة واحدة إلا بإذنه .. سبحانه المتصرف فى أمور الخلق ، كل شيء له آية ناطقة بلسان حالها على أنه واحد لا شريك له .. الخلق مقهورون تحت قبضته .. ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابعه إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغ أزاغه ، والقلوب بيده وهو مقلبها ومصرفها كيف يشاء ، وكيف أراد ، وهو الذى آتى نفوس المؤمنين تقواها وهو الذى هداها وزكاها ، والهم نفوس الفجار فجورها واشقاها .

وقال سبحانه : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنعام] .

فهو سبحانه وتعالى رب كل شيئ وخالق كل شيئ والمتصرف فى كل شيء ـ مدبر الأمور كلها والجدير بالعبادة والطاعة « الإخلاص » نوحده ولا نكفره ، ونعبده ولا نجحده .. نطيعه فلا نعصاه ، ونشكره فلا ننساه والحال الثانى : فى حياة المؤمن هو الإحسان قام على أساس أن هذه الأمة أمة واحدة تدين بعقيدة واحدة ونعبد إلها واحدا هو الله ..له وحده يعبدون وإليه فى النهاية راجعون .

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المؤمنون] .

وقام الإحسان على أساس أن المسلمين أخوة والمؤمنين أخوة تجمعهم الروابط الإنسانية والخلقية وتوحدهم الألفة والتفاهم والتعارف والتكامل والمودة وصلة القرابة والأرحام وتجمعهم العقيدة .

عن أبي موسى ﷺقال : قال رسول الله ﷺ : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضا .. وشبك أصابعه (متفق عليه) .

وعن النعمان بشير ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى (متفق عليه) .

وعن جرير بن عبد الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : من لا يرحم الناس لا يرحمه الله (متفق عليه)

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ .

« لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تدابرو ولا يَبِعْ بعضكم على بَيْع بعض وكونوا عباد الله اخوانا ـ المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله ـ التقوى ها هنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ـ كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه »[1] .

---

(١) رواه مسلم .

والنجش أن يزيد فى ثمن سلعه ينادى عليها فى السوق ونحوه ولا رغبة له فى شرائها بل يقصد أن يغر غيره - وهذا حرام .

والتدابر : أن يعرض عن الإنسان ويهجره ويجعله كالشيء الذي وراء الظهر والدبر .

تلك هي أواصر الود والمودة والرعاية فى البر والإحسان حال المؤمنين والذى قرنه الله تبارك وتعالى بعبادته وتوحيده فى آيات الكتاب الكريم .

وكم جمع القرآن الكريم بين وحدانية الله وخصال الكمالات البشرية بما يحقق صحة الإعتقاد وذلك بالإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، ويحقق حسن المعاشرة بإيتاء المال لذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب .. ويحقق التهذيب والإستقامة بالصلاة والزكاة والوفاء بالعهد والصبر وحين البأس فى كل الأحوال التى وردت فى شروط البر وأركان الإيمان والعقيدة فى قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة:١٧٧] .

«فتم فيها برعاية الله ونعمته كل الجمال والكمال».

والإسلام يحرر الإنسان من عبودية المال الذى يحبه ويحرص عليه ويشح به لتحدث الصلة الإنسانية ، وتتحقق مروءة النفس وكرامة الأسرة بالتصدق فى حال الصحة والعافية وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى فإن الذى يتصدق عند الموت كالذى يهدى بعدما شبع ... والقريب أولى إذا كان فى حاجة فمن كان فى نعمة لا يستفيد منها أهله وأقاربه فقد قطع رحمه ... والذين فقدوا من يعولهم إن لم تأخذهم رحمة القادرين ، وهؤلاء اليتامى والمساكين الذين يتعففون عن السؤال ، وابن السبيل المسافر الذى اشتدت به الحاجة للوصول إلى أهله ، والسائلين الذين ألجأتهم الحاجة ولم يعبأ بهم الآخرين ، فلا بركة فيهم ما لم تأخذهم الرحمة والشفقة ، وقد عطلوا حال الإحسان الذى قرنه الله بطاعته وعبادته ، هذا وقد شملت الآيات فك الأسارى واعتاق الرقاب ، وختمها بالتهذيب بأركان الإسلام . فدعت الآيات فى مجملها إلى الحذر من الشقاء والبلاء وانقطاع صلات الأرحام وانعدام الوفاء بالعهود وكلها أمانات فى عنق المسلم يحقق بها شروط الله فى ذكره وإحسانه مقرونة بعبادته وطاعته وتوحيده ، وكلها أبواب يدخل فيها العبد إلى رحمة الله ورضاه ومغفرته وتقواه بتنفيذ أوامر الله ، وغاية المسلم فى ذلك رضا الله والتقرب إلى حب الله والطاعة لمنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وإن أصح القلوب وأشدها وألينها من كان الله أحب إليه وأخوف عنده من كل ما سواه .

١٢ ـ الشرط الأخير فى آية البر والإحسان بعناصر العقيدة والإيمان «وحقيقة الرضا من الإيمان» .

ثم يأتى الشرط الأخير من شروط البر وأركان البناء فى العقيدة .. فبعد أن بين القرآن أركان العقيدة الخمسة وهى الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وقرن

بها سبحانه وتعالى تكاليف النفس والمال وحسن المعاشرة وتهذيب النفوس بالعبادات والوفاء بالعهود . قال سبحانه وتعالى :

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة:١٧٧] .

ذلك في الثبات لدى الشدائد .. في الفقر والشدة والضراء في المرض والزمانة ، ووقت مجاهدة العدو في مواطن الحرب .. الصبر في البؤس والفقر ، والمرض والضعف ، والقلة والنقص ، والجهاد والحصار.

وفيه ألوان أخرى وأنواع يقول فيها أهل العلم :

الصبر على إحتمال فتنة المال وإغراء الغنى	(وهو ضبط النفس)
الصبر على ملاقاة الأهوال	(وهو الشجاعة)
الصبر أمام الأعداء لكي لا يشمتوا	(وهو التجلد)
الصبر عند وقوع نائبة من نوائب الدهر	(وتلك سعة الصدر)
الصبر على شهوتي البطن والفرج	(وهو العفة)
الصبر عند موجبات الغضب	(وهو الحلم)
الصبر على إخفاء كلام يسوء غيرنا ظهوره	(وذلك هو كتمان السر)
الصبر على القدر اليسير من الرزق	(وهو القناعة)
الصبر على فضول العيش والاقتصاد على أقل القوت	(وهو الزهد)

.. صبر على الأوامر والطاعات ، وصبر عن المناهي والمخالفات ، وصبر على الأقدار والأقضية التي يتسخطها ..

وأكثر معاصي العباد في قلة الصبر عما يحبون ، أو قلة الصبر على ما يكرهون « وفي الصبر على ما تكره خيراً كثيرا» [(١)] .

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة] .

فيما يبلغ رسول الله ﷺ ربه يقول ربنا تبارك وتعالى : ابن أدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فأطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيئ ، وأنا أحب إليك من كل شيء [(٢)] .

---

(١) رواه الترمذي من حديث بن عباس رضى الله عنهما .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٢٣٨ .

ويقول عليه الصلاة والسلام فيما يبلغ عن ربه . يقول الله تعالى :

يا ابن آدم لا تخف من ذى سلطان مادام سلطانى باقيا ، وسلطانى لا ينفذ أبدا ـ يا ابن آدم لا تخش من ضيق الرزق وخزائنى ملآنه ، وخزائني لا تنفذ أبدا ـ يا ابن آدم لا تطلب غيرى وأنا لك ، فإن طلبتني وجدتني، وإن فتنى فتك وفاتك الخير كله ـ يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلي ، فلا تشتغل بما هو لك عمن أنت له ـ يا ابن آدم إن رضيت بما قسمته لك أرحت قلبك وبدنك وكنت عندي محمودا ، وإن لم ترض بما قسمته لك ـ فبعزتي وجلالي لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش فى البرية ، ثم لا يكون لك منها إلا ما قسمته لك ، وكنت عندي مذموما .

يا ابن آدم خلقت السموات والأرض ولم أع بخلقهن ـ أيعييني رغيف عيش أسوقه إليك ـ يا ابن آدم لم أطالبك بعمل غد ، فلا تسألن عن رزق غد ، فأنا لم أنس من عصاني فكيف بمن أطاعني ؟

يا ابن آدم أنا لك محب فبحقي عليك كن لي محبا [1] .

الرضا بقسمة الله من كمال اليقين ، ورزق الله تعالى أمر يقين .. لا يسوقه حرص حريص ، ولا يرده كراهة كاره .. ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا فلا يحق للإنسان أن يحزن أو يشعر بالضيق أو الفقر وخزائن الله لا تنفذ أبدا ، وعطاؤه لا ينقطع .

وحقيقة الرضا من حقيقة الإيمان ـ بالتوكل على الله ، والتفويض إليه ، والتسليم له ولأمره ، والصبر على إبتلائه والرضا بقضائه ـ فيستوى عند المؤمن كلاً من المنع والعطاء ـ راضياً وصابرا فى كل حال وعلى أى حال .. يتحمل ويتماسك ، ويفعل الأسباب ، ويداوم الرجاء فى الله ، والثقة بالله ، والاعتماد على الله ـ حتى يجعل الله بعد الضيق فرجا وبعد العسر يسرا ..

وأهل الإستقامة هم الذين يشهدون حكمة الله فى تقديره على عبده وينظرون إلى كل الأمور خيرها وشرها نظرة يحكمها الإيمان بالله ، والتسليم والرضا لكل ما قدره الله .. وقد أعلمنا رسول الله ﷺ أن كل الإبتلاءات التي يصاب بها المؤمن هى من تمام نصره وعزه وعافيته ، وأنه لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئه .

---

(١) ورد فى الجزء الأول من معجزة القرآن الكريم للمرحوم الشيخ الشعراوي والصادر بكتاب اليوم ص ١٢٨ .

قال رسول الله ﷺ: عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن .. إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له [١].

وعن أبي زيد أسامة بن حارثه مولى رسول الله ﷺ وحبه وابن حبه رضي الله عنهما قال: أرسلت بنت النبي ﷺ إن ابنى قد أحتضر فاشهدنا ، فأرسل يقرئ السلام ويقول : إن لله ما أخذ وله ما أعطى ، وكل شيئ عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب. فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها ـ فقام ومعه سعد بن عباده ، ومعاذ بن جبل ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ـ ورجال ﷺ ـ فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ـ فأقعده فى حجره ونفسه تقعقع ، ففاضت عيناه ، فقال سعد : يارسول الله ما هذا ؟ فقال : هذه رحمة جعلها الله تعالى فى قلوب عباده ـ وفى رواية فى قلوب من شاء من عباده،وإنما يرحم الله من عباده الرحماء [٢].

« وعن أنس ﷺ قال : مر النبي ﷺ بإمرآة تبكي عند قبر ـ فقال : اتقي الله واصبري ـ فقالت : إليك عني ، فإنك لم تصب بمصيبتي ، ولم تعرفه ـ فقيل لها : إنه النبي ﷺ ـ فأتت باب النبي عليه الصلاة والسلام فلم تجد عنده بوابين ـ فقالت : لم أعرفك يارسول الله ـ فقال : إنما الصبر عند الصدمة الأولى » (متفق عليه) .

« وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه » (متفق عليه) .

« وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة » (رواه الترمذي) .

« وفى البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : من يرد الله به خيراً يصب منه» (متفق عليه) .

« وعن أبي إبراهيم عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ فى بعض أيامه التي لقى فيها العدو إنتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم .

فقال : يأيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ـ وأعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ، ثم قال النبي ﷺ : اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وأنصرنا عليهم » (متفق عليه) .

---

(١) رواه الإمام مسلم عن أبي يحيى صهيب ابن سنان ﷺ .

(٢) الحديث متفق عليه .

والإبتلاء فى كل من الخير والشر إنما هو نعمة أنعم الله بها على سائر عباده وهى قسمة قديمة يتفاوت الناس فيها حتى تقوم الحياة وتستمر مسيرتها قال تعالي :

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [الزُّخرُف:٣٢] .

والمراد بالتفاوت بين الناس أن يتعاون الجميع كل بما وهبه الله فى تحريك مسيرة الحياة ـ فالغني يأخذ بيد الفقير والعالم بيد المتعلم ، وصاحب الجاه بيد من لا جاه له .. والإسلام يريد من المسلم أن يكون محسناً بكل ما أعطاه الله ، وأن تجتمع فيه خصال الخير ..الإسلام يريد من المسلم أن يكون عبداً لله وحده ، بعيداً عن كل ما يناقض الإيمان أو يكدر صفو الإخوان ... وهذا هو إخلاص التوحيد وصدق العبودية .

وهل يملك أحد دفع الضرر عنه إلا بمشيئة مولاه ؟

هل يملك أحد أن يرزق نفسه بنفسه دون عطاء الله وإرادة الله؟

هل يملك الطبيب علاج نفسه ، ودفع القدر عن حياته، وهو الذى يداوى مرضاه ؟ ... كل شيء بيد الله .. بيده سبحانه المنع والعطاء والسعادة والشقاء ، وله وحده الدوام والبقاء .

ولنتأمل قليلا فى آيات قدرته ، وعجائب صنعته ، وكيف يصرف سبحانه الأمور بمشيئته وإرادته .

قل للطبيب تخطفته يد الردى ... ياشافى الأمراض من أرداكا ؟
قل للمريض نجا وعوفى بعدما ... عجزت فنون الطب من عافاكا ؟
قل للصحيح يموت لا من علة ... من بالمنايا ياصحيح دهاكا ؟
قل للبصير وكان يحذر حفرة ... فهوى بها من ذا الذى أهواكا ؟
بل سائل الأعمى خطا بين الزحام ... بلا اصطدام من يقود خطاكا ؟
قل للجنين يعيش معزولاً بلا ... راع ومرعى ما الذى يرعاكا؟
قل للوليد بكى وأجهش بالبكاء ... لدى الولادة ما الذى أبكاكا ؟
وإذا ترى الثعبان ينفث سمه ... فاسأله من ذا بالسموم حشاكا ؟
وأسأله كيف تعيش ياثعبان أو ... تحيا وهذا السم يملأ فاكا ؟
وأسأل بطون النحل كيف تقاطرت ... شهداً وقل للشهد من حلاك؟
بل سائل اللبن المصفى كان بين ... دم وفرث من ذا الذى صفاكا ؟

الله فى كل الحقـــائق ماثل إن لم تكن لتراه فـهو يـراك[1]

ومع علمنا بأن الله سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه سبحانه وتعالى ربط المسببات بالأسباب ـ إلا أن الإنسان يمزق نفسه بنفسه بانقياده الأعمى للتفاؤل والتشاؤم والحذر ، والخوف من الحياة ومن ضيق الرزق والعيش ، وما تحمله الأيام من الخطر، ومن قسوة القضاء والقدر ـ على هذه الإعتبارات بالغ الإنسان فى الحزن وأفرط فى الجزع ـ خاف من الحياة فلازمه الشقاء، وعاش فى الهم فلازمه البلاء ـ وقل من قلبه الإيمان فنسى أن كل ما قدر للإنسان فى قبضة الرحمن .

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ [المعارج] .

خلق الإنسان شديد الجزع والضجر شديد الحرص ـ إذا قل ماله وناله الفقر فلا صبر له عليه ، وإن كثر ماله وناله الغنى إزداد حرصه عليه ـ قال سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الفجر] .

إذا امتحن الله الإنسان بالنعم فأكرمه بالمال والغنى وأوسع عليه من فضله يفرح بذلك ويسر ، ويقول ربى أكرمنى بهذه الكرامة ، وأما إذا أمتحنه الله بالفقر فضيق عليه ولم يوسع عليه الرزق فيقول ربي أذلني بالفقر ، ولم يشكر الله على ما وهب له من سلامة جوارحه والعافية فى جسمه ، ونعم الله الكثيرة عليه .

وقصة البشرية تشير إلى أن الله تبارك وتعالى خلق الإنسان ليكرمه لا ليهينه .. خلقه ليسود فى العالمين ، لا ليؤخر منزلته أو يضيع مقداره : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأعراف] .

فحين تقبل عليك الدنيا بأسبابها المختلفة إياك أن تفرح وتتوهم أن لإرادتك مدخلاً فى هذا الأمر ، وإياك أن تحزن أو تتألم إن حدث وزالت عنك هذه الأسباب ـ فإن الحق تبارك وتعالى خلق العباد لما شاء ، ويسرهم لما خلقوا له على وفق علمه وإرادته ، وصرفهم

---

(١) من قصيدة الشيخ إبراهيم بدوي (الوعي الإسلامي العدد ٥٤) ونشرت فى الوصية رقم ٩ جـ ١ ص ٩٦ من وصايا الرسول للشيخ طه عفيفي .

بمقتضى حكمته ومشيئته ـ فمنهم شقى وسعيد ، وهداهم النجدين فمنهم قريب وبعيد .. وما هى إلا أسباب نأخذ بها فى الدنيا والله يفعل ما يريد .

إن الأمر يتنزل من السماء إلى الأرض كقطرات المطر إلى كل نفس ما قسم لها من زيادة أو نقصان .. وقد دبر الله سبحانه وتعالى أمر عباده، ولو شاء لعصم الإنسان من كل ما يكره .. ولكنه سبحانه وتعالى قضى .

﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة] .

عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه : يقول ربنا تبارك وتعالى :

إن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الفقر . وإن بسطت عليه أفسده ذلك.

وإن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الغنى . ولو أفقرته لأفسده ذلك .

وإن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الصحة . ولو أسقمته لأفسده ذلك .

وإن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا السقم . ولو أصححته لأفسده ذلك .

وإن من عبادى من يطلب باباً من العلم فأكفه عنه لكيلا يدخله العجب . إنى أدبر أمر عبادى بعلمى بما فى قلوبهم إنى عليم خبير [(١)] .

وعن ابن مسعود ﷺ : حدثنا رسول الله ﷺ فقال : إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون بعد ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون بعد ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الله تبارك وتعالى الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع « يكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد » .

فو الذى نفسي بيده .. وفى رواية فوالذى لا إله غيره .. إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها[(٢)] .

وإنه من سنة الإسلام أن تعلم بأن القلم قد جرى بما هو كائن من أمر الدين والدنيا رطبها ويابسها لقول الله تعالى :

﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام] .

---

(١) خرجه الطبراني - وبعضه خرجه البزاز (جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي) (٣١٤) .

(٢) الحديث متفق عليه - وجميع الأحاديث النبوية الواردة فى الباب عاليه وما قبله أخذت من رياض الصالحين للنووي .

والسعادة والشقاء مكتوبتان « وكل ميسر لما خلق له »[١] .

فلا تقديم لما أخره الله ، ولا تأخير لما قدمه ، ولا تعطيل لما أحكمه، ولا نقض لما أبرمه .. وكل ذلك بقدر الله .

فلا تستسلم للهم فكل مقدور واقع لا محاله ، وكل ما هو كائن حاصل رضى الإنسان أم سخط .

يقول الإمام علي بن أبي طالب ﷺ: اجتنب سبع خصال يسترح جسمك وقلبك :

لا تحزن على ما فاتك ، ولا تحمل هم ما لم ينزل بك ، ولا تلم الناس على ما فيك مثله ، ولا تطلب الجزاء على ما لم تعمل ، ولا تنظر بشهوة إلى ما لم تملك ، ولا تغضب على من لم يضره غضبك ، ولا تمدح من يعلم من نفسه خلاف ذلك[٢] . وإن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها[٣] .

١٣ ـ نفحات من رحمة الله على عباده المؤمنين .

ولله سبحانه وتعالى نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده ، وله سبحانه وتعالى سنن أودعها قلب النبي ﷺ يعلمها للناس .. فمن سلك سبلها فهو على نور من ربه ، وبصيرة من أمره ـ ومن مال عنها وقع في ظلمته ، وارتبك في حيرته .

فإذا حدث للإنسان قسط من هذا الإبتلاء في مرض أو فقر أو موت أو غنى أو خير أو شر فلسنة رسول الله ﷺ في كل إبتلاء أدب يتأدب به ، وحق يلتزم به لتستقر النفوس على طاعة الله والإيمان بالله وترضى بقدر الله .

فإذا كان الإبتلاء في الموت .. فقد أعلمنا رسول الله ﷺ أن الموت راحة .

روى البخاري ومسلم عن أبي قتادة ﷺ أن رسول الله ﷺ مر عليه بجنازة فقال مستريح ومستراح منه«أي أن هذا الميت إما مستريح أو مستراح منه » فقالوا يارسول الله : ما المستريح وما المستراح منه ؟

قال عليه الصلاة والسلام : العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا « أي تعب الدنيا » والعبد الفاجر تستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب « أي تستريح من أذاه » وعلمنا رسول الله ﷺ أنه من أدب الإسلام أن تتبع الجنازة .

---

(١) من حديث علي وعمران بن حصين (متفق عليه) إحياء علوم الدين .

(٢) هداية المرشدين للشيخ علي محفوظ .

(٣) من حديث محمد بن مسلمة « الحكيم في النوادر » ولابن عبدالبر في التمهيد نحوه من حديث أنس ورواه بن أبي الدنيا في كتاب الفرج من حديث أبو هريرة .

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان . قيل : وما القيراطان ؟ قال : « مثل الجبلين العظيمين » (متفق عليه) .

وفى رواية للبخاري عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : من اتبع جنازة مسلم إيماناً واحتسابا وكان معها حتى يصلى عليها ويفرغ من دفنها ، فإنه يرجع من الأجر بقيراطين كل قيراط مثل أحد ، ومن صلى عليها ثم رجع قبل أن تدفن فإنه يرجع بقيراط . (رواه البخاري) .

وعن أبي عبدالرحمن بن عوف بن مالك ﷺ قال : قام رسول الله ﷺ على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول : اللهم أغفر له وارحمه ، وعافه ، وأعف عنه ، وأكرم نزله ، ووسع مدخله ، واغسله بالماء والبرد والثلج ، ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، وأبدله دارا خيراً من داره ، وأهلاً خيراً من أهله ، وزوجا خيراً من زوجه ، وأدخله الجنة ، وأعذه من عذاب القبر ، ومن عذاب النار ، حتى تمنيت أن أكون أنا هذا الميت .(رواه مسلم) .

وروى الترمذي عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال «نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضي عنه » (رواه الترمذى) .

وكثير من وصايا رسول الله ﷺ فى ذلك ولكننا نختصر بقدر الإمكان .. فإن المهمة هى إظهار عظمة الإسلام وأنصبته النفيسة التى تركها لنا رسول الله ﷺ لنتبع كل ما أمر به حتى تسلم لنا حياتنا فى الدنيا والآخرة .

وفى مقام الحديث الذى نعيشه فى الإبتلاءات ـ إذا ما حدث الابتلاء فى الموت فأكثر من الدعاء والذكر والاسترجاع ولا تقول إلا خيرا . لقوله عليه الصلاة والسلام إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيرا فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون [1] .

وقوله ﷺ : ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرنى فى مصيبتي واخلفني خيرا منها إلا أجره الله تعالى فى مصيبته وأخلفه خيراً منها .

وإذا ما كان الابتلاء فى المرض فمن أدب الإسلام أن تعود المريض وتدعوا له بالشفاء .

عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : أمرنا رسول الله ﷺ بعيادة المريض واتباع الجنازة وتشميت العاطس وإبرار القسم ونصر المظلوم وإجابة الداعى وإفشاء السلام (متفق عليه) .

---

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم عن أم سلمه رضي الله عنها .

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام ، وعيادة المريض ، وإتباع الجنائز، وإجابة الدعوة ، وتشميت العاطس . (متفق عليه) .

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله عز وجل يقول يوم القيامة (يابن أدم مرضت فلم تعدني . قال : رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدي فلان مرض فلم تعده ؟ أما تعلم أنك لو عدته لوجدتنى عنده [١] ؟

وقال عليه الصلاة والسلام من عاد مريضاً نادى مناد من السماء طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا [٢] .

وعلى المريض أن يصبر على ما ينزل به من ضر ـ فما أعطى العبد عطاءاً خير وأوسع له من الصبر .

روى البخاري عن أنس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله تعالى قال « إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه فصبر عوضه منهما الجنة » « يريد عينيه » ، وقد ذكر فى أداب العبادة أنه يستحب أن يدعوا العائد للمريض بالشفاء والعافية وأن يوصيه بالصبر والاحتمال ، وأن يقول له الكلمات الطيبة التى تطيب نفسه وتقوى روحه .. ويستحب تخفيف العيادة وتقليلها ما أمكن حتى لا يثقل على المريض إلا إذا رغب فى ذلك [٣] .

وإذا كان الابتلاء فى الفقر فهو من أشد الابتلاءات التي أوصانا رسول الله ﷺ أن نستعيذ منها، وكان عليه الصلاة والسلام يقول فى دعائه : اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر [٤] ويقول : اللهم إنى أعوذ بك من الفقر والفاقة والذل ، وأعوذ بك أن أظلم أو أظلم.. ذلك لما علمه عليه الصلاة والسلام من خطورة الفقر على الدين وعلى العقيدة ، وأن الرجل إذا غرم استدان . حدث فكذب ، ووعد فأخلف .. والدين ينصح المؤمن بالصبر والإيمان،وأمر المسلمين بالتصدق على فقيرهم حتى لا يكون فى أمة الإسلام فقير .

وقد دعا القرآن الكريم الأغنياء القادرين على الإنفاق من رزق الله على عباده ، وفرض فى أموالهم هذا الحق فقال سبحانه فى وصف المتقين .

---

(١) من حديث طويل رواه الإمام مسلم (نووي) (عن أبي هريرة) .

(٢) رواه بن ماجه عن أبي هريرة ﷺ .

(٣) فقه السنة للشيخ سيد سابق ١/ ٤٨٧ .

(٤) رواه ابو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة .

﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات] .

وحدثنا البخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة ﷺ ـ قول النبي ﷺ فى حديث الرجل الذى تصدق بالليل على رجل فصادفت صدقته سارقاً « فتحدث الناس بذلك » وقالوا : تصدق على سارق ... ثم تصدق مرة أخرى على إمرآة فصادفت صدقته زانية فأصبح الناس يتحدثون بذلك ويقولون : تصدق الليلة على زانية ـ فجاءه فى المنام من قال له : أما صدقتك على سارق فلعلَّه أن يستعف عن سرقته ، وأما صدقتك على زانية فلعلها أن تستعف عن زناها ـ فظهر بذلك أثر الغنى على إستعفاف الرجل عن السرقة ، والمرأة عن الفاحشة .

وأما إذا كان ابتلاء الله عليك فى نعمة أنعم الله عليك بها بالخير والغنى والصحة والعافية فاشكر الله على ما أعطاك ، ولا تزيدك النعم إلا انكسارا وذلاً وتواضعاً ومحبة للمنعم سبحانه وتعالى ، فالتحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر .

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضُّحى] .

... وهل تعترض الآلام الناس إلا ليتعلم بها الجاهل ، ويصحو الذاهل ، ويتوب إلي الله من نأى عنه ـ فإذا نزلت بك نازلة فلا تسب الدهر ففى ذلك خطر على العقيدة ، والزمن والدهر لا شأن لهما بما ينزل بالإنسان .. إنما كل شيئ بفعل الله

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ـ يقول ربنا سبحانه وتعالى « يؤذينى ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدى الأمر أقلب الليل والنهار » [١] .

وإذا ابتلى أحدكم بفقر أو مرض أو بمحنة ونحو ذلك فلا يتمن الموت لقول رسول الله ﷺ : لا يتمن أحدكم الموت إما محسنا فلعله يزداد ، وإما مسيئاً فلعله يستعتب[٢] .

وفى رواية لمسلم عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : لا يتمنى أحدكم الموت ، ولا يدع به من قبل أن يأتيه ، إنه إذا مات إنقطع عمله،وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا .

وعن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ قال : لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه . فإن كان لابد فاعلاً فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى (متفق عليه) .

---

(١) أخرجه مسلم وأبوداود عن أبي هريرة ﷺ - وهذا لفظ أبي داود .

(٢) متفق عليه - وهذا لفظ البخاري .

والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، والرضا أعلى من الصبر درجة ، والشكر أعلى من الرضا درجة قال تعالى :

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل] .

وإن ضاقت بك الأرض بما رحبت فلا تيأس من رحمة الله مهما أحاط الكرب واشتد بك الضيق ـ فإنه لا يقنط من فرج الله ورحمته إلا الجاحدون قال تعالى :

﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف] .

« قال رجل لأبي الدرداء ﷺ: أوصني : فقال : أذكر الله فى السراء يذكرك الله عز وجل فى الضراء .. وأعظم الشدائد التى تنزل بالعبد فى الدنيا الموت ..

وما بعده أشد إن لم يكن مصير العبد إلى خير ... ومن أقواله ﷺ ثلاث أحبهن ـ ويكرههن الناس . الفقر والمرض والموت ـ أحب الموت إشتياقاً إلى ربي ، وأحب الفقر تواضعاً لربي ، وأحب المرض تكفيراً لخطيئتي » .

« وقال عمر بن الخطاب ﷺ : ما أبالى على أى حال أصبحت ، على ما أحب أو على ما أكره ـ لأنى لا أدرى الخير فيما أحب أو فيما أكره».

«وقال عبدالله بن مسعود ﷺ: ما يضر عبداً يصبح على الإسلام ويمسى عليه ـ ما أصابه فى الدنيا » .

« وقال على بن أبي طالب ﷺ : ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ، ويعظم حلمك ، وأن تباهى الناس بعبادة ربك – فإن أحسنت حمدت الله ، وإن أسأت استغفرت الله » .

« وقال عبدالله بن مسعود ﷺ : لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحل بذروته ، ولا يحل بذروته حتى يكون الفقر فى الحلال أحب إليه من الغنى فى الحرام ـ والتواضع فى طاعة الله أحب إليه من الشرف فى معصية الله ، وحتى يكون حامده وذامه عنده فى الحق سواء» .

« وكان عمر بن عبدالعزيز وهو الخليفة الخامس عنده الخزائن وأولاده لا يظهر عليهم الثراء فقالوا له : أتملك كل هذه الخزائن وأنت على رأس القمة أميراً للمؤمنين وتترك أولادك هكذا ؟ ـ ألا تترك لهم مالا ؟ [1] .. قال عمر ﷺ : إن كان ولدي صالحاً فإن الله يتولى الصالحين ، وإن كان فاسقاً فلا أترك له مالاً يستعين به على معصية الله » يقول راوى

---

(١) وكان عمر بن عبدالعزيز إذا قام بعمل يخص الدولة أو قاد مصباحه من الزيت المخصص للوله وإذا كان غير ذلك أنفق من حسابه الخاص، وكان يتحرى كما تحرى أصحاب رسول الله ﷺ تسعة أعشار الحلال حتى لا يقع فى الحرام (حياة الصحابة) .

الحديث : عشت حتى رأيت بعينى أحد أثرياء المدينة فى عهد عمر بن العزيز يمد يده للسؤال لله ، ورأيت أحد أبناء عمر بن العزيز يتبرع بألف ناقة للجهاد فى سبيل الله [١] .

والإنسان بمعناه لا بمبناه . فحين تأمن فأشكر الله ، وحين تخاف فأهرب إلى الله ، وحين تحرم فأسأل الله ، ولا تضيق على نفسك الأمور...

فأنت إن ضيقت أمراً ضاق جداً وإن هونت ما قد عز هانا

فلا تهلك على ما فات يأساً فكم أمر تصعد ثم لانا

سابعاً : ميراث الإيمان والأعمال الصالحة .

١ – الإيمان أفضل الأعمال .

والإسلام الذى إرتضاه الله لنا دينا يقوم على العقيده والشريعة بالإيمان والعمل ، وكان صحابة رسول الله ﷺ يعدون الأعمال جزءاً أساسياً من الإيمان ، فالإيمان قول وعمل وإعتقاد وإقرار وتصديق ، ثم إدراك للمسئولية فى معنى الإنتماء للإسلام ، ومعرفة مستلزماته التى تقضى بالممارسة التطبيقية العملية.

ولما سئل رسول الله ﷺ أى العمل أفضل ؟ قال : إيمان بالله ورسوله (من حديث أبى هريرة ورواه البخارى) فدل ذلك على أن الإعتقاد والنطق من جملة الأعمال .

والمعرفة بالقلب لا تنفع ما لم يتكلم بالشهادتين .. والإيمان يطلق على الأعمال البدنية لأنها من مكملاته ... والإسلام لا يعرف الطبقة التى ترث الغنى والبطالة – لأن المؤمن مدعوا دائما إلى أن ينفق ماله فى سبيل الله ، والمال لا يدوم مع البطالة .

روى الطبراني عن عائشة رضي الله عنها قالت : من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفوراً له .

وروى الطبراني أيضاً عن كعب بن عجره ﷺ قال : مر على النبي ﷺ رجل فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جلده ونشاطه فقالوا يارسول الله لو كان هذا فى سبيل الله .. فقال رسول الله ﷺ :

إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو فى سبيل الله .

وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله .

وإن كان خرج يسعى رياءاً ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان .

---

(١) وهناك الكثير من هذه الأمثلة للسلف الصالح وصحابة رسول الله ﷺ للعظه والإعتبار تجدها فى حياة الصحابة للكاندهلوي وفى هداية المرشدين للمرحوم الشيخ علي محفوظ - (ذلك لمن أراد الزيادة) .

وروى البخاري عن الزبير بن العوام ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : لأن يأخذ أحدكم أحبله فيأتى بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها ـ فيكف الله بها وجهه ـ خير له من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه .

روى الترمذي عن عبدالله بن محصن ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : من أصبح أمناً فى سربه معافاً فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها [١] .

فالعمل يصدق العقيدة ـ ذلك العمل الذى يعقب الندم والتوبة ، فالإسلام لا تكفى فيه المشاعر والنوايا ما لم تتحرك إلى دافع بالأعمال ليس فقط مجرد النيات ، والمعلوم أن المرء يسئل عن أعماله كلها لقول الله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحِجر] .

قال جماعة من أهل العلم منهم أنس بن مالك : أن السؤال فى هذه الآية « عما كانوا يعملون » عن قول لا إله إلا الله ـ وقال النووي : عن الأعمال كلها التى تتعلق بها التكليف .

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا وأستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة [٢] .

وفى رواية مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « قاربوا وسددوا وأعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله » قالوا ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل [٣] .

والمعنى أنه لا يتعمق أحد فى الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب ـ وليس المراد منع طلب الأكمل فى العبادة ـ فإنه من الأمور المحمودة ـ بل من الإفراط

---

(١) لجنة كبار علماء الأزهر (الجمعة والعيدين) .

(٢) رواه البخاري فى فتح الباري ١/ ١٨٤ .

(٣) والمقاربة هي القصد الذي لا غلو فيه ولا تقصير ، والسداد هو الإستقامة والإصابة وقوله عليه الصلاة والسلام أن يلبسني ويسترني – وقد سمى الدين يسراً حيث رفع الله عن هذه الأمة الإصر الذى كان على من قبلهم ومن أوضح الأمثلة أن توبتهم كانت بقتل أنفسهم وتوبة هذه الأمة بالإقلاع والعزم والندم (فتح الباري ١ / ١٨٤) .

المؤدى إلى الملالة والمبالغة فى التطوع المفضية إلى ترك الأفضل أو إخراج الفرض عن وقته [١].

وفى حديث محجن بن الأدرج عن أحمد « إنكم لن تنالوا هذا الأمر بالمغالبة وخير دينكم اليسره » ـ وقد يستفاد من هذه الإشارة إلى الأخذ بالرخصة الشرعية فإن الأخذ بالعزيمة فى موضع الرخصة تنطع ، كمن يترك التيمم عند العجز عن إستعمال الماء .

«وقوله ﷺ سددوا أى الزموا السداد وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط ـ والسداد هو التوسط فى العمل كما قال أهل اللغة ».

« وقوله ﷺ وقاربوا أى إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فأعملوا بما يقرب منه ـ والعجز إذا لم يكن بسبب العاجز لا يقلل من الأجر» .

« وقوله ﷺ وأبشروا أى بالثواب على العمل الدائم وإن قل » .

«وفى حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم ـ أمرهم من الأعمال ما يطيقون [٢] ـ فكان إذا أمرهم بما يسهل عليهم ليداوموا عليه كما قال فى حديث أخر(أحب العمل إلى الله أدومه) » .

«وقوله ﷺ : واستعينوا بالغدوة أى استعينوا على مداومة العبادة بإيقاعها فى الأوقات المنشطة » [٣] .

« وكأن رسول الله ﷺ خطب مسافراً إذا سافر الليل والنهار جميعاً عجز وانقطع ، وعمل الليل أشق من عمل النهار[٤] .

« وعن أبي هريرة ﷺقال : قال رسول الله ﷺ عليكم بما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا ، وكان أحب الدين إلى الله مادام عليه صاحبه» [٥] .

---

(١) كمن يأتي يصلي الليل كله ويغالبه النوم إلى أن غلبته عيناه فى أخر الليل فنام عن صلاة الصبح فى الجماعة .. أو إلى أن خرج الوقت المختار .. أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة (فتح الباري فى شرح صحيح البخاري وتابع لما قبله) .

(٢) رواه البخاري .

(٣) الغدوة (الصبح) سير أول النهار - وقال الجوهري ما بين صلاة الغداء وطلوع الشمس - والدلجة سير أخر الليل وقيل سير الليل كله .

(٤) فى رواية بن أبي ذئب (القصد القصد) أي الأخذ بالأمر الأوسط .

(٥) فتح الباري فى شرح صحيح البخاري ١ (١٥٠ ، ١٩٣ – ١٩٤) .

« وروى أبوداود عن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ : إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم في قبورهم، فإن كان خيراً استبشروا به وإن كان غير ذلك قالوا : اللهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك »[١] .

وإذا أراد الله بعبده خيراً استعمله قبل موته قالوا : يارسول الله وكيف يستعمله قال : يدفعه لعمل صالح ثم يقبض عليه[٢] .

وإن أولي العزم من الرسل وأقطاب النبوة قد شرفوا باحتراف مهنة يعيشون على كسبها ويستغنون بها عن سؤال الناس .

« اشتغل موسى عليه السلام برعى الغنم عشر سنين أجيراً في أرض مدين قبل أن يبعثه الله رسولاً » .

« وأنعم الله على عبده ورسوله داود عليه السلام فجمع له بين النبوة والملك ـ وكان قد أوتى صوتاً جميلا إذا قرأ في الزبور سبخت معه الجبال وأصغت إليه الطير ـ ألان الله له الحديد يفتله بيده مثل الخيوط بغير النار كالعجين والشمع والطين وتلك إعجازات خصها الله ما يشاء ، فكان يصنع الدروع والسيوف أدوات الحرب والقتال[٣] .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [سبأ] .

وكان عليه السلام يستغني به ويغني به عياله ويتصدق منه يومياً.

روى البخاري عن رسول الله ﷺ قوله : ما أكل أحد طعاماً خير من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده .

وقد أمر عليه السلام قومه بالعمل الصالح من هذه النعم فإن الله بصير بالأعمال لا يخفى عليه شيء .

ونوح عليه السلام برعاية الله وتعليمه عمل بالنجارة وصناعة السفن يصنع المركب والناس منه يستهزءون .. ولكنه يصنعه تحت نظر الله وحفظه وتعليمه سبحانه له كيف يصنعها ـ قال تعالى : ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [هود] .

---

(١) رواه أبوداود (ابن كثير في تفسير القرآن العظيم ٢ / ٣٨٧) .

(٢) تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه (ابن كثير ٢/ ٣٨٧) .

(٣) والسابغات هي الدروع وقد صنعها داود رقائق متداخلة وكانت من قبله صفائح تصقل الجسم .

٢ – السبيل إلى دار اليقين والعاقبة للمتقين .

وقبول الأعمال إنما يحصل برحمة الله ـ والمنفى فى الأحاديث هو العمل المجرد عن القبول .. فقد اتفق أئمة المسلمين على أن العمل الصالح لابد منه لدخول الجنة .

فالذين تطهروا بالعقيدة من الشرك، ورسخت قلوبهم بالوحدانية، وأحسنوا المعاشرة، وصلة النفس والأرحام والأقارب واليتامى والمساكين. وزادوا من عطاء الله على خلق الله دون بخل فى الأموال التى هى حبهم الأول .. وهؤلاء الذين تهذبوا بالعبادات والمعاملات والأخلاق مع الله ورسوله ومع الناس ، واتصفوا بصفات المتقين التى أشرنا إليها كثيراً فيما تقدم . هؤلاء تسلم عليهم الملائكة عند الإحتضار وتبشرهم بالجنة بما عملوا فى الدنيا من الصالحات .

قال سبحانه وتعال : ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۖ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢ ﴾ [النحل] .

وقد أورث الله الجنة لعباده المتقين بطاعتهم لله واجتناب معاصيه فقال سبحانه :

﴿ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣ ﴾ [مريم] .

والتقوى فى العمل بشيئين :

أحدهما إخلاص لله ، وهو أن يريد العبد به وجه الله لا يشرك بعبادة ربه أحدا .

والثانى أن يكون مما أمر الله به وأحبه فيكون موافقاً للشريعة .

وفى قول الله تعالى : ﴿ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ ﴾ [هود:٧] .

قال الفضيل بن عياض : أخلصه وأصوبه ـ ذلك أن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصاً صوابا ـ والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة .

والسعيد من يخاف فى أعماله أن لا يكون صادقا فى إخلاصه لدين الله ، أو أن تكون موافقة لما أمر به الله على لسان رسول الله ﷺ .. ولهذا كان السلف يخافون النفاق على أنفسهم .

فذكر البخاري عن أبي العالية قال : أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه [١] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الإيمان - باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر ـ «كتاب التوبة لابن تيمية» .

وعندما تنشغل بالقرآن وتتأمل فيه يعطيك كل ما تريد ، وما هو بخاطرك ، فافتح مصحفك على شوق للمعرفة والعلم من كنوز القرآن تجد ما يسعدك ويرضيك فى عظمة الإعجاز والبيان .. وهذه الآيات من سورة مريم تبدأ ببيان ميراث الله لجميع خلقه لأنه الباقى بعدهم والحاكم فيهم وكل ما على الأرض ومن فيها عائد إليه .

فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [مريم] .

ثم يقص الله علينا قصص الأنبياء الذين وصفهم سبحانه بالصدق والعلم والاستقامة والتوحيد والإخلاص بالثناء الحسن الجميل فذكر فى الكتاب إبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس وهم الذين أنعم الله عليهم وهداهم من ذرية آدم .

قال السدي وابن جرير رحمه الله : فالذي عني به من ذرية آدم إدريس ، والذي عني به من ذرية من حملنا مع نوح إبراهيم ، والذي عني به من ذرية إبراهيم اسحاق ويعقوب وإسماعيل ، والذي عني به من ذرية إسرائيل موسى وهارون وزكريا ويحيي وعيسي ابن مريم [١] .

وقد سجدوا جميعاً لله خضوعاً وتذللاً .

وبعد أن قص الله علينا هذه الصفوة الطاهرة التى خلفت فى الأرض خلف سوء تركوا الصلاة ولم يؤتوا الزكاة وآثروا شهوات النفس على طاعة الله وهم الذين توعدهم القرآن بالخسران : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ [مريم] .

والغى : واد أو بئر فى جهنم من قبح ودم كما ذكر بن جرير .

تنتهى الآيات الكريمة مرة أخرى إلى باب الله الذى لم يغلق على الشاردين عن رحمته بقبول توبتهم وإيمانهم بالله ورسوله وطاعتهم وصالح أعمالهم فقال سبحانه :

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ ﴾ [مريم] .

ليس للباطل فى هذه الجنة مكان يسكنه لا بالقول ولا بالكلام وإنما المكان للملائكة يسمع التائبون منهم السلام ولهم ما يشتهون فيها من النعم والرزق الكريم وهذه الجنة بوعد الله أورثها لمن كان تقياً من عباده ـ وبذلك بدأت الآيات بميراث الله الأرض ومن عليها وانتهت بتوريث الله الجنة لعباده المتقين .

---

(١) ابن كثير ٣/ ١٢٦ .

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم].

وقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى أن العاقبة للمتقين على لسان موسى عليه السلام حين طلب من بني إسرائيل أن يستعينوا بالله على فرعون وقومه، ويصبروا على ما أصابهم من مكاره فرعون وقومه لعل الله يورثهم أرض مصر بصبرهم واستقامتهم فقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف].

وأورث الله بنى إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها بعد مهلك من كان فيها من العمالقة وخرب سبحانه ما كان فرعون وقومه يصنعونه ـ قال سبحانه وتعالى:

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف].

فأراد الله بذلك الإنعام على الذين استضعفهم فرعون من بنى إسرائيل ويجعلهم ملوكا وولاه يرثون الأرض بعد مهلك آل فرعون ويملكهم أرض الشام ومصر ويمكن لهم فيها فقال سبحانه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص].

وبين الله سبحانه وتعالى فى كتابه أنه جل جلاله أخرج فرعون وقومه من هذه البساتين والكنوز والمجالس الحسنة البهية وأورثها بني إسرائيل فقال سبحانه:

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء].

وقد وصف الله الجنة بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم محفوظين ومنصورين ومؤيدين من الله جزاء على أعمالهم الصالحة ـ تولاهم الله وأثابهم الجنة بمنه وكرمه ـ وأعد سبحانه لأوليائه الذين تذكروا واعتبروا، دار السلام، وهم أهل التمييز والفهم، وهو سبحانه ناصرهم ومعينهم ـ قال تعالى:

﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأنعام].

وأخبر الله تعالى عن عدله وكرمه أنه لا يساوى فى حكمه يوم القيامة من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسله بمن كان فاسقاً خارجاً عن طاعة ربه فقال سبحانه:

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [السجدة].

وتتجلى كرامة الله وعطاؤه بما يتحقق للنفس الطائعة بما تشتهيه مما لا عين رأت ولا أذان سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأورد الله المتقين جنته لا يخرجون منها أبدا لهم فيها فاكهة من كل الأنواع لا ينقطع عنهم منها شيئ ، ولا يمنعهم منها شيء .

قال سبحانه :

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الزُّخرُف] .

وقال سبحانه : ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الواقعة] .

فكانت الأعمال الصالحة سببا لشمول رحمة الله ، والدرجات بتفاوت الأعمال، وأن الإيمان هو العمل والمكسب فى الدنيا نعمة وستر من الله ، ويوم القيامة ميراث فى الجنة .

عن أبي هريرة ﷺ:قال رسول الله ﷺ ما من أحد إلا وله منزل فى الجنة ومنزل فى النار، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة [١] . وفى رواية فإن المؤمن يبنى بيته الذى فى الجنة ويهدم بيته الذى فى النار ، وأما الكافر فيهدم بيته الذى فى الجنة ويبنى بيته الذى فى النار ، فصيرت الجنة إرثا بالعمل الصالح « بما كنتم تعملون ».

وقد نقل جماعة من المفسرين قوله تعالى « تعملون» ـ معناه تؤمنون[٢] فذلك ميراثه الجنة بما فيها من خيرات للذين يتقون .

﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزُّخرُف] .

وسيق الذين اتقوا ربهم جماعات إلى الجنة حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها الثمانية وقال لهم خزنتها طابت أعمالكم فى الدنيا فطاب اليوم مثواكم فادخلوا الجنة ماكثين فيها أبدا .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزُّمَر] .

---

(١) ابن كثير ٤/ ١٣٤ (قاله بن أبي حاتم) مرفوعا عن الأعمش عن أبي صالح .

(٢) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ١/ ١٦٠ .

فشكروا الله على ما وعدهم فى الدنيا وجعل أرض الجنة ميراثهم بطاعتهم فى الدنيا وبصالح أعمالهم : ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزُّمَر] .

وكل صغير وكبير من الأشياء مثبت فى الكتاب أن المتقين فى مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم عند إله مقتدر على ما يشاء قدير وهو الله ذو القوة المتين فقال سبحانه :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر] .

وفى صحيح مسلم لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه فى النار يهوديا أو نصرانيا. يقول القرطبي : فهذا أيضاً ميراث[1] .

والأعمال شاملة لجميع الأعضاء والجوارح وأيضاً لأعمال اللسان المسماه بالأقوال ، والنية هى القصد « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل إمرئ ما نوى »[2] .

والأعمال ليست بمظهرها بل للباعث عليها أثر كبير فى انحطاطها أو علوها وعقابها أو ثوابها حسب درجة الإخلاص فيها .

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة «عبدالرحمن بن صخر » ﷺقال : قال رسول الله صلى ﷺ : إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

وعن ابن عباس « عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب » رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال: « إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك .. فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنة كامله ، وإن هم بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة » (متفق عليه) .

٣ – لا قيمة للعمل بغير إيمان ولا خير فى عقيدة لا تنفع الإنسان .

وكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل لا ثمرة له فى الدنيا ولا فى الآخرة .. ولا قيمة لأى عمل بغير إيمان يدفع صاحبه لفعل الخير ونفع الناس ـ فالإيمان شرط لقبول العمل .

وليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، وإن قوماً غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحن نحسن الظن بالله تعالى ، وكذبوا ـ لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

---

(١) القرطبى ٣ / ٢٧٢٥ .

(٢) من حديث عمر ورواه البخارى ومسلم وغيرهما . .

وقد نص القرآن الكريم صراحة عن إهدار قيمة العمل ما لم يستند إلى الإيمان ـ فقال تعالى :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾ [إبراهيم] .

ذلك أن الأعمال التى لا تقوم على قاعدة الإيمان ، وبنيت على غير أساس تنهار ، ولا يكون حاصلها إلا كالرماد المتطاير فى يوم اشتدت به الريح العاصفة .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور].

وذلك يعنى أنه لا عمل بغير عقيده ، ولا صلاح بغير إيمان ـ وإلا فهو كالسراب فى الأرض المكشوفة المبسوطة يحسبه الظمآن ماءاً حتى إذا جاءه لم يجده إلا سراب . ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان] .

وأقسم الله تبارك وتعالى فى كتابه العزيز أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان وقوته العملية بصالح العمل وكمل غيره بالحق والصبر عليه .

فقال سبحانه : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر].

فالحق هو الإيمان والعمل ولا يتمان إلا بالصبر عليهما والتواصى بهما .

وقد جمعت شريعة الله تبارك وتعالى أوصاف الإيمان بأكملها ليهتدى بها الناس فى أعمالهم لطاعة الله : فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .. هى الفطرة ، والصلوات الخمس هى الملة والزكاة هى الطهرة ، والصيام هو الجنة والوقاية ، والحج هو الكمال ، والجهاد هو النصر ، والأمر بالمعروف هو الحجة ، والنهى عن المنكر هو الوقاية، والجماعة هى الألفة ، والإستقامة هى العصمة ، وأكل الحلال هو الورع ، والحب والبغض فى الله هما وثيقة العبد فى التعامل مع ربه .

ومن كان على تلك الشريعة استقامت أعماله الصالحة بالإيمان على منهج الله وعلى طاعة الله .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الكهف].

والإنسان فى هذه الحياة له رسالة لابد أن يؤديها .. وبقدر ما يقدمه الإنسان من العطاء بقدر ما يكون نفعه ، وتكريم الإسلام له جزءا على ما يقدمه لإسعاد الآخرين .

فعندما بين لنا رسول الله ﷺ أفضل الناس وأكرمهم لم تكن هذه الأفضلية بكثرة المال أو الجاه أو السلطان ـ وإنما كانت الأفضلية بما يقدمه الناس من خير ينفع الناس ، ويربط بينهم ، ويؤلف بين قلوبهم ، وخير الناس أنفعهم للناس .

الناس لأدم وأدم من تراب .

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال فى حجة الوداع: أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا أحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى ـ إن أكرمكم عند الله أتقاكم [١] .

وعن أبي هريرة ﷺ ـ قال رسول الله ﷺ : إذا كان يوم القيامة أمر الله مناديا ينادى ألا إنى جعلت نسبا وجعلتم نسبا ، فجعلت أكرمكم أتقاكم فأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان خير من فلان بن فلان ـ فاليوم أرفع نسبى وأضع نسبكم [٢] .

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : بادروا بالأعمال الصالحة فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا ، ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا [٣] .

وعنه أيضا قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال : يارسول الله أى الصدقة أعظم أجرا ؟ قال : أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تهمل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان (متفق عليه) .

« وعنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : بادروا بالأعمال سبعا ـ هل تنتظرون إلا فقراً ممسيا ، أو غنى مطغيا ، أو مرضاً مفسدا ، أو هرماً مفندا ، أو موتاً مجهزا ـ أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر » [٤] .

وعن أبي ذر جندب ابن جناده ﷺ قال : قلت يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال : أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمنا . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال :

---

(١) رواه البيهقي .

(٢) رواه الطبراني والبيهقي .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه الترمذي ـ فقراً منسياً (شاغلاً عن أمور الآخرة) - (غناً مطغياً أو مرضاً مفسداً لحاله) - (الهرم بالفتح : كبر السن) - (مفرداً : مرثاً للفند وهو ضع الرأى والخطأ فيه) ـ (موتاً مجهزاً : سريعاً) -(الداهية : الأمر الفظيع الذى لا يهتدى إلى الخلاص منه) .

تعين صانعا أو تصنع لأخرق ـ قلت يا رسول الله أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال : تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك (متفق عليه) .

« وعن أبي ذر ﷺ أن ناساً قالوا يا رسول الله: ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم . قال : أوليس قد جعل لكم ما تصدقون به إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة [١] ، وفى بضع أحدكم صدقة» « قالوا يا رسول الله: أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر [٢] .

« وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ : من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له فى الجنة نزلاً كلما غدا أو راح (متفق عليه) .

« وعنه ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ قالوا بلى يارسول الله . قال : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط» [٣] .

« وعن أبي هريرة ﷺ ـ عن النبي ﷺ قال : لقد رأيت رجلاً يتقلب فى الجنة فى شجرة قطعها من ظهر الطريق ، كانت تؤذى المسلمين» [٤] .

« وعن جابر ﷺ ـ قال رسول الله ﷺ : ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان ما أكل منه له صدقه ، وما سرق منه له صدقه ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقه » [٥] . وفى رواية «فلا يغرس المسلم غرساً فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا طير إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة » [٦] .

وعن عدي بن حاتم ﷺ قال : سمعت النبي ﷺ يقول إتقوا النار ولو بشق تمره (متفق عليه) .

---

(١) قال العلماء : المعروف كل ما استحسنه الشرع من قول وعمل ، والمنكر كل ما استقبحه الشرع من قول وعمل والبر من المعروف يهدى إلى الجنة .

(٢) الدثور هي الأموال - والحديث رواه مسلم .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه مسلم .

(٥) رواه مسلم .

(٦) ورويا جميعاص من رواية أنس ﷺ .

وعن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال: على كل مسلم صدقة . قال : أرأيت إن لم يجد ؟ قال : يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق . قال : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال يعين ذا الحاجة الملهوف . قال : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : يأمر بالمعروف أو الخير . قال : أرأيت إن لم يفعل . قال : يمسك عن الشر فإنها صدقة (متفق عليه) .

وعن أبي ذر ﷺ قال : قال لي النبي ﷺ « لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق »[١].

وعنه ﷺ قال : قال النبي ﷺ « عرضت على أعمال أمتي حسنها وسيئها ، فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق ، ووجدت في مساوئ أعمالها النخاعة تكون في المسجد لا تدفن »[٢].

ومن مجمل الأقوال والأحاديث في ميزان حسنات العباد أعمالاً صالحة : تبسمك في وجه أخيك صدقة .. وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة .. وإرشادك الرجل في أرض الضلالة صدقة .. وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك فيها صدقة .. وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقه ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة .. والكلمة الطيبة صدقة ... كل ذلك عمل صالح .. فكل من اتقى الله في عمله وأخلص لله دينه كان القليل من عمله كثيرا .

وإخلاصك لله أن لا تطلب على عملك شاهداً غيره ولا مجازياً سواه ـ إخلاصك لله أن تستوى أعمالك في الظاهر والباطن ـ وأن تنسى رؤية الخلق من دوام رؤية الخالق .

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف] .

« وصنائع المعروف تقي مصارع السوء ، وصدقة السر تطفئ غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد في العمر »[٣] .

« وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة فلا تحقرن شيئاً من عملك مهما كان قليلا .. كل معروف مهما قل فإن لك فيه صدقة » .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه الطبراني الكبير بإسناد حسن .

«وأرفع الناس مكانة أزكاهم خلقا ، وأعرفهم بحقوق الله ، وأسرعهم إلى مرضاته ونفع عباده .. وأحب الناس إلى الله أنفعهم للناس ، وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم « تكشف عنه كربه ، أو تقضى عنه ديناً ، أو تطرد عنه جوعاً » .

« ومن كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا ، ومن مشى مع أخيه فى حاجة حتى يقضيها ثبت الله قدميه يوم تزول الأقدام » [١].

«فمن لم يستطع أن يقدم الخير للناس ، ولكن دل على طريقه ، فإن الله لا يحرمه الأجر ، وإنما يعطيه مثل أجر فاعله لأن الدلالة على الخير يعتبرها الإسلام نفعا » .

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ـ ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لم ينقص ذلك من آثامهم شيئا [٢].

ولا خير فى الدنيا إلا لأحد رجلين : رجل أذنب ذنباً فهو تدارك ذلك بتوبة ، ورجل يسارع فى الخيرات ولا يقل عمل فى تقوى ، وكيف يقل ما يتقبل .

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة] .

«وفى حديث أبى مسعود عقبة بن عمرو الأنصارى ﷺقال : قال رسول الله ﷺ : من دل على خير فله مثل أجر فاعله» [٣].

«وعن جابر ﷺ ـ خطبنا رسول الله ﷺ فقال : يأيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له وكثرة الصدقة فى السر والعلانية – ترزقوا وتنصروا وتجبروا» [٤].

وعن أبي الدرداء ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى. قال (ذكر الله تعالى) [٥].

---

(١) رواه بن أبي الدنيا عن بن عمر رضي الله عنهما .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه بن ماجه .

(٥) رواه الترمذي - قال الحاكم أبوعبدالله : إسناده صحيح .

ثامناً : مواطن الشرك والطغيان والفسوق والعصيان ومنابع الإثم والعدوان .

١ـ مقاصد الشريعة وحق العباد على الله .

بين الإسلام للناس مواطن الشرك والطغيان والفسوق والعصيان ومنابع الإثم والعدوان ـ ليتجنب المسلم الهلاك بسببها فتسوء خاتمته بترك شريعة الرحمن وإتباع أوامر الشيطان .

ولقد حرصت الشريعة الإسلامية على تدعيم العقيدة وحمايتها وصيانتها من كل ما حرم الله على بني الإنسان ـ فأمرت بإخلاص العبادة لله وحده ، وتحديد إرادة الأعمال لله وحده دون غرض أو مصلحة أو منفعة سوى الخضوع لله والإستسلام لأوامر الله ، واجتناب ما نهى عنه الله ، والإعتقاد أنه سبحانه الفاعل الضار النافع ولا يملك هذا الحق سواه ..فكان من أول مقاصد هذه الشريعة حرب الكفر والشرك على مختلف صورة وأشكاله وإعلاء كلمة الحق والتوحيد « لا إله إلا الله » فيشعر القلب بالراحة وتطمئن النفوس إليها وإلى الخير الذى يأتى للعباد من ورائها .

روى البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم ـ عن معاذ بن جبل ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وحق العباد على الله ألا يعذبهم» . وكلمة العبادة تجمع الصغير والكبير فى الدين من الخضوع والتذلل والطاعة لله فيما أمر به سبحانه وما نهى عنه ـ والإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم والتصديق بكتابه ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وتهذيب النفوس بالصيام ، وحج البيت عند الإستطاعة ، وتحسين عشرة الناس ، والصدق فى معاملاتهم ، والتخلق بالخلق الحسن ، والوقوف عند ما شرعه الله لا يتعدى أحد حدوده ، ولا يتجاوز أحد رسومه .. وتجانب كل ما نهى عنه من الخبائث مما هو إعتداء على النفس أو المال أو العرض أو الإضرار بالخلق ... وأساس ذلك العلم بكتاب الله وما احتواه .. بتلاوته وتدبره ودراسته وتفهمه ، وإخلاص التوحيد لله ، وعدم الإشراك به .. فهو وحده سبحانه صاحب كل شيئ وإليه يعود كل شيئ ، وله الخلق والأمر ـ وإن من دونه لا يملك ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله سواء كان ملكاً مكرما ، أو نبياً مرسلا أو ولياً عابدا .

ومن توحيده أن تكون الأعمال خالصة لوجهه لا يشوبها خداع ولا رياء ولا تدليس ولا نفاق .. وأن لا تدعوا معه غيره أو تقدم إليه القرابين أو تساق النذور .

فإذا ما أوفى الناس حق الله فى ذلك وأخلصوا دينهم لله وأسلموا له ، وعمروا القلوب بذكره وتوحيده ، وطهروها من دنس الإشراك .. فحق العباد عليه سبحانه أن لا يعذبهم

.. وكيف يعذب الله من كان على طاعته وعلى هدى رسوله ﷺ فاتخذه إماما وقدوة وهادياً وأسوة ؟ .. كيف يعذب الله ذات النفس الطاهرة النقية التى لا يرى فيها إلا نور الله ... هؤلاء أورثهم الله جنته ، وجعلها مأواهم ينعمون فيها بكل الخيرات .

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات] .

٢ ـ أجناس المحرمات .

ولقد بين الإسلام للناس أجناس المحرمات من الكفر والشرك والنفاق والفسوق والعصيان والإثم والعدوان ، والفحشاء والمنكر والبغى :

أ ـ الكفر : فيه التكذيب والإستكبار والإباء والإعراض والشك والنفاق قال سبحانه فى ثمود : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾ [الشمس] .

كذبت بنبيها صالحا بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغى فاستحقوا الهلاك بالصيحة الطاغية . قال سبحانه : ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ [الحاقة] .

وقال سبحانه فى لوط : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ [القمر] .

كذبت نبيها لوطاً بسبب ما كانوا فيه من الشذوذ الجنسى فأستحقوا الهلاك : ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [هود].

وقال سبحانه فى قوم عاد : ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾ [القمر] .

ـ كذبت عاد هودا بإصرارهم على عبادة الأصنام والأوثان فاستحقوا الهلاك : ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة] .

وقوم فرعون قال القرآن فيهم .

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤] .

فقد علموا فى أنفسهم أن آيات الله البينات حق من عند الله ولكنهم جحدوها وعاندوها وكابروها ظلماً من أنفسهم واستكبارا عن إتباع الحق فأغرقهم الله عن أخرهم وأهلكهم جميعا : ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل] .

واليهود جاء القرآن مصدقاً لما معهم من التوراة والإنجيل .

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة] .

وقال الله تعالى لرسوله ﷺ .

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام] .

وقد تناولنا فى مواريث الأمم الغابرة بيان تكذيب الأمم لرسلهم وما استحقوا به من نكال الله وعقابه ـ وهؤلاء الذين يكذبون بيوم الدين ، وإذا تليت عليهم آيات الله قالوا أساطير الأولين .. أساءوا الأدب مع آيات الله ، وتطاولوا بالتكذيب ـ فغمرتالمعصية قلوبهم ، وعمت الخطايا بصائرهم ، وانغمست قلوبهم بالخطايا والذنوب لغفلتهم عن الحق . قال تعالى :

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين] .

طبع الله على قلوبهم وأسماعهم فلا يبصرون سبيل الهدى والرشاد، فقد غطوا على الحق وستروه ، واستحوذ عليهم الشيطان فأطاعوه .

وفي الحديث الصحيح إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فى قلبه نكتة سوداء ، فإذا هو نزع «رجع عن ذنبه واستغفر الله وتاب صقل قلبه » فإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه .. وهو الران الذى ذكر الله فى كتابه [١] .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ [البقرة] .

والعذاب العظيم هو نهاية الكفر الذى ختم على قلوبهم وران بما كانوا يكسبون .

وأجمعت الأمة على أن الله عز وجل قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم كما قال سبحانه : ﴿ بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾ [النساء] .

وفى الحديث الشريف يقول رسول الله ﷺ : اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك [٢] .

ويقول عليه الصلاة والسلام : ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه [٣] . وإذا كان نبى الأمة ورسولها وهو مع عظيم قدره وجلال منصبه يسأل الله تثبيت القلوب على طاعة الله.. فنحن أولى بذلك إقتداءاً به ﷺ .

وفى الصحيح من حديث حذيفة عن رسول الله ﷺ قال : تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عودا . فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكت

---

(١) رواه الترمذي - م الطبرى ٢/ ٥٢٦ .

(٢) رواه مسلم من حديث عبدالله بن عمرو .

(٣) من حديث النواس بن سمعان ونحوه من حديث عائشة (إحياء علوم الدين ٣ / ٤٤) (الإمام القرطبي ١ / ٢٣٣ : ٢٣٥) .

فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفاه فلا تضره فتنة مادامت السماوات والأرض ، والأخر أسود مربادا كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكرا [1] والكفار فى عداد الموتى إذ ماتت قلوبهم وأجسامهم فلا يسمعون ولا يعقلون ولا يفقهون : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة].

وهل يستجيب الله إلا للذين فتح الله أسماعهم للحق واتبعوه .

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام] .

ب ـ الشرك الأكبر : والشرك فيه إتخاذ الأنداد من دون الله ، والمنحرفون عن عقيدة الإسلام هم الذين يتخذون من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله، ومنهم عباد الأصنام والأوثان والملائكة والأولياء والجن والأشجار والأحجار ، والشموس والأقمار ، فيعبد مع الله إلهاً أخر أو ألهة أخرى على أى صورة من الصور .. ومنهم أقوام لازالت تعبد البقر كما هو فى الهند التى تتوقف عندهم حركة المرور فى الشوارع إذا ما احتلت بقرة منتصف الطريق ، فلا يستطيعون أن يبعدوها عن الطريق أو يمسوها بسوء ، ويدخل فى ذلك الذين عبدوا فرعون وأمثاله من الملوك الذين أدعوا الألوهية وصدقهم الناس ، أو أن الناس جعلتهم ألهة ، أو الذين عبدوا المسيح عيسى بن مريم .

ومن الناس من جعل بينه وبين الله وسيطا ليكون له عند الله شفيعا ، وقد رسخ مفهوم الوساطة أو الشفاعة فى أذهان الكثير من عرب الجاهلية إلى درجة أنهم نسوا عبادة الخالق وابتهلوا إلى الملائكة وقدسوها وظلوا لها عاكفين .

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر:٣] .

رد الله عليهم بقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزُّمَر] .

ثم يقول سبحانه للملائكة : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [سبأ] .

ويقول سبحانه : ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ١ / ٤٦ .

والملائكة تجيب : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سبأ] .

كذلك فعلت قريش وأصناف العرب مع نبينا محمد ﷺ ، وكانوا يسألون معبوداتهم قضاء الحاجات وشفاء المرضى والنصر على الأعداء ويذبحون لهم وينذرون لهم .. فلما أنكر عليهم رسول الله ﷺ ذلك وأمرهم بإخلاص العبادة لله وحده استغربوا ذلك وأنكروه وقالوا .

﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ [ص] .

فلم يزل يدعوهم ﷺ وينذرهم من الشرك ويشرح لهم حقيقة ما يدعو إليه حتى هدى الله منهم من هدى ثم دخلوا فى دين الله أفواجا بعد دعوة متواصلة وجهاد طويل من حضرة النبي ﷺ وأصحابه .

ومن الناس من إعتبر الجن شركاء لله وهى عبادة كانت منتشرة فى الجاهلية ومنشؤها إعتقاد أن مصائر الناس إنما يتحكم فيها الجن .. وكان العرب تخاف الجن لهذا السبب وتتقرب إليها عن طريق الأوثان حتى تسلم من أذاها وتأمن بطشها وغضبها : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأنعام] .

كفار العرب لم يشركوا فى الربوبية وإنما أشركوا فى العبادة وكان شركهم فى حال الرخاء ، أما فى حال الشدة أخلصوا العبادة لله : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت] .

أما الربوبية فكانوا معترفين بها لله وحده : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس] .

وما أشبه المتأخرين بالأولين إذ عاد الأكثرون إلى الجاهلية بالغلو فى الأنبياء والأولياء ودعاؤهم والإستغاثة بهم .. ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس] .

وأن يتخذ من دون الله أنداداً تعبد مع الله فذلك الشرك الأكبر ، ومنه شرك العبادة والقصد والطاعة والمحبة ، ومنه دعاء الموتى والمقبورين من أصحاب الأضرحة والمقامات

والإستعانة بهم والإستغاثة بهم ، وطلب قضاء الحوائج منهم من شفاء المرضى وتفريج الكربات ، وإغاثة الملهوف ، والأمور التى لا يقدر عليها إلا الله .

جـ ـ الشرك الأصغر : وهو الرياء بالأعمال ، وهو الشرك الخفي .

قال رسول الله ﷺ «هو فيكم أخفي من دبيب النمل» (١) وقال عليه الصلاة والسلام «إن اليسير من الرياء شرك» (٢) .

وعنه ﷺ أنه قال من راءى راءى الله به ومن سمع سمع الله به (٣) .

وعن شداد بن أوس ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أتخوف على أمتي الشرك والشهوة الخفية» قلت يا رسول الله: أتشرك أمتك من بعدك؟ قال: نعم ـ أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً ـ ولكن يراءون بأعمالهم» (٤) .

وعنه ﷺ أنه قال : «إياكم والشرك الأصغر . قالوا يارسول الله : وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء ـ يقول الله تعالى يوم يجازى العباد بأعمالهم إذهبوا إلى الذين كنتم تراءونهم بأعمالكم فى الدنيا فأنظروا هل تجدون عندهم جزاء » (٥) .

والشرك إهانة لكرامة الإنسان الذى أستخلفه الله فى الأرض وكرمه وفضله على كثير من خلقه ـ ولا يتحقق التوحيد إلا بإخلاص العبودية لله وحده ، والكفر بالطواغيت ، وإتقاء الشرك والحذر منه .

.. إلا أن العقيدة تتعرض للأمراض والعلل فتنحرف عن فطرة التوحيد .. وأشد هذه الأمراض خطراً الشرك فى العقائد كالرياء فى العبادات والنوافل والسنن ، أو التوكل على غير الله ، والعمل لغير الله ، والإنابة والخضوع والذل لغير الله ، وتعليق الرجاء بغير الله .. وهو سبحانه وتعالى الذى أمرنا أن نتوجه إليه مباشرة وبغير وسيط .

---

(١) من رواية الترمذي الحكيم رحمه الله (نقولا من القرطبي٦/ ٤٢٤٢) ـ وفي رواية احمد والطبراني (اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل) نقلا من وصايا القرآن الكريم للدكتور محمد أنور البلتاجي ص ٨٥ .

(٢) أخرجه الحاكم عن معاذ ﷺ (نقلا من كتاب الحلال والحرام للشيخ عبدالقادر عطا ص٣٩) .

(٣) متفق عليه من حديث جندب بن عبدالله .

(٤) رواه أحمد (نقلا من ابن كثير ٣/ ١٠٩) – وفي (نوادر الأصول) من رواية الترمزي الحكيم ـ قلت: فما الشهوة الخفية ؟ قال عليه الصلاة والسلام(يصبح أحدهم صائما فتعرض له شهوات الدنيا فيفطر) - نقلا من القرطبي ٦/ ٤٢٤٠.

(٥) فى رواية أحمد عن ابن عباس - والبيهقى فى الشعب .

فقال سبحانه : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر] .

وقال سبحانه : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة] .

.. أو الخوف والخشية لغير الله ، وما جاء الإسلام إلا ليخلص الناس من عبودية الخلق للخلق والتحرر من الخوف وإخلاص الأمور كلها لله .

فقال سبحانه : ﴿وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة] .

وقال جل وعلا : ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران] .

أو بالنذر لغير الله والحلف بغيره سبحانه وتحليل ما حرم الله أو تحريم ما احله الله ، أو بالاعتقاد فيما سوى الله من جلب للنفع أو دفع للضرر ، أو ابتغاء الرزق من عند غير الله ، وحمد غيره على ما أعطى ، أو بالذم والسخط على قسمة الله ، أو بالتوبة للشيخ ، والتوبة لا تكون إلا لله .. وهى عبادة كالسجود والصيام ،، أو بطلب الحوائج من الموتى والتوجه إليهم فى الملمات .. والميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعا ، بل هو فى حاجة إلى من يدعو له ويترحم عليه ويستغفر له .

... كل هذه أمراض وعلل تتعرض لها عقيدة المسلم فى قلبه وقد وجب التخلص منها .. وقد تكون هذه الأمراض فى إتباع الهوى دون شرع الله،وإتباع الهوى يطمس نور الحق ، ويعمى بصيرة القلب ، ويصد عن إتباع الحق ويضل عن الصراط المستقيم : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية] .

د ـ النفاق : وفيه فساد البلاد والعباد ، وبلية الإسلام بالمنافقين شديدة لأنهم منسوبون إليه وهم فى الحقيقة أعداؤه .

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف] .

وإن الله مظهر دينه وناصر رسوله ﷺ .

وللمنافقين صفات كثيرة وسرائر أظهرها القرآن ، وهتك فيها أسرارهم وأستارهم ، وجلى الله لعباده أمورهم ليكونوا منها ومن أهلها على حذر .

ذكر الله تبارك وتعالى فى أول سورة البقرة أربع آيات فى صفات المؤمنين وأعقبها بذكر إثنين فى صفات الكافرين ـ أما المنافقون ذكر سبحانه وتعالى صفاتهم فى ثلاثة عشر آية لكثرتهم وعموم الإبتلاء بهم وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله [١].

ونزلت آياته فى منافقي أهل الكتاب منهم عبدالله بن أبي بن سلول ، ومعتب بن قشير ، والجد بن قيس ... ولم يكن بمكة نفاق ـ كان النفاق بالمدينة .. فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج وكانوا فى جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركى العرب .. وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم ـ وكانوا ثلاث قبائل« بنو النضير ـ وبنو قريظة حلفاء الأوس ـ وبنو قينقاع حلفاء الخزرج » فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلم من أسلم لم يكن آن ذلك نفاقا ـ إذ لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف .

«فلما كانت غزوة بدر ، وأظهر الله كلمته ، وأعز الإسلام وأهله أظهر عبدالله بن أبي بن سلول الدخول فى الإسلام ومعه أخرون ثم وجد النفاق» – وعبدالله بن أبى بن سلول كان رأساً فى المدينة وسيداً فى الجاهلية ، وكانوا قد عزموا أن يُملكوه فيهم فجاءهم الخبر وأسلموا واشتغلوا عنه ، والمنافق يخالف قوله فعله ، وسره علانيته ، ومدخله مخرجه ، ومشهده مغيبه ، يصدق بلسانه وينكر بقلبه ، ويخالف بعمله ـ يصبح على حال ويمسى على حال غيره ، ويتكفا تكفأ السفينة كلما هبت ريح هبت معها .

وقد وصف الله المنافقين بالكذب والخداع والمكر والسفه والاستهزاء والإفساد فى الأرض والجهل والضلال والتذبذب والسخرية بالمؤمنين [٢] .

وأوصافهم كثيره فى كتاب الله نذكر منها على سبيل المثال :

إنهم يتربصون الدوائر بالمؤمنين يركبون وراء الفائز . قال سبحانه : ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٤١] .

---

(١) النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر ـ ومنه الإعتقاد وهو الذى يخلد صاحبه فى النار - ومنه العمل وهو من أكبر الذنوب والأوزار .

(٢) صفوة التفاسير ٣٩ .

وإذا أصاب المؤمنين عافيةٌ ونصر أحدث الألفة بينهم فاجتمعت كلمتهم ساءهم ذلك.

قال سبحانه : ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران:١٢٠] .

وقد بين الله تعالى للمؤمنين كيد هؤلاء المنافقين فلا يضر المؤمنين كيدهم إذا صبروا على طاعة الله قال تعالى : ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران] .

لقد ثقلت عليهم النصوص فكرهوها وأعياهم حملها وألقوها عن أكتافهم بل ردوها ودفعوها بقوانين وضعوها لأنفسهم : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد] .

أحسب هؤلاء المنافقون الذين عقدت قلوبهم على الشك وضعف اليقين أن الله لن يخرج ما فى قلوبهم من الحقد والضغينة على المؤمنين ؟ لقد كشف الله سرائرهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما سبق أن ذكرنا وأطلعه ﷺ على خططهم ومؤامراتهم ونفاقهم .قال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد] .

من لا يعرف أمرهم يغتر بهم ، ويعتقد فى صحة أقوالهم . وما استمع إليهم الناس إلا لكثرة حلفانهم بالأيمان ـ وهى حقيقة أيمان كاذبة وآثمة .قال تعالى : ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ [المنافقون] .

إنهم إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا اؤتمنوا خانوا ـ نقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وأفسدوا فى الأرض .

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة] .

لقد أحسن الله صورهم وأشكالهم وجعل فى كلامهم طلاقة اللسان ولطافة البيان ، ولكنهم أساءوا استخدام هذه النعم فصاروا بها أشباحا وصورا لا فقه لهم ولا علم ولا عقل ـ بل هم من الضعف والهلع والجزع والجبن يعتقدون أن كل أمر هو فيهم ويخصهم.

قال تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون] .

وكثير من أوصافهم في كتاب الله حذرنا الله من خبثهم ودهائهم وخديعتهم ـ فقلوبهم عن الخيرات لاهية ، وأجسادهم إليها ساعية ـ يميلون إلى الباطل وقلوبهم لسماع الحق قاسية .

إذا عاهدوا لم يفوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإن قالوا لم ينصفوا فلا تثق بعهودهم ، ولا تطمئن إلى وعودهم ـ إنهم مستكبرون لا يألفون ولا يؤلفون [1] ، ويوم القيامة تبيض وجوه وتسود وجوه ، والمؤمنون والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم قدر أعمالهم ، وقد سلب الله نور المنافقين والمنافقات : ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد] .

يريدون أن يستضيئوا بنور المؤمنين ليروا الطريق حين يطفأ نور المنافقين ، ولكن الأمر قد انتهى ـ والمؤمنون في الجنة .. وعلى المنافقين أن يعلموا أنه لا سبيل لهم ، فقد خدعتهم الأماني وصدتهم نفوسهم وأضلتهم عن طريق الحق ـ ومساكنهم النار يوم القيامة .

ويتساءل أهل الجنة يوم القيامة عن المجرمين : ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدّثر] .

هـ ـ **الفسوق والعصيان** : وأعلم الله المؤمنين أن فيهم رسول الله ﷺ بين أظهرهم يُعلمه الله أنباءهم فيفتضح أمرهم ، وقد حبب الله إلى المؤمنين الإيمان وحسنه في قلوبهم وبغض إليهم الذنوب والعصيان وجميع المعاصي ، فقال سبحانه : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ [الحُجُرات] .

وعلى المؤمنين تعظيمه وتوقيره والأدب معه والإنقياد لأمره ﷺ فإنه أعلم بمصالحهم وأولى بالمؤمنين من أنفسهم ، ولو أطاعهم في جميع ما يختارونه لنالتهم الشدة والمشقة والحرج .

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٤ / ٣٦٨ .

ولما كان يوم أحد وأنكفأ المشركون قال رسول الله ﷺ : استووا حتى أثنى على ربى عز وجل ، فصاروا خلفه صفوفا فقال النبي ﷺ : اللهم لك الحمد كله ـ اللهم لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت ، ولا هادى لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطى لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت ، اللهم أبسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك . اللهم إنى أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول ، اللهم إنى أسألك النعيم يوم العيلة والأمن يوم الخوف ، اللهم إنى عائذ بك من شر ما أعطيتنا ومن شر ما منعتنا ـ اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان وأجعلنا من الراشدين ـ اللهم توفنا مسلمين ، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين ، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك وأجعل عليهم رجزك وعذابك [1].

و ـ الإثم والعدوان : وأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر وترك المنكرات وهو التقوى ـ ونهاهم عن التناصر على المأثم والمحارم والباطل وما حرمه الله من البغى والعدوان .

قال ابن جرير« الإثم ترك ما أمر الله بفعله ، والعدوان مجاوزة ما فرض الله عليكم فى أنفسكم وفى غيركم » ـ فالإثم هو فعل ما نهى الله عنه أو ترك ما أمر الله به .. وكل بر تقوى وكل تقوى بر ـ كذلك كل إثم هو عدوان على أمره ونهيه ـ وكل عدوان هو إثم يأثم صاحبه ـ وهو كل ذنب ومعصية ـ وهو ما حاك فى الصدر وخفت أن يطلع عليه الغير : ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة] .

وبعد حمية الجاهلية ، ونعرة العصبية التى وقف بها مشركوا مكة ليمنعوا رسول الله ﷺ من دخولها ، وكان عليه الصلاة والسلام يدخلها معتمرا قبل صلح الحديبية ـ أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وترك المنكرات ، وإعلاء مبدأ التسامح والتسامى ونصر المظلوم بمعاونته ، ونصر الظالم بمنعه عن ظلمه .

---

(١) رواه الإمام أحمد مرفوعاً - ورواه النسائي عن زياد بن أيوب مرفوعاً (ابن كثير تفسير القرآن العظيم ٤ / ٢١٠) .

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : أنصر أخاك ظالماً أو مظلوما ـ قيل يا رسول الله هذا نصرته مظلوما . فكيف أنصره إذا كان ظالما ؟ قال : تحجزه وتمنعه من الظلم فذاك نصره [١] .

وعن العباس « سهل بن سعد الساعدي ﷺ » ان رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ـ فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يُعطاها[٢]. فلماأصبح الناس غدواً على رسول الله ﷺ كلهم يرجوا أن يعطاها .

فقال : أين علي بن أبي طالب؟ فقيل يا رسول الله هو يشتكى عينيه. قال: فأرسلوا إليه. فأتى به ، فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه ودعا له ، فبرأ حتى كان لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية ـ فقال علي ﷺ: يا رسول الله ـ أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم أدعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب من حق الله تعالى فيه ـ فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحدا خير لك من حمر النعم [٣] .

قال ابن قيم الجوزيه رحمه الله فى مدارج السالكين :

الإثم ما كان محرم الجنس كالكذب والزنا وشرب الخمر ونحو ذلك ـ والعدوان تعدى ما أبيح منه إلى القدر المحرم والزيادة ـ كالإعتداء فى أخذ الحق ممن هو عليه ـ إما بان يتعدى على ماله أو بدنه او عرضه ـ والقول على الله بلا علم أصل المفاسد والمحرمات وهو نوعان: محرم لذاته ومحرم فى وقت دون وقت .

وعلى سبيل المثال نأخذ منه ما قيل فى المحرم لذاته . حيث قال رحمه الله ـ قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ ثم إنتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال

---

(١) انفرد به البخاري - ابن كثير ٢/ ٦ .

(٢) نقلا من رياض الصالحين (الحديث رقم ١٧٥ ص ٧٤) باب الدلالة على خير ـ متفق عليه، والحديث رقم ٩٤ ص ٤٥ باب المبادرة إلى الخيرات - رواه مسلم ـ ويوجد بنفس النص بالبداية ٢/ ٦١٩ برواية البخاري.

(٣) متفق عليه ورواه سهل بن سعد - وقوله يدوكون (أى يخوضون ويتحدثون) وقول رسلك بكسر الراء (أفصح) ـ وفى رواية لمسلم قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دمائهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله (رواه مسلم) .

سبحانه : ﴿وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ ثم إنتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال سبحانه : ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ ثم إنتقل منه إلى ما هو أعظم منه .

فقال سبحانه : ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثما ، فإنه يتضمن الكذب على الله وهو أصل الشرك والكفر ، وعليه أسست البدع والضلالات ـ فكل بدعة مضلة فى الدين أساسها القول على الله بغير علم .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل] .

والآية الواحدة موضوع الحديث والتى جمعت المفاسد والمحرمات فى قول الله تبارك وتعالى : ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف] .

وأصل الشرك والكفر هو القول على الله بلا علم ـ فإن المشرك يزعم أن من اتخذه معبودا من دون الله يقربه إلى الله ، ويشفع له عنده ، ويقضى حاجته بواسطته كما تكون الوسائط عند الملوك ـ والقول على الله بلا علم يتضمن الإبتداع فى دين الله وهو أعم من الشرك ، والشرك فرد من أفراده ـ ولهذا كان الكذب على رسول الله ﷺ موجباً لدخول النار .

٣ـ كبائر الإثم والفواحش .

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم] .

والله هو الغنى عمن سواه ، والحاكم فى خلقه بالعدل ، وهو القادر على الجزاء والمالك لأسبابه ـ يجازى كلاً بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر وهؤلاء الذين أحسنوا ويجزيهم الله بالحسنى حددهم الله تبارك وتعالى بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢] .

... الكبيرة هي كل معصية فيها حد فى الدنيا أو وعيد فى الأخرة ، وكبائر الإثم هى كبائر المعاصي .. والفواحش كل ما عظم من الذنب وفحش ... وما دون هذين الحدين فهى الصغائر ـ وكل حرم الله ورسوله .

قال عبدالله بن مسعود ﷺ : الكبائر فى ثلاثين آية من فاتحة النساء إلي قول الحق تبارك وتعالى : ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء] .

«وقال الحسين بن الفضيل : الكبائر ما سماه الله فى القرآن الكريم كبيراً أو عظيما » .

وقال بن عباس رضي الله عنهما : الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب ...

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء] .

وما أكثر تلك الإنذارات فى كتاب الله : ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء] .

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب] .

وما أكثر ذلك فى كتاب الله الكريم .

وقال بن قيم الجوزيه رحمه الله : الكبائر ذنوب أهل البدع ، والسيئات ذنوب أهل السنة ـ البدعة من الكبائر ، وإنها أكبر من كبائر أهل السنة ، وكبائر أهل السنة صغائر بالنسبة للبدع . لذلك كانت البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ـ لأن المعصية يتاب منها ، وأما البدعة فلا يتاب منها ـ ولعل ذلك يكون السبب فى قول النبى صلى الله عليه وسلم كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار .

والذنوب إما كبائر وإما صغائر ، وقد إختلف العلماء رحمهم الله فيهما ،، ولعل الشارع قصد الإبهام ليكون الناس على وجل من كل الذنوب.

فأما الكبائر قيل إنها سبع كبائر – بدليل ما رواه أبوهريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : اجتنبوا السبع الموبقات .. قالوا : وما هن يارسول الله ؟ قال علية الصلاة السلام : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات [1] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبوداود والنسائي .

«وفى حديث رواه الحاكم فى مستدركه أن رسول الله ﷺ أضاف كبيرتين هما : عقوق الوالدين المسلمين ، واستحلال البيت الحرام قبلتكم أحياءاً وأمواتا .. فأصبحت الكبائر تسعة » .

«وفى حديث رواه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ أضاف للكبائر اليمين الغموس (وهى التى تغمس صاحبها فى النار) ... وأصبحت الكبائر عشرة » .

وقد جمع أبوطالب المكى الكبائر من جملة الأخبار فقال : إنها سبعة عشر كبيرة :

« أربعة منها فى القلب ـ وأربعة فى اللسان ـ وثلاثة فى البطن ـ واثنتان فى الفرج ـ اثنتان فى اليدين ـ وواحدة فى الرجل ـ وواحدة فى جميع البدن» .

فأما الأربعة التي هى فى القلب « الشرك بالله ، والإصرار على معصية الله، والقنوط من رحمة الله ، والأمن من مكر الله » .

وأما الأربعة التى هى فى اللسان « شهادة الزور ، وقذف المحصنات ، واليمين الغموس ، والسحر » .

وأما الثلاثة التي فى البطن هي «شرب الخمر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا » .

وأما الإثنتان اللتان فى الفرج هما « الزنا واللواطه » .

وأما الإثنتان اللتان فى اليدين هما « السرقة ، والقتل » .

وأما الواحدة التي فى الرجلين هي « الفرار من الزحف »

وأما الوحدة التى هي فى جميع البدن «عقوق الوالدين» .

وهذا يمكن أن يزاد عليه ، فإن ضرب اليتيم وتعذيبه أكبر من أكل ماله ، والله أعلم .

وقد سئل بن عباس رضي الله عنهما عن حديث رسول الله ﷺ « اجتنبوا السبع الموبقات » فقال : هى إلى السبعين أقرب ،،، وصدق والله بن عباس ـ فقد حصر العلماء الكبائر فبلغت السبعين وزادت ، جمعها أبوعبدالله الذهبى الدمشقى فى كتابه الكبائر «ومنه ما تقدم» ـ هذا ما كان من أمر التعريف بكبائر الإثم والفواحش فى صورة مختصرة.

والذنوب إعراض عن الله ، والعلم بضررها إنما أريد ليكون باعثاً على تركها والندم على فعلها ، والعزم على عدم العودة إليها بالتوبة إلى الله منها ، ولا يتم ذلك إلا بعد العلم بهذه الذنوب ومعرفتها .

٤ ـ منابع الذنوب .

قال أبوحامد الغزالى فى الإحياء فى باب أقسام الذنوب : للإنسان أخلاق وأوصاف كثيرة لكن مسارات الذنوب تنحصر فى أربعة صفات .

« صفات ربوبية : ومنها يحدث الكبر والفخر ، وحب المدح والثناء ، والعز وطلب الإستعلاء ، ونحو ذلك ـ وهذه ذنوب مهلكات ، وبعض الناس يغفل عنها ، فلا يعدها ذنوبا » .

« صفات شيطانية : ومنها يتشعب الحسد والبغي والحيل والخداع والمكر والغش والنفاق والأمر بالفساد ونحو ذلك» .

« صفات بهيمية : ومنها يتشعب الشر والحرص على قضاء شهوتى البطن والفرج ، فيتشعب من ذلك الزنا واللواطة والسرقة ، وأخذ الحطام لأجل الشهوات » .

« صفات سبعيه : وهى الرابعة ومنها يتشعب الغضب والحقد ، والتهجم على الناس بالقتل والضرب وأخذ الأموال » .

وتلك الصفات الأربعة داءات تصيب الإنسان بالعجز والمرض وفساد القلوب والجوارح ـ وقد حرصت السنة النبوية أن تضع لها العلاج والدواء لحماية الإنسان من شرها وبلائها بالوقاية منها قبل وقوعها ...

فالذين تغلب عليهم صفات الكبر والفخر وحب المدح والثناء قال فيهم رسول الله ﷺ : ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله [١] .

وقال عليه الصلاة والسلام « من تعظم فى نفسه واختال فى مشيته لقى الله وهو عليه غضبان » [٢] .

وقال عليه الصلاة والسلام « طوبي لمن تواضع فى غير مسكنه وأنفق مالاً جمعه فى غير معصية ورحم أهل الذل والمسكنة وخالط أهل الفقه والحكمة» [٣] .

---

(١) حديث مسلم عن أبي هريرة ﷺ .

(٢) رواه أحمد والطبراني والحاكم وصححه ، والبيهقي فى الشعب من حديث بن عمر رضي الله عنما .

(٣) الحديث البغوي وابن قانع والطبراني - من حديث ركب المصري ، والبزاز من حديث أنس - وهو حديث طويل بعضه فى العلم وبعضه فى آفات اللسان .

وقال عليه الصلاة والسلام : الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى[١] .

وقال عليه الصلاة والسلام : قال الله تعالى « الكبرياء ردائى ، والعظمة إزاري فمن نازعني فيهما قسمته « وفى رواية أدخلته النار ولا أبالي »[٢].

وقال عليه الصلاة والسلام : من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله في النار على وجهه[٣] .

وقال عليه الصلاة والسلام تحاجت الجنة والنار فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم ـ فقال الله للجنة إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادى وقال للنار إنما أنت عذابى أعذب بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها[٤] .

وعن أبي هريرة ﷺقال : قال النبي ﷺ : يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة فى صور الذر تطؤهم الناس لهوانهم على الله تعالى[٥].

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتى ولم يتعاظم على خلقى وألزم قلبه خوفى وقطع نهاره بذكرى وكف نفسه عن الشهوات من أجلى ، وقال عليه الصلاة والسلام : إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد[٦].

والذين تغلب عليهم صفات الحسد والبغي والخداع والغش والنفاق يقول لهم رسول الله ﷺ « إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو العشب »[٧] .

---

(١) ابن أبي الدنيا فى كتاب اليقين مرسلا وأسند الحاكم أوله من رواية الحسن عن سمره وقال صحيح الإسناد .

(٢) رواه مسلم وأبوداود وقال أبوداود قذفته فى النار ورواه الحاكم فى المستدرج دون ذكر العظمة وقال صحيح على شرط مسلم وحديث مسلم وأبوداود وابن ماجه (الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحداً منهما ألقيته فى جهنم) (واللفظ لابن ماجه) .

(٣) أحمد والبيهقي فى شعب الإيمان بإسناد صحيح .

(٤) متفق عليه من حديث أبو هريرة ﷺ (إحياء علوم الدين ٣/ ٣٢٨) .

(٥) الحديث البزاز مختصراً دون قوله الجبارون وإسناد حسن (إحياء علوم الدين ٣/ ٣٢٩) .

(٦) الوحى لموسى (من إحياء علوم الدين للغزالى ٣/ ٣٣١) - والحديث النبوي أن تواضعوا رواه مسلم .

(٧) رواه أبوداود ـ من حديث أبو هريرة - وابن ماجه من حديث أنس .

وقال عليه الصلاة والسلام : أخوف ما أخاف على أمتى أن يكثر فيهم المال فيتحاسدون ويقتتلون [١] .

وفى حديث أخر لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة [٢].

وقال عليه الصلاة والسلام : دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء ، والبغضه هى الحالقة ـ لا أقول حالقة الشعر ولكن حالقة الدين ـ والذى نفس محمد بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا ألا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم : أفشوا السلام بينكم [٣] .

وقال عليه الصلاة السلام : من غشنا فليس منا [٤] .

وفى شهوة البطن التى منها كل الداءات قال رسول الله ﷺ : ما ملأ بن أدم وعاء شراً من بطنه – حسب ابن أدم لقيمات تقمن صلبه ـ وإن كان لابد فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه [٥].

والبطنة كما قال عمر بن الخطاب ﷺ مكسلة عن الصلاة ، ومفسدة للجسم ، ومؤدية إلى السقم ـ قال : وعليكم بالقصد فى قوتكم ، فهو أبعد من الضرف ، وأصح للبدن ، وأقوى على العبادة وإن العبد لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه [٦].

ثم يعالج رسول الله ﷺ كل الشر فى كلمة واحدة فقد روى أبو هريرة ﷺ أن رجلاً قال:يا رسول الله مرنى بعمل وأقلل.قال: لا تغضب ـ ثم أعاد عليه فقال : لا تغضب [٧].

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب (متفق عليه) .

---

(١) ابن أبي الدنيا فى كتاب ذم الحسد من حديث أبي عامر الأشعرى .

(٢) رواه أحمد والبزاز من حديث عمر .

(٣) رواه الترمذي من حديث مولى الزبير عن الزبير (الأحياء ٣/ ١٨٣) .

(٤) من حديث رواه مسلم .

(٥) من حديث المقدام وأخرجه الترمذي وقال حديث حسن .

(٦) الشيخ حمزة فى المواهب .

(٧) رواه البخاري .

وعن بن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ما تعدون الصرعة فيكم ؟ قلنا : الذى لا تصرعه الرجال ـ قال : ليس كذلك ـ ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب [١] .

وعن بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ما جرع عبد جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها إبتغاء وجه الله [٢] .

وأن أول الصفات التى تغلب على الإنسان هى الصفات البهيمية ومنها الشره والحرص الشديد على فضول المال والجاه وعلى قضاء شهوتى البطن والفرج .. ومتى كان العبد حريصاً على شيء أعماه حرصه وأصمه وغطى نور بصيرته ، فوجد الشيطان فرصته ليحسن له الحرص ، ويزين له الشهوات ، ويزيده فى مواصلة المعصية .

وشهوة البطن من أعظم المهلكات ـ بها أخرج أدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار الذل والإفتقار ، إذ نهيا عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليها من ورق الجنة .

والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ، ومنبع الداء والأفات .. ومن شهوة البطن تحدث شهوة الفرج .. وشهوة الفرج ما سلطت على الأدمى إلا لفائدتين :

إحداهما : بقاء النسل ، والثانية : ليدرك الإنسان لذة يقيس عليها لذات الأخرة .. وإذا لم ترد هذه الشهوة إلى الإعتدال جلبت الكثير من الأفات .. فقد ينتهى الإفراط فيها بصرف همة الرجل إلى كثرة التمتع بالنساء فيشغله ذلك عن ذكر الأخرة ، وربما آل ذلك إلى الفاحشة ، وإلى العشق الحرام .. وهو أقبح الشهوات ـ وربما آل إلى الوقوع فى المعصية بالزنا واللواطة والسرقة ، وأخذ الحطام لأجل الشهوات .. فيخرج الإنسان عن عقله ودينه، فإذا ما حدث ذلك سيطر عليه الشيطان فتملكه الغضب ... وهو غليان الدم فى القلب لطلب الإنتقام ، وتملكه الحقد وهو كظم الإنسان لعجزه عن التشفى ، وتملكه العنف بالتعدى على حياة الناس بالقتل والضرب وأخذ الأموال ... وتلك هى الصفات السبعية ـ فإذا ما اجتمع ذلك كله فى الإنسان أصبح متيسراً للصفات الشيطانية أن تتغلب على العقل والقلب فيتشبع الإنسان بالحسد والبغى والمكر والغش والغل والخداع والفساد والإبتداع ـ فيتعدى على الناس ظلما ويتجاوز فى أرض الله ويكره نعمة الله على الناس بل ويتمنى زوالها عنهم ، ويعدم الرضا بقسمة الله تبارك وتعالى لعباده .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه بن ماجه .

ثم تأتي المرحلة الرابعة من منابع الذنوب لتغلب الصفات الربوبية على الإنسان بالكبر والإستعلاء على خلق الله ، وتعظيم المرء لنفسه داخل نفسه ، وشعوره بالتعالى على الخلق ـ فتكمن الذنوب فى الإنسان بعد إهتدائه لأمر الشيطان وترك طاعة الرحمن.

تلك أمهات الذنوب ومنابعها التى تنفجر بعد ذلك إلى الجوارح وإلى جميع البدن فتتولد الكبائر التى حذرنا الإسلام من خطورتها وأمرنا بإجتنابها .

واللمم: هى صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال ـ سئل عنها أبو هريرة ﷺ فقال: القبلة، والغمزة والنظرة والمباشرة ـ فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل وهو الزنا .

وقال ﷺ : هو الرجل يلم بالذنب ثم يدعه ويتوب .. اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود، واللمة من السرقة ثم يتوب ولا يعود ، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود .. فذلك الإلمام .

والذنوب تنقسم إلى ما يتعلق بحقوق الأدميين وإلى ما بين العبد وربه ـ فما يتعلق بحقوق العباد فالأمر فيه أغلظ ، وأما الذى بين العبد وربه فالعفو فيه أرجى وأكرم إلا أن يكون شركاً والعياذ بالله فذلك الذى لا يغفره الله أبدا .

لا غفران لذنب الشرك إذا مات صاحبه عليه بينما باب المغفرة مفتوح لكل ذنب سواه عندما يشاء الله ..

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [النساء] .

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أن الشفاعة كلها لله،وأنه لاَ يشفع عنده إلا لمن أذن الله أن يشفع فيه ورضي قوله وعمله ـ وهم أهل التوحيد الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء.

روى البخاري ـ عن أبي هريرة ﷺ قال : قيل يا رسول الله : من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : لقد ظننت ياأباهريرة أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث ... أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة .. من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه [1] ، وبذلك جعل رسول الله ﷺ الأسباب التى تنال بها شفاعته ﷺ تجريد التوحيد دون إتخاذ أولياء شفعاء ـ فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع .

---

(١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ١ / ٣٣٠ .

قال بن قيم الجوزيه رحمه الله : وهناك ثلاثة أصول تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها ـ لا شفاعة إلا بإذن الله ، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله عمله ، ولا يرضى من القول والعمل إلا توحيده وإتباع رسله ـ وقد قطع الله تعالى كل الأسباب التى تعلق بها لمشركون جميعا قطعاً يأمل من تأمله وعرفه أن من إتخذ من دون الله ولياً أو شفيعاً فهو : ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت] .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ـ ثلاثا ـ قالوا : بلى يارسول الله ـ قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين ـ وكان متكئاً فجلس فقال : ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور ـ فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت [١] .

وتلك كانت فكرة وتذكرة سريعة بمواطن الشرك والعصيان وأجناس المحرمات مواريث الأمم السابقة ولغابرة ، وأعظم خطورة فيها النفاق والمنافقين ، وما يهلك الناس من إرتكاب الكبائر والمحرمات ـ وما يتعلق بها من الذنوب .. ويقول العلماء إن هناك ما هو أعظم عند الله من سائر الكبائر كالحلف بغير الله ـ ذلك لأن فى القسم تعظيماً للمقسم به والتعظيم لا يكون إلا لله ، والتقديس لا يكون إلا لله .. أو يحلف بالله كذبا .

عن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ : من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقتطع بها مال إمرئ مسلم لقى الله تعالى وهو عليه غضبان [٢] .

« عن أبي أمامة قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقال : من اقتطع حق إمرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة ـ فقال رجل: وإن كان يسيراً يا رسول الله ؟ قال : وإن كان قضيباً من أراك » [٣] .

«وعن أبي ذر ـ عن النبي ﷺ قال : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ـ فقرأ بها رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، فقال أبوذر : خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟ .. قال : المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب» [٤] .

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبوداود والترمذي وابن ماجه مختصراً .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه ورواه النسائي وابن ماجه ومالك - كلهم من حديث أبي أمامه إياس بن ثعلبه الحارثي - وفى رواية وإن كان عوداً من أراق - والأراق هو الشجر الذي يأخذ منه السواك .

(٤) مسلم ، أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه .

«وقال رسول الله ﷺ : الكبائر : الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس» [١].

«ومن ثم فكل شيء يعصي الله به فهو كبيرة ، فمن عمل شيئاً منها فليستغفر الله فإن الله سبحانه وتعالى لا يخلد فى النار إلا من كان راجعاً عن الإسلام ، أو جاحداً لفريضة ، ومكذباً بالقدر ».

جاء فى الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قال : قلت يارسول الله: أى الذنب أعظم ؟ وفى رواية أى الذنب أكبر ـ قال عليه الصلاة والسلام : أن تجعل لله نداً وهو خلقك .. قلت ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك .. قلت ثم أى ؟ قال أن تزانى حليلة جارك ـ ثم قرأ ﷺ ما نزل عليه من قول الحق تبارك وتعالى[٢] : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان] .

٥ ـ التقوى فى آية البر وإنكار الإثم والعدوان :

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة] .

فندب الله تعالى إلى التعاون بالبر وقرنه بالتقوى له لأن فى التقوى رضا الله تعالى ، وفى البر رضا الناس .. ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته .. والتقوى هى مقام التكليف عند الله .. وهى أن يأخذ العبد من كل ما أعطاه الله وقاية له من كل ما يكره ويخاف من الخيبة والخسران فى الأولى والآخرة ، ويتحرى بكل يقظة وهدى وبصيرة أن يجعل منه سبباً لفلاحه ،، وأن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه وتحميه ..

وقاية بطاعة الله بينه وبين ما يخشاه من غضب الله وسخطه وعقابه .. والتقوى شعور فى القلب وإحساس فى الضمير تجعل العبد دائماً فى طاعة الله ، على نور من الله يخاف

---

(١) أخرجه البخاري ورواه الترمذي والنسائي من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص (واليمين الغموس التى يتعمد الكذب فيها ، وسميت غموسا لأنها تغمس صاحبها فى الإثم وقيل فى النار - المنذرى تغمس الحالف بها بالإثم فى الدنيا وفى النار فى الآخرة .

(٢) رواه البخاري ومسلم بدون الآية - ورواه الترمذي والنسائي فى رواية لهما مع ذكر الآية - كلهم عن أبي مسعود الأنصاري - قاله المنذري فى الترغيب والترهيب .

عذاب الله ويرجو رحمته .. وهي حالة في الوجدان تتوحد بها المشاعر الباطنة والتصرفات الظاهرة ، وتصل الإنسان بربه في سره وجهره ـ فيتجمل باطنه بنور الله ، وظاهره بالعبودية لله ، ويتخلق في كل سلوكياته بأخلاق سيدنا رسول الله ﷺ .

وهي في القرآن الكريم على ثلاثة وجوه ..

الأول بمعنى الخشية والهيبة لقول الله تعالى : ﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ [البقرة] .

وقوله جل وعلى : ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة] .

والثاني بمعنى الطاعة والعبادة لقول الله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران] .

والثالث بمعنى تنزيه القلب عن الذنوب لقوله تعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور] .

... وقد أوجزها الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قولته المشهورة : هي الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والإستعداد ليوم الرحيل .. وبدون التقوى تتحول مجتمعات المسلمين إلى غابة لا يراعى فيها مسلم حق أخيه وحرمته في ماله وعرضه ودمه – والكل يسعى إلى افتراس الآخرين

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦] .

قال المفسرون : هذا في المأمورات ، أما في المنهيات فتجتنب كلها لقوله صلى الله عليه وسلم : إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فأجتنبوه [١] : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق] .

وبتقوى الله وطاعته وإجتناب معاصيه وعد الله بمغفرته عن اللمم وصغائر الذنوب إذا إجتنبت الكبائر .

وبالتقوى يرسخ الإيمان في القلوب فتخشع لجلال الله ، وتخضع لعظمة الله ـ ومعها تتوجه الجوارح إلى الطاعة والعبادة .. وبهذا النور الذي يفرق بين الحق والباطل تؤدي العقول وظيفتها على فطرة الله ـ فلا شرك ولا معصية ، ولا إثم ولا عدوان ، ولا فسوق

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

ولا عصيان .. كل المشاعر تتوحد على البر والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأمر بالعدل والإحسان وذي القربى ـ لا فحشاء ولا منكر ولا بغي ـ والنفوس الشريفة لا ترضى الإهانة ـ فإذا أبصر الناس الهدى واجتنبوا أجناس المحرمات وكبائر الذنوب والآثام ومواطن الشرك والطغيان والفسوق والعصيان ومنابع الإثم والعدوان ـ وجعلوا بينهم وبين ما يخافون ويحذرون وقاية تقيهم وتحميهم بطاعة الله وإتباع منهج رسول الله فقد صفت قلوبهم على طاعة الله وارتفعت نفوسهم عن كل عيب فصلحت عقائدهم واستقام أمرهم وانشرحت صدورهم لدين الله .

٦ ـ شقاء الإنسان بفساد الإيمان وسوء الخاتمة في طاعة الشيطان :

وسوء خاتمة الإنسان على رتبتين :

إما أن يغلب على القلب والعياذ بالله شك وجحود عند سكرات الموت بفقدانه هدى رسول الله ﷺ والهجرة بالتوحيد إلى الله ، وإصراره على الإستعانة بالخلق من دون الله الخالق ـ ذلك الذى لم يتحرر من مواطن الشرك والعصيان ومنابع الإثم والعدوان التى سبق الحديث عنها ، لم يتجنب الهلاك بأسباب الشرك والأهواء وأجناس المحرمات من الكفر والنفاق والرياء والفواحش والآثام ، وغرق فى ظلمات البدع والضلالات ، ظلمات الرياء والعجب والكبر والفخر والقنوط واليأس من روح الله .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ [محمد].

« وإما أن يسخط الأقدار ، أو يجور فى وصية ، أو يموت مصراً على ذنب من الذنوب .. والسخط باب الهم فى الدنيا ، والغم والحزن في القلب وسوء الحال ... وإنما يظفر الشيطان بالإنسان غالباً عندما يكون ساخطاً على قدر الله وتلك جميعها من دعائم الكفر والشرك والعياذ بالله ، وفيها تعمى القلوب والأبصار» .

« أو يكون شقاء الإنسان فى هذه الدنيا بفساد إيمانه عندما تستولى الدنيا على القلوب فيلتمس الناس فى حياتهم رضا الناس دون تحكيم الكتاب والسنة معتقدين عدم الاكتفاء بهما ـ فيعدلون بذلك إلى الآراء والقياس والاستحسان وآراء الشيوخ .. فتقوم البدعة بين الناس مكان السنة ، والنفس مكان العقل ، والهدى مكان الرشد ، والرياء مكان الإخلاص » .

أو يكون شقاء الإنسان في أخلاقه وذلك له وجوه متعددة منها :

١ ـ أن تفسد أخلاق الإنسان مع ربه فيتوجه بالعبادة للأموال والجاه والسلطان والأفراد ، والرياء في المعاملات والعبادات ، ويتوجه بالدعاء والتوسل والنذر لغير الله ، ويعتدى على الله بالتحليل لما حرمه أو بتحريم ما أحله ـ فذلك طغيان ومنازعة لله في سلطانه ، وقد علم علم اليقين أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شيئ قدير .

٢ ـ أو تفسد أخلاق الإنسان مع نفسه بحرمانها من المال الحلال ، وقد دنت النفس بالحرص على جمعه من غير حله ، واشتد تعلق الناس به إلى درجة أن تعلق نجاحهم في كل شأن من الشئون بأذيال المادة ، فاشتعلت نيران العداوة والبغضاء بين الناس ، بل وبين الأشقاء الذين تربوا في بيت واحد أمهم واحدة وأبوهم واحد ، فأستشرت الوحشية ، واشتدت المتاعب وتضاعفت الهموم ، وقد علم الناس أن الأموال عارية عند أربابها ، وأن الله سبحانه وتعالى مالك السموات والأرض وما بينهما ـ فإذا مات الخلق تركوا وراءهم كل شيئ للحى الباقى الذى لا يموت ـ وله ميراث كل شيئ، وترد العارية إلى صاحبها ، ولا يبقى لهم إلا ما أنفقوه إبتغاء مرضاة الله مدخراً لهم عند الله .. وإلا فهو الطوق في أعناقهم يوم القيامة بما بخلوا فيما أعطاهم الله من الأموال .

قال الإمام بن القيم رحمه الله : وما يأخذ العبد ما حرم عليه إلا من جهتين : أحدهما سوء ظنه بربه بأنه لو أطاعه وآثره لم يعطه خيراً منه في الحلال – والثانية أن يكون على علم من الله بأنه سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب وعنده كل العوض والخير إلا أن شهوته غلبت عليه من ضعف علمه ، وغلب عليه هواه من ضعف عقله وبصيرته .

٣ ـ أو تفسد أخلاق الإنسان مع الناس بأن يتعامل معهم بالظلم والبغى ، أو يكون كاذباً معهم محتالا ، أو مرائيا مختالا ، أو نماماً مغتابا ، أو لعاناً سبابا ، أو غاشاً خائناً ، أو ناقضاً للعهود أو مخلفاً للوعود ، أو متكبراً جبارا ، أو مماطلاً في حقوق الناس فيعتدى بذلك على أموالهم وأعراضهم ودمائهم ـ وقد حرم ذلك على الناس .

وفي كتابه الداء والدواء ـ والفوائد ذكر بن القيم رحمه الله أضراراً كثيرة للذنوب منها : حرمان العلم ، والوحشة في القلب ، وتعسير الأمور ، ووهن البدن ، وحرمان الطاعة ، ومحق البركة ، وقلة التوفيق ، وضيق الصدر ، وتولد المسيئات ، واعتياد الذنوب ، وهوان المذنب على الله وهوانه على الناس ، والطبع على القلب ، والدخول تحت اللعنة ، ومنع إجابة الدعاء ، وذهاب الحياء ، وزوال النعم ، والوقوع في أسر الشيطان ـ وسوء الخاتمة وعذاب الأخرة ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله .

... وليس في الوجود أدمي واحد إلا والشيطان بالشر على أبواب قلبه يزين له الدنيا ويغويه في المعصية فيقع فيها وتزداد عليه الذنوب ، لذلك حذر الحق سبحانه وتعالى بني أدم من عداوة إبليس القديمة لأبي البشر أدم إذ تسبب في إخراجه من دار النعيم إلى دار العناء ـ حذرنا سبحانه وتعالى من فتنته فقال : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف] .

لقد علم إبليس اللعين أن الإنسان على إستعداد للخير والهداية إستعداده للشر والغواية ـ فأفسد على الناس هدايتهم وعقيدتهم ، وتوعدهم بالغواية والشر والفساد ، وهذا عهد أخذه على نفسه ، وأقسم عليه بعزة الله ليغوين جميع الأدميين ولا يستثنى منهم إلا عباد الله المخلصين ، وهم المؤمنون الذين لا سلطان له عليهم ـ فهم مؤيدون بحفظ الله وحراسته ، ومعصومون من الشيطان الرجيم مهما وسوس إليهم بالشر والمعصية : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحجر] .

فلا سلطان له على المؤمن إنما سلطانه على ضعيف الإيمان ـ قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [النحل] .

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد مرفوعاً قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الشيطان قعد لابن أدم بطرقه فقعد له بطريق الإسلام فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك قال : فعصاه وأسلم ـ قال : وقعد له في طريق الهجرة فقال : أتهاجر وتدع أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول ـ فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال فقال : تقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال ـ قال : فعصاه وجاهد ـ وقال رسول الله ﷺ : فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة أو وقصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة [1] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٢٠٤ .

وفى قوله تعالى عن إبليس : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ [الأعراف:١٧] .

لم يقل من فوقهم لأن الرحمة تنزل من فوقهم ، ولم يقل من تحتهم فذلك موضع السجود لا يقربه الشيطان ... ومشيئة الله فى ذلك لا ليذاع الشر والفساد فى خلق الله ، وإنما ليبتلى إيمان الناس فى الإبتعاد عنه .. ورسالة الشر فى الوجود هى إستبقاء لعملية الخير ، وإنما بعظم الذنب فى قلب المؤمن علمه بجلال الله تعالى وقدرته ... وعظمة الطاعة لله تبارك وتعالى تتجلى بأن يغريك الشيطان على المعصية فتعصيه أنت خوفاً من الله : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الأعراف] .

تاسعاً : حدود الله وتشريعه حماية ووقاية .

ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أن وضع حدوداً تصون الشريعة من التلاعب بها وإنتهاك حرمتها ـ ذلك لتطهير النفوس من أثار الذنوب التى ترتكب ، وتطهير المجتمع من الفساد والفوضى والاضطراب والتحلل الخلقى ، وتوفر للناس الأمن والإطمئنان والسكينة والأمان ،، وعدل الله فى هذه التشريعات أن قضى سبحانه وتعالى بالجزاء الرادع لكل من تسول له نفسه بالإعتداء على دماء الناس وأعراضهم وأموالهم ، أو المساس بكرامتهم وأمنهم .

فوضع كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم الحدود التى تحمى الناس من العدوان على الشرف والكرامة وتقضى على الشرور والمفاسد بهدف الزجر والردع ، وتحافظ على أركان البيوت من الهدم ، والمجتمع من الضياع ، وتحمى النفس والحياة والنظام والحقوق .. وفى طليعة هذه الحقوق حماية النفس والمال والعرض ـ وقد خطب رسول الله ﷺ فى حجة الوداع فقال عليه الصلاة والسلام : أيها الناس دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ألا هل بلغت اللهم فأشهد،كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه [1] ـ حتى يأمن الناس على حرياتهم وتصان شريعة الله فيهم من أيدى العابثين والخارجين عليها .

---

(١) رواه البخاري عن ابن عمر وفى الفتح عن أبي بكره ١ / ٣٩٩ - وروى مسلم بعضه .

يقول الشيخ السيد سابق في فقه السنة (٢/ ٤٨٥) :

حرم الإسلام «السرقة والغصب والإختلاس والخيانة والربا والغش والتلاعب بالكيل والوزن والرشوة » واعتبر كل مال أخذ بغير سبب مشروع أكلاً للمال بالباطل، وشدد في السرقة دون غيرها من جرائم الاعتداء على الأموال ـ فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المائدة] .

ويقول الشيخ الصابوني في آيات الأحكام (١/ ٥٤٧) :

ذكر الله تعالى عقاب كل من السارق والسارقة، وأمر بقطع أيمانهما عند توفر الشروط- حتى يرتدع أهل البغي والفساد، ويأمن الناس على أموالهم وأرواحهم.

« فأحترم التشريع المال من حيث أنه عصب الحياة ، وأحترم ملكية الأفراد له ، وجعل حقهم فيه حقاً مقدسا ـ لا يحل لأحد أن يعتدى عليه باى وجه .. وأعتبر الإسلام أن اليد الخائنة بمثابة عضو مريض يجب بتره» .

ويقول العلماء :

١ـ الذين يحدثون الفوضى فى البلاد ويسلبون الأموال ويهتكون الأعراض، ويقطعون الأشجار ويتلفون الزروع ، ويقتلون الدواب والأنعام ـ قطاع الطرق ، وعصابات القتل وخطف البنات والسطو على البيوت والبنوك ، وما شابه ذلك ـ قضى الله سبحانه وتعالى عليهم حداً بالقتل أو الصلب أو النفى أو تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف فقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المائدة] .

«وكان فى ذلك حماية للناس جميعا من الفساد والإعتداء على حياتهم وأمنهم وسلامتهم».

فأول ما يقضى الله بين العباد يقضى فى الدماء .

عن ابن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء [١].

---

(١) أخرجه البخاري فى صحيحه (كتاب الرقاق باب القصص يوم القيامة ٨/ ١٣٨) حيث يتعلق المقتول بالقاتل ويقول يارب خذ لى حقى ممن قتلنى .

٢ـ الذين يدنسون العرض والشرف بالإعتداء على كرامة الناس وتلطيخهم بالعار ، وتعريض الأولاد للتشرد والضياع فيمزقون الأنساب والأحساب ، ويقترفون أشنع المنكرات بالإعتداء على أعراض الناس ... قضى الله سبحانه وتعالى عليهم حداً بالجلد دون رحمة أو شفقة ، وجعل الشهادة على ذلك لتكون العبرة والعظة لكل من يقترف هذا المنكر الفاحش .. ولما كانت هذه الجريمة للمحصن « أى المتزوج » أشد وأغلظ ـ فقد شرع الإسلام الجلد للبكر والرجم للمحصن . قال سبحانه :

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [النور] .

«ذلك حتى لا يدنس العرض والشرف ، ولا تضيع الأنساب ، ولا يتعرض الأولاد للتشرد والضياع ، ولا يمزق ثوب العفة والطهر والعفاف ».

ويوم القيامة ترى الكاسيات فى الظاهر ، والعاريات فى الحقيقة ـ وكن عاريات من الدين لإنكشافهن وإبداء محاسنهن – كاسيات فى الدنيا بأنواع الزينة من الحرام ، ومائلات زائغات عن طاعة الله وطاعة الأزواج ، وصيانة الفروض ، والتستر عن الأجانب ـ ومميلات يعلمن غيرهن الدخول فى مثل فعلهن ، ومائلات متبخترات فى مشيتهن ، ومميلات يملن برءوسهن وأعطافهن للخيلاء والتبختر،مميلات لقلوب الرجال، واللواتي يمشطن غيرهن المشطة الميلاء ـ ترى رءوسهن كأسنمة البخت يعظمن رءوسهن بالخمر والمقانع .

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ «من أهل النار قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رءوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا »[1] .

٣ـ والذين يخوضون فى أعراض الناس ويقذفون المحصنات الحرائر العفيفات ، ويشيعون الفاحشة ـ قضى الله عليهم حداً بالجلد فقال سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [النور] .

---

(١) رواه مسلم ٤ / ٢١٩٢.

وكان فى تشريع الله حماية من تجريح الأعراض ، وتلويث السمعة ـ فإذا ما شك كل زوج فى زوجته أو فى أصله ـ فالبيوت بهذا الشكل تكون مهددة بالإنهيار ـ لذلك جعل الله سبحانه وتعالى الولوغ فى أعراض الناس ضرباً من إشاعة الفاحشة يستحق فاعله العذاب الشديد ـ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النور] .

وأوعد الله المرتكبين لهذا المنكر بالعذاب الشديد فى الدنيا والأخرة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النور] .

ويحافظ الدين على المجتمعات من الأمراض والعلل الخلقية والعدوي من الأمراض الخبيثة الملوثة ، ويمنع ترويج الفساد واستعمال العنف والشدة لإشباع العاطفة الفاسدة والتجرؤ على إرتكاب الجرائم .. وعندما يشعر المرء بالميل إلى بني جنسه تتجه أفكاره الخبيثة إلى الأعضاء التناسلية ـ ومنه تبين العلة فى إسراف بعض الشباب الساقطين فى التزين وتقليد النساء فى وضع المساحيق المختلفة على وجوههم وتحمير أصداغهم وتزجيج حواجبهم وتثنيهم فى مشيتهم إلى غير ذلك مما سبق الإشارة إليه مع قوم لوط فى الأبواب الأولى من هذا الكتاب .

إلى أخر التشريعات التى شرعها الله تعالى ، والحدود التى أقيمت لتصون شريعة الله من التطاول عليها بالزنا والقذف والسرقة والسكر والمحاربة والردة والبغي وشرب الخمر والقتل ـ وكل ما يصيب المجتمع والأفراد من الفساد والإنحراف والمرض الذى يهدد حياة الإنسان ويفقد الإيمان ويشيع الفوضى والاضطراب ويفقد الناس كرامتهم ويبدد أمنهم واستقرار حياتهم.

والأدب مع الله يقتضى تلقى أحكام الله بالقبول والتنفيذ فإن الذى خلق هو أعلم بمن خلق[1] : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [المُلك] .

« ونأخذ فى الصفات المتقدمة بعض الأحاديث عن رسول الله ﷺ تدفع بنا إلى الإحاطة من كل شر والخوف من عقاب الله والإتجاه إلى الله بكل ما يملك الإنسان طاهراً عفيفا » .

---

(١) فقه السنة للشيخ سيد سابق ٢/ (٣٥٠ : ٥٠٥) .

قال رسول الله ﷺ ما من ذنب بعد الشرك بالله أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل فى فرج لا يحل له [١].

وفى صحيح مسلم عن أبي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله كتب على بن أدم حظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة ـ فالعينان تزنيان وزناهما النظر ، والأذن تزنى وزناها السمع ، واليد تزنى وزناها البطش ، والرجل تزنى وزناها المشى ـ والقلب يتمنى ذلك ويشتهى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه [٢] .

وروى أبو أمامه [٣] أن غلاماً شاباً أتى النبي ﷺ فقال : يا نبي الله أتأذن لى فى الزنا .. فصاح الناس به . فقال النبي ﷺ : قربوه ، أدن ـ فدنى حتى جلس بين يديه . فقال علية الصلاة والسلام : أتحبه لأمك ؟ قال : لا. جعلنى الله فداءك يا رسول الله وقد كرر الحديث قول رسول الله أتحبه لإبنتك ؟ أتحبه لأختك ؟ ـ وزاد ابن عوف أنه ذكر العمة والخالة والشاب يقول فى كل واحدة : لا. جعلنى الله فداءك يارسول الله . فقال علية الصلاة والسلام : كذلك الناس لا يحبون لأمهاتهم، وبناتهم ، وأخواتهم ـ ووضع رسول الله ﷺ يده الشريفة على صدره وقال « اللهم طهر قلبه وأغفر ذنبه وحصن فرجه » فلم يكن شيئ أبغض إليه منه « يعني الزنا » [٤].

وقال عليه الصلاة والسلام أخوف ما أخاف عليكم عمل قوم لوط ـ ولعن من فعل فعلهم ثلاثاً فقال : لعن الله من عمل عمل قوم لوط [٥]. وقال عليه الصلاة والسلام «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فأقتلوا الفآعل والمفعول به » [٦] ـ وفى عقوبة من أمكن من نفسه طائعاً ، عن خالد بن الوليد ﷺ أنه كتب إلى أبي بكر الصديق ﷺ أنه وجد فى بعض النواحى رجلاً ينكح فى دبره ، فأستشار أبوبكر الصحابة ﷺ فى أمره ، فقال علي بن أبي

---

(١) رواه أحمد والطبراني ورفوعاً عن عبدالله بن الحارثة (كما فى الترغيب للمنذري) .

(٢) الحديث ثبت فى الصحيحين - والرواية لمسلم .

(٣) هداية المرشدين للشيخ علي محفوظ رحمه الله ص ٢١٧ - رواه أحمد بإسناد جيد رجاله رجال الصحيح .

(٤) هداية المرشدين للشيخ على محفوظ ص ١١٩ .

(٥) رواه بن ماجه والترمذى والحاكم .

(٦) رواه أبوداود والترمذى وابن ماجه كلهم من رواية عمرو بن أبى عمر عن عكرمة عن بن عباس .

طالب ﷺ : إن هذا ذنب لم يعمله إلا أمة واحدة « قوم لوط » وقد أعلمنا الله تعالى بما صنع بهم ـ أرى أن يحرق بالنار ، فكتب أبا بكر إليه أن احرقه بالنار ، فأحرقه خالد ﷺ[١] .

«وقال رسول الله ﷺ : كل مسكر خمر وكل خمر حرام ومن شرب الخمر فى الدنيا ومات ولم يتب منها وهو مدمنها لم يشربها فى الأخرة »[٢] .

«وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال:من شرب الخمر فى الدنيا يحرمها فى الأخرة» .

ومن حديث بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : لا يدخل الجنة عاق ولا مدمن خمر[٣] .

وقال علية الصلاة والسلام: لعن الله الخمر ، وشاربها ، وساقيها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وعاصرها، ومعتصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه، وآكل ثمنها[٤] .

قال أبو موسى : يا رسول الله إفتنا فى شرابين كنا نصنعهما باليمن «التبغ» وهو من العسل ينبذ حتى يشتد ـ و « المزر » وهو من الذرة والشعير ينبذ حتى يشتد ؟ .. قال : وكان رسول الله ﷺ قد أعطى جوامع الكلم بخواتمه فقال عليه الصلاة والسلام «كل مسكر حرام »[٥] .

«وقال عليه الصلاة والسلام ما أسكر كثيره فقليله حرام » ولم يفرق ﷺ بين نوع ونوع لكونه مأكولاً أو مشروباً على أن الخمر قد يصنع بها « يعنى الخبز » والحشيشة قد تذاب بالماء وتشرب ، والخمر يشرب ويأكل ، والحشيشة تشرب وتؤكل .

قال الإمام أبي عبدالله محمد شمس الدين الذهبي الدمشقي : وإنما لم يذكرها العلماء لأنها لم تكن على عهد السلف الماضيين وإنما حدثت فى مجئ التتار إلى بلاد الإسلام[٦] .

---

(١) رواه بن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي بسند حسن قاله المنذرى فى ترهيبه - ورواه نقلاً أبي عبدالله شمس الدين الذهبي الدمشقي فى كتاب الكبائر .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه أحمد والبزاز والحاكم - وفى رواية ثلاثة قد حرم الله عليهم الجنة (مدمن الخمر والعاق لوالديه والديوث - وهو الذى يقر السوء فى أهله) .

(٤) رواه أبو داود من حديث ابن عمر - ولفظ (وآكل ثمنها) من زيادة ابن ماجه عن أنس (كتاب الكبائر لأبي عبد الله شمس الدين الدمشقي .

(٥) رواه مسلم .

(٦) كتاب الكبائرص ٦٥ - نقحه وراجعه د / محمد الأنور أحمد البلتاجي .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يقطع يد السارق فى ربع دينار فصاعدا [١] .

«وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : لعن الله الراشي والمرتشي فى الحكم» [٢]

هذه لقطات من الشرائع التي شرعها الله سبحانه وتعالى لنا فى الحدود فى قوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة] .

وما شرعت الحدود الشرعية إلا لتطهير المجتمع من الفساد والفوضى والتحلل الخلقي، وحفظاً للأمة من عوامل التردى فى بؤرة الإباحية والفجور والدعارة والقذف ، وضياع العقل وذهاب المال فى مقارفة الخمر والميسر وما يجره القمار من خراب البيوت ودمار الأسر ، والصد عن عبادة الله وطاعته ونشر العداوة والبغضاء بين أبناء المجتمع ، والتعدى على حياة الناس بالضرب والقتل والاغتصاب ، وسفك دماء المسلمين وسلب المال ، ومحاربة أولياء الله وأولياء رسوله والإفساد فى الأرض .

ذلك لأن يكون العقاب الصارم عبرة للناس حتى يرتدع أهل البغى والفساد ويأمن الناس على أموالهم وأرواحهم .

إنه تشريع العزيز فى سلطانه الحكيم فى أمره ونهيه ـ الذى لا تخفى عليه مصالح العباد ـ ومن ضمن حكمته أن يعفو عمن تاب وأناب وأصلح عمله .. فباب توبته لم يغلق دون كل عاص بل هو مفتوح لكل من قصده ورام الدخول منه .

والله أحكم الحاكمين يحكم بين عباده يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون .

عاشراً : عودة وفرار إلى العزيز الغفار بالتوبة والإستغفار .

١ ـ التوبة الصادقة .

وشرع الله تبارك وتعالى الإستغفار والتوبة من الذنوب والمعاصي والآثام وفتح أبواب مغفرته للتائبين .. يدخل منها المؤمن إلى مغفرة الله ورحمته بعد أن يتطهر قلبه من الشرك ، ويخلص الوحدانية لله ، ويتطهر اللسان من الفحش والأيمان الكاذبة ، وتنشط الجوارح

---

(١) متفق عليه - وفى رواية قال رسول الله ﷺ : لا تقطع يد السارق دون ثمن المجن (هى لفظ مسلم كما فى بلوغ المرام) قيل لعائشة رضي الله عنها وما ثمن المجن ؟ قالت ربع دينار ـ وفى لفظ رواية أحمد اقطعوا فى ربع دينار ولا تقطعوا فى ما دون ذلك - وكان ربع الدينار يومئذ ثلاثة دراهم والدينار اثنى عشر درهما .

(٢) أخرجه الترمذي ورواه بن حبان في صحيحه ، والحاكم وزاد : والرائش يعني الذي يسعى بينهما.

للعمل على طاعة الله وإجتناب نواهيه بالإقلاع عن كل الذنوب ، والتغلب على الشهوات والقضاء على مواطن الشرك والفسوق والعصيان ، ومنابع الإثم والعدوان والظلم والطغيان ، وإقتلاعها من جذورها .. والهروب والفرار بالتوبة والاستغفار إلى باب العزيز الغفار توبة نصوحا يندم فيها القلب ويستغفر بها اللسان ، ويتم الرجاء لله فيها ـ وإلا فهو الخراب والفساد والدمار .

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم:٨] .

توبة صادقة جازمة تمحوا ما قبلها من السيئات ، وتكف التائب عما كان فيه من الدناءات ، فلا يعود العبد للذنوب والمعاصى والسيئات .. إستغفار باللسان ، وإقلاع بالأبدان ، وإضمار ترك العودة بالجنان ، ومهاجرة سيئ الخلان .

فيقلع العبد عن الذنوب فوراً ويندم على كل ما فاته ، ويعزم على عدم العودة إليه ، ويرد الحقوق والمظالم إلى أصحابها .. توبة تجب ما قبلها كما يجب الإسلام ما قبله ، وتنتهى بالأعمال الصالحة..تلك هي التوبة التي يكفر الله بها السيئات ، ويدخل الناس بها الجنات: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [التحريم] .

ذلك فى زحام اليوم العظيم فيلهم الله المؤمنين بالدعاء ، ويمن سبحانه عليهم بالإجابة والإستجابة بحلمه وكرمه وفضله ورحمته وعفوه ومغفرته ...

وليست التوبة من الذنب بعلة الخوف من كلام الناس أو الحفاظ على مركز من مراكز القيادة والجاه فى الدنيا .. وليست لأى علة يضطر العبد من أجلها الإقلاع عن المعصية ـ كمن ينتهى عن شرب الخمور والمخدرات والبانجو بسبب ضررها على الصحة ، أو لفقدان الإستطاعة على مصاريف تلك الممنوعات .. فتلك توبة مسببة بأسباب الدنيا وإنها زائفة ، وسرعان ما تنهار حينما تعود الصحة للأبدان أو تتوفر الإمكانيات لشراء ما عجز عن شرائه أصحاب المزاج المفلسون .

وقد خطب النبي ﷺ فحمد الله وأثني عليه ، ثم قال : أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم [1] ـ إن المؤمن بين مخافتين .. بين أجل قد

---

(١) حياة الصحابة للكاندهلوي .

مضى لا يدرى ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدري ما الله تعالى قاض عليه فيه - فليأخذ العبد لنفسه من نفسه ـ ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت ـ والذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار (١) .

التوبة الصادقة لها علة واحدة هى الخوف من الله والرجاء فى رحمة الله والخشية من عقاب الله ـ بالرجوع إلى الله والعودة إلى الله والفرار إليه .

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الذاريات] .

وما أعظمها توبة لو كان التائب المطيع فى مركز سيادة أو جاه يخدم بها الناس ويدفع عنهم الضرر ويمنع عنهم الظلم بما لديه من إستطاعة السلطان الذى لا يذم حين يوجه فى طاعة الله .

أمرنا الله سبحانه وتعالى بالتوبة والإستغفار من كل المعاصى والأقذار لتكون الطاعة والعبادة خالصة بالتوحيد للواحد القهار .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النساء] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء] .

وقال جل فى علاه : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾ ﴾ [النصر] .

والذين يهوون إلى الفاحشة وهيأبشع الذنوب وأكبرها ويظلمون أنفسهم طمعهم الله فى مغفرته ولم يطردهم من رحمته ولم يغلق عليهم باب توبته إن عادوا إليه واستغفروا لذنوبهم وتابوا منها عن قريب ولم يستمروا ويصروا على معصيتهم .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران] .

---

(١) (إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني) - (نقلت من كتاب ركائز الإيمان بين العقل والقلب للشيخ محمد الغزالي ص ٢٧٥) .

قال الحسن البصرى فى الذين أخلصوا الوحدانية لله ولا يقتلون ولا يزنون وتابوا إلى ربهم وعملوا صالح الأعمال ـ هؤلاء أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصا ، وأبدلهم بالفجور إحصانا، وبالكفر إسلاما .

وفى الصحيحين من حديث أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة ـ قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ، وإن زنى وإن سرق ، وإن زنى وإن سرق ـ ثم قال فى الرابعة « على رغم أنف أبي ذر » .

وقد وردت أحاديث صريحة فى أن الكافر إذا أسلم وحسن إسلامه تبدلت سيئاته فى الشرك حسنات .

عن أبي فروة شطب أنه أتى النبي ﷺ فقال : أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجه ولا داجه ـ فهل له من توبه؟ فقال : أسلمت ؟ فقال : نعم ـ قال : فأفعل الخيرات وأترك السيئات فيجعلها الله لك خيرات كلها [1] .

وفى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى : كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا ـ فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ قال : لا ـ فقتله فكمل به مائه ـ ثم سئل من أعلم هذه الأرض فدل على رجل عالم فقال له إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ قال نعم ـ ومن يحول بينه وبين التوبة ـ إنطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها ناس يعبدون الله عز وجل فأعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ـ فأنطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت ـ فأختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ... فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله ـ وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيراً قط ـ فأتاهم ملك فى صورة أدمى فجعلوه حكماً بينهم فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ـ فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد فقبضته ملائكة الرحمة [2] .

---

(١) الداجه (ما صغر من الحوائج - والشطب هو الممدود (وقد صحفه بعض الرواه وظنه أسم رجل) والحديث خرجه الطبراني من حديث عبدالرحمن بن جبير بن نفير عن أبي فروة شطب (جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي) .

(٢) وفى رواية فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها فجعل من أهلها - وفى رواية فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى - وإلى هذه أن تقربى - فغفر له ، والحديث متفق عليه كما قال المصنف من حديث أبى سعيد (إحياء علوم الدين للغزالي) .

وقال رسول الله ﷺ : لله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل فى أرض دوية مهلكة معه راحلته عليه طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فأستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله قال : أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت – فوضع رأسه على ساعده ليموت ـ فأستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه ـ فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته [1] .

عن سفيان الثورى قال : قام أبوذر الغفارى عند الكعبة فقال : أيها الناس أنا جندب الغفارى . هلموا إلى الأخ الناصح الشفيق ، فأكتنفه الناس فقال : أرأيتم لو أن أحدكم أراد سفراً أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ويبلغه ؟ قالوا : بلى . قال : فإن سفر طريق القيامة أبعد ما تريدون ، فخذوا ما يصلحكم . قالوا : وما يصلحنا ؟ قال : حجوا حجة لعظائم الأمور، وصوموا يوماً شديداً حره لطول النشور ، وصلوا ركعتين فى سواد الليل لوحشة القبور ، كلمة خير تقولها أو كلمة شر تسكت عنها لوقوف يوم عظيم .. تصدق بمالك لعلك تنجو من عسيرها ، إجعل الدنيا مجلسين .. مجلساً فى طلب الحلال ، ومجلساً فى طلب الأخرة .. الثالث يضرك ولا ينفعك لا ترده ـ إجعل المال درهمين . درهماً تنفقه على عيالك من حله ، ودرهماً تقدمه لآخرتك .. الثالث يضرك ولا ينفعك لا ترده ، ثم نادى بأعلى صوته . يأيها الناس قد قتلكم حرص لا تدركونه أبدا [2] .

والبلاء لا ينزل إلا بذنب ولا يرتفع إلا بتوبة صادقة ومخلصة لله .. فإذا ذللت فأرجع ، وإذا ندمت فاقلع ، وإذا جهلت فأسأل .

٢ ـ استغفار الرسل والأنبياء :

قال صالح عليه السلام لقومه:

﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود] .

وقال شعيب عليه السلام :

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود] .

---

(١) وفى بعض الألفاظ قام الرجل يشكر الله فقال من شدة الفرح : أنا ربك وأنت عبدى فأخطأ من شدة فرحه - رواه مسلم من حديث النعمان بن بشير ومن حديث أبوهريرة مختصرا .

(٢) صفوة الصفوة لابن الجوزي ١/ ٢٨١ .

ولما أمر هود قومه بعبادة الله وحده نهاهم عن عبادة الأوثان ـ أمرهم بالاستغفار والتوبة ـ توبة الإقلاع عن الذنوب والمعاصى ، والندم على فعلها ، والعزم على عدم العودة إليه أبداً ، والرجوع إلى الله بالطاعة والعبادة ـ فمن أطاع الله وأطاع أمره يسر رزقه بالسعه ورغد العيش ، وسهل عليه أمره ، ومن أقبل على الحق وقاه الله كل مكروه وأرسل سبحانه وتعالى المطر بالخير فلا قحط ولا جدب..ويزيدهم قوة وشدة مع شدتهم وقوتهم.

قال تعالى : ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود] .

وصاحب الحوت يونس بن متى حين ذهب مغاضباً وقد أنذر قومه وحذرهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا . فتمادوا فى الكفر والضلال ، فلما تأخر عنهم العذاب ضاق صدره فخرج من بين أظهرهم غضبان عليهم لإنتهاكهم حرمات الله ، فعاتبه ربه على قلة صبره .قال سبحانه وتعالى : ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء] .

وقال إبراهيم عليه السلام :

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم] .

ـ يوم يجازى الله سبحانه وتعالى العباد بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وقال سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة] .

وتلك الموعدة التي كان وعده بها هي في قول الله تعالى على لسان إبراهيم :

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم] .

وليس للأنبياء ذنوب فهم معصومون ولكنهم يطلبون التثبيت والدوام ـ قال إبراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام .

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة] .

ويرجو إبراهيم ربه أن يستر له يوم الحساب خطأه .. وسأله عليه السلام الرسالة والميراث والسكن بجنة النعيم فهو سبحانه وتعالى الذى خلق وهو الذى يهدى إلى الصواب والرشاد .. كما سأل عليه السلام أن يجعل له الذكر الجميل والثناء الحسن .

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ [الشعراء].

وموسى عليه السلام لما وجد الرجلين يقتتلان هذا من أهل دينه من بني إسرائيل والآخر من القبط من قوم فرعون فأستغاث الإسرائيلي موسى على القبطي فلكزه موسى فى صدره فقتله .. أحس موسى بالذنب لقتله نفس بغواية الشيطان فدعا ربه ليعف عن ذنبه ويغفرله قال سبحانه :

﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص].

ولما كان لقاء موسى الذى وعده ربه وناجاه ، قال موسى لربه : أرني أنظر إليك . قال تعالى : لن تراني ولكن أنظر إلى من هو أكبر منك وأشد ماذا يكون شأنه إذا إطلعت إليه ـ فإذا ثبت الجبل مكانه فسوف تراني ..

فقال تعالى : ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ۚ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف].

فخر مغشياً عليه ولما أفاق من غشيته سأل الله التوبة .

ولما كان موسى عليه السلام بين يدى ربه يناجيه صنع السامرى عجلاً من الذهب لا حياة فيه فعبده القوم ، وفيهم هارون عليه السلام الذى لم يملك ردهم عن هذا الضلال ـ تركوا عبادة الرب الحق القادر على كل شيء وعبدوا العجل من دون الله ، ولما ندموا على خيانتهم واشتد ندمهم على جهلهم وسخفهم ـ وأنهم جاروا عن قصد السبيل ، وكفروا بربهم ـ عادوا لله تائبين منيبين يسألون الله الرحمة والتوبة ـ وإلا فهم من الهالكين .

قال تعالى : ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأعراف].

ولما عاد موسى من ميقات ربه وأخذ برأس أخيه يجره إليه وهو منفعل لما خلفوه بالضلال بعبادة العجل ـ وكان معه الألواح التى تحمل كلمات ربه فألقاها حيث أفقده

الغضب والإنفعال أن يملك زمام نفسه ، وأستجاش هارون وجدان أخيه وبين له براءته من القوم الذين أستضعفوه وكادوا يقتلونه ـ وهدأ موسى وتوجه إلى ربه يطلب منه المغفرة والرحمة له ولأخيه : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأعراف] .

والأمر كله أمر الله ، والحكم لله وحده ، ما شاء سبحانه كان وما لم يشأ لم يكن ـ يهدى من يشاء ويضل من يشاء .. وتلك كلها ابتلاءات واختبارات من الله يبتلى بها سبحانه وتعالى ليتبين الذى يضل عن الحق والذى يهتديإليه – قال موسى أنت ناصرنا ومتولى أمرنا يارب فاستر ذنوبنا وتعطف علينا يارحيم برحمتك .. فإذا قرنت الرحمة بالمغفرة فإن المراد بها عدم الوقوع فى الذنب بعد ذلك قال تعالى : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الأعراف] .

ولما سأل نوح ربه النجاه لأبنه قال :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود] .

فأرشده الله تعالى بالطاعة والعمل الصالح وأن يفكر قبل السؤال ، فأستعاذ نوح من أن يسأل ما ليس به علم ـ وما كان غرق إبنه إلا أمراً قضاه الله لحكمة هو الذى قدرها ... لجأ نوح إلى ربه يعوذ به ويطلب غفرانه ورحمته ... استجار بالله من غضب الله ـ وإلا فهو من المهلكين : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [هود] .

وآدم عليه السلام لما ضعف أمام غواية الشيطان وأكل من الشجرة التى أمره الله ألا يقربها حقت كلمة الله بالمعركة بين الشيطان والإنسان منذ قضى الله بهبوط أدم وزوجته إلى الأرض ، والملعون الذى أغواهما وخرج آدم من دار النعيم والسعة ورغد الجنة لتستقر حياته على ظهر الدنيا هو وزوجته يستمتعون بها إلى يوم إنقطاعها وعودة الميراث كله لله .

وقد أعلم الله آدم وحواء بعداوة الشيطان فقالا : ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف] فأدركته رحمة ربه وتاب عليه : ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة] .

وعهد الله إلى آدم هو الأكل من كل الثمرات ، كل ثمار الجنة سوى شجرة واحدة وهى التى تمثل المحذور الذى لابد منه ليتولى آدم الخلافة فى الأرض . قال تعالى :

﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه] .

نعم .. لقد تداركت رحمة الله آدم فأجتباه وهداه أى أصطفاه سبحانه فهداه إلى التوبة .

٣ ـ رحمة الله شملت المعاندين والمتمردين .

وبالرحمة الله التي أمهلت المعاندين المتمردين من كفار قريش وعلى رأسهم النضر بن الحارث لعنه الله ـ وكان قد ذهب إلى بلاد فارس وتعلم من أحبار ملوكهم رستم واسفنديار ، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله ، وهو يتلو على الناس القرآن ، فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس جلس فيه النضر فحدثهم من أخبار أولئك ـ ثم يقول : بالله أينا أحسن قصصا ؟ أنا أم محمد ؟ - وكانت نهايته فى بدر بإذن الله .

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان] .

إنها رحمة الله التى أمهلتهم عسى أن يستجيب للهدى منهم من يدخل الإيمان قلبه ، ولو عاملهم الله بما هم فيه من العناد والكبر لأستحقوا العذاب ـ لقد ادعوا أنهم أولياء البيت الحرام ، وأنهم ورثة إبراهيم .. وهم أعداء البيت وأعداء المؤمنين بدين إبراهيم .

والبيت الحرام ليس تركة يرثها الخلف عن السلف ، إنه بيت الله يرثه أولياء الله المتقون لله ، ووراثة إبراهيم ليست وراثة دم ونسب ، إنما هى وراثة دين وعقيدة .. وهم أعداء الدين وأعداء العقيدة ، ومع هذا أمهلهم الله برحمته ولا يزال يدعوهم إلى الهدى ولا يعذبهم لأن رسول الله ﷺ فيهم : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال] .

٤ ـ فضل الإستغفار وكيفيته من جوامع الكلم وأقوال السلف .

روى أبوداود عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ «من لزم الإستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا ومن كل هم فرجا ورزقه من حيث لا يحتسب» .

وفي مسند الإمام أحمد وأبوداود وابن ماجه عن بن عمر قال : إنا كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد يقول : رب إغفر لي وتب على إنك أنت التواب الغفور « مائة مرة »[١].

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه كان يدعو (اللهم أغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني ، اللهم أغفر لي جدي وهزلي ، وخطئي وعمدي ، وكل ذلك عندي ، اللهم أغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ـ وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير[٢].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ كان يقول في إستفتاح الصلاة « اللهم أنت الملك لا شريك لك ، أنت ربي وأنا عبدك ، ظلمت نفسي وأعترفت بذنبي فأغفر لي ذنوبي جميعا فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، وأصرف عني سيئها فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت » قال : ثم يكون من أخر ما يقول بين التشهد والتسليم « اللهم أغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت»[٣]

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ يسكت بين التكبيرة والقرآة إسكاته ـ فقلت : بأبي وأمي يا رسول الله إسكاتك بين التكبير والقراءة ما تقول ؟ قال : أقول : اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقني من الخطايا كما تنقي الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم أغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد[٤].

عن شداد بن أوس ﷺ عن النبي ﷺ قال : سيد الإستغفار أن يقول العبد « اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما أستطعت . أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبي ، فأغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » ... من قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة ـ ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة[٥].

---

(١) رواه أحمد ٦/ ٣٢٨ والترمذي .

(٢) رواه البخاري في كتاب الدعوات ومسلم في الذكر والدعاء .

(٣) رواه مسلم عن علي بن أبي طالب في كتاب صلاة المسافرين (باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه) .

(٤) رواه البخاري في الأذان ومسلم في كتابه المساجد ومواضع الصلاة .

(٥) رواه البخاري .

وروى مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : أنه ليغان على قلبى وإنى لأستغر الله فى اليوم مائة مرة [١] .

وفى السنن أنه ﷺ قال : كل بنى أدم خطاء وخير الخطائين التوابون [٢] .

وروى عن أنس ﷺ قال : إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات [٣] .

وروى عن ابن مسعود ﷺ قال: من عمل سيئة كتبت عليه سيئته ، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات ، فإن عوقب بالسيئة التى كان عملها فى الدنيا بقيت له عشر حسنات وإن لم يعاقب بها فى الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات [٤] .

ونادى الله تبارك وتعالى يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا، فأستغفرونى أغفر لكم [٥] .

يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ـ يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ـ يا ابن آدم لو أنك أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة [٦] .

ويقول الله سبحانه تعالى : من علم أني ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالي ما لم يشرك بي شيئا [٧] .

وفى الحديث القدسى يقول الله عز وجل : ما من يوم تطلع شمسه إلا وتنادى السماء تقول يارب إئذن لي أن أسقط كسفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وتقول البحار : يارب إئذن لي أن أغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وتقول الجبال :

---

(١) فى كتاب الذكر والدعاء باب استحباب الاستغفار والاستكثار - النووى (رياض الصالحين)

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم فى مستدركه .

(٣) رواه البخاري وقال الموبقات (المهلكات) .

(٤) رواه بن جرير عن المسيب عن أبي بكر عن سعيد بن غبير عن بن مسعود (بن كثير ٢ / ٤٣٦) .

(٥) رواه مسلم .

(٦) رواه الترمذي ـ (صحيح الجامع ٤٣٣٨) .

(٧) رواه الطبراني فى الكبير والحاكم فى صحيح الجامع.(٤٣٣٠) .

يارب إئذن لي أن أطبق على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ـ فيقول الله تعالى : دعوهم دعوهم لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنهم عبادى فإن تابوا إلى فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم [١] .

وعن أبي موسى عبدالله بن قيس الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال : إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسئ النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها[٢] .

«وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه» [٣] .

«وعن أبي عبدالرحمن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : إن الله عز وجل يقبل توبة العبد مالم يغرغر» [٤] .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى قال : من عادي لي ولياً فقد أذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما أفترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيذنه [٥] .

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقلت له : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أحب أن أكون عبداً شكورا ؟[٦] .

وعن أبى هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ لما خلق الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش « إن رحمتي تغلب غضبي » « وفى رواية غلبت غضبي ، وفى رواية سبقت غضبي» [٧] .

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه الترمذي .

(٥) رواه البخاري (ومعي أذنته أى أعلمته بأني محارب له) .

(٦) متفق عليه - هذا لفظ البخاري ونحوه فى الصحيحين من رواية المغيرة بن شعبة .

(٧) متفق عليه .

وعنه ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل في الأرض جزءاً واحدا ـ فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه [١] .

ولابد للمؤمن من ذنب يأتيه ألفينة بعد الفينة [٢] .

وعنه ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم [٣] .

.. ولله سبحانه وتعالى في أهل طاعته ومعصيته أسرار لا يعلمها إلا هو سبحانه ، ولا يطالعها إلا أهل البصائر ـ فيعرفون منها بقدر ما يناله معارف البشر .

ولا يخلو الإنسان أبداً عن المعصية .. لو خلا عن معصية بالجوارح لم يخل عن الهم بالذنب بقلبه ، وإن خلا قلبه عن الهم بالذنب لم يخل عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله .. كل ذلك نقص ولا يسلم أحد من هذا النقص .

قال الإمام بن قيم الجوزية رحمه الله : إذا فرضت أن المعصية منتفية من العالم ، أي لا يوجد ذنوب ولا معاصي في الدنيا .. فلمن يغفر الله ؟ وعمن يعفو ؟ وعلى من يتوب ويحلم ؟

إن من أعظم أسباب مغفرة الله أن العبد إذا أذنب ذنباً لم يرج مغفرته من غير ربه ، لذلك لم يغلق المولى على خلقه باب توبته ، ولم ييئسهم من رحمته . قال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزُّمَر] .

٥ ـ ذنوب العباد وعظمة الرحمة لرب العباد .

وذنوب العباد وإن عظمت فإن عفو الله أعظم ، فأنظر إلى عفو الله، وقد أعرض عنه الإنسان بعد أن خلقه الله وكرمه وفضله وشرفه وأنعم عليه من فضله .

انطلقت بنعم الله عليك تستسلم للشر ، وتفتح أبواب قلبك للشيطان ـ والشيطان يجري من بني آدم مجرى الدم في العروق .. فتحرص على الغني من أموال اليتامى ، وتملأ بطنك من حرام الربا ، وتهتك بأعراض الناس ، وترمي المحصنات الغافلات ـ ثم تغضب

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث بن عباس (إحياء علوم الدين للغزالي).

(٣) رواه مسلم .

وتكره ، فتحقد وتحسد ، وتمكر وتغش وتخادع ، وتتعدى على حياة الناس ، ثم تتكبر على الخلق فتفسد وتظلم ـ ثم تشكو من يرحمك إلى ما لا يرحمك ، وتتظلم ممن لا يظلمك ، وتدع من يعاديك ويظلمك .

والله عز وجل أرحم وأغنى وأعدل من أن يعاقب صاحب عذر ، ولا عذر لأحد البتة فى معصية الله ، ومخالفة أمره ..

قال سبحانه وتعالى :

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران] .

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج] .

قال بن قيم الجوزية فى مدارج السالكين :

ـ أى متى اعتصمتم به تولاكم ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد .. والفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها ـ والجهل بقدر من عصاه ، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها .

والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية الله أبدا ولا يكمل بها فرحه بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط قلبه . وحقيقة التوبة هى الندم على ما سلف منه فى الماضى والإقلاع عنه فى الحال ، والعزم على أن لا يعاوده فى المستقبل ، والثلاثة تجتمع فى الوقت التى تقع فيه التوبة ، فيندم ويقلع ويعزم ـ وليس شيء أحب إلى الله من كسرة القلب والخضوع والتذلل بين يدي الله، فلا ملجأ ولا منجي من الله إلا إليه ـ ومن ادعى أن ذنبه كان قدراً مقدوراً عليه لم يستطع دفعه ـ فهو ظالم جاهل ، ولولا جهله وظلمه لعلم أن بلاءه من نفسه ومصابه منها .

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ [العاديات] .

أي كفور جحود لنعم الله تعالى كما قال ابن عباس رضي الله عنهما [1] .

أحسن الله إليك ـ أزاح عللك ، ومكنك من التزود إلى جنته وبعث إليك الدليل ، وأعطاك مؤنة السفر وما تتزود به ، وما تحارب به قطاع الطريق عليك ـ أعطاك السمع والبصر والفؤاد ، وعرفك الخير والشر ، والنافع والضار ، وأرسل إليك رسوله ، وأنزل

---

(١) والكنود هو الذى أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان - إذا ساء إليك مسيء وجنى عليك جان واحتج بالقدر لأشتد غضبك عليه - فإذا كان القدر حجة لك فى ترك حق ربك فمن أولى بالظلم والجهل .

إليك كتابه ، ويسره للذكر والفهم والعمل ، وأعانك بمدد من جنده الكرام يثبتونك ويحرسونك ويحاربون عدوك ويطردونه عنك ، ويريدون منك أن لا تميل إليه .. وأنت تأبى !! بل تواليه دون وليك الحق الذى هو أولى بك.

قال الإمام بن قيم الجوزيه رحمه الله فى تهذيب مدارج السالكين : أمرك الله بشكره لا لحاجته إليك ، ولكن لتنال به المزيد من فضله ، فجعلت الكفر على نعمه ، واستعنت بها على مساخطه .. أمرك بذكره ليذكرك بإحسانه فجعلت نسيانه سبباً لنسيان الله لك .

﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر] .

أمرك بسؤاله ليعطيك فلم تسأله .. بل أعطاك أجل العطايا بلا سؤال فلم تقبل .. وإن أنعم عليك بالصحة والعافية والمال والجاة إستعنت بنعمه على معاصيه .

دعاك إلى بابه فما وقفت عليه ولا طرقته ،، أرسل إليك رسوله يدعوك إلى دار كرامته ، فعصيت الرسول .

ومع هذا فلم يؤيسك من رحمته .. بل قال : متى جئتني قبلتك ، إن أتيتنى ليلاً قبلتك ، وإن أتيتني نهاراً قبلتك ، وإن تقربت مني شبراً تقربت منك ذراعا ، وإن تقربت مني ذراعاً تقربت منك باعاً ، وإن مشيت إلى هرولت إليك ، ولو لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً أتيتك بقرابها مغفرة .. ولو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك . ومن أعظم مني جوداً وكرما ؟ .

عبادي يبارزونني بالعظائم وأنا أكلؤهم على فرشهم، إني والجن والأنس فى نبإ عظيم . أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر سواي ، خيري إلى العباد نازل ، وشرهم إلى صاعد .. أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغنى عنهم ، ويتبغضون إلى بالمعاصي ـ وهم أفقر شيء إلى... من أقبل إلى تلقيته من بعيد ، ومن أعرض عني ناديته من قريب ، ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد ، ومن أراد رضاي أردت ما يريد ، ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد ... أهل ذكرى أهل مجالستي ، وأهل شكرى أهل زيادتى ، وأهل طاعتى أهل كرامتي ، وأهل معصيتى لا أقنطهم من رحمتي ـ إن تابوا إلى فأنا حبيبهم فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين ، وإن لم يتوبوا إلى فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب ـ من آثرني على سواى آثرته على سواه ـ الحسنة عندى بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، والسيئة عندى بواحدة فإن ندم عليها واستغفرنى غفرتها له .. أشكر اليسير من العمل ، وأغفر الكثير من الذلل ـ رحمتي سبقت غضبي ، وحلمي وعفوي سبق عقوبتي ـ أنا أرحم بعبادي من الوالدة بولدها .

والعبيد متقلبون بين توفيق الله وخذلانه ، بل العبد فى الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا .. فيطيعه ويرضيه ، ويذكره ويشكره بتوفيقه له .. ثم يعصيه ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له ـ فهو دائر بين توفيق الله وخذلانه ـ فإن وفقه .. فبفضله ورحمته ، وإن خذله فبعدله وحكمته .. وهو المحمود على كل شيء .

إنه الله .. الفضل أحب إليه سبحانه وتعالى من العدل ، والعفو أحب إليه من الإنتقام ، ورحمته غلبت غضبه .. ولو غفر سبحانه وتعالى لأهل الأرض كلهم لما نقص مثقال ذرة من ملكه .. والعبد هو الذى يسد على نفسه طرق الخيرات ويغلق دونها أبواب الرحمة بسوء إختياره لنفسه، ولولا ذلك لكان ربه له فوق رجائه وأمله .

إنه الله .. الذي إذا قدر عفا ، وإذا وعد وفى ، وإذا رفعت حاجة إلى غيره لا يرضي ، وإذا جفا عاتب وما استعصى .

هو الكريم الذى لا يذل من استجار به ، ولا يضيع من لاذ بجانبه ، والتجأ إلى زمامه وحماه .

والمقصود من التوبة تقوى الله ، وهى خوفه وخشيته ، والقيام بأمره واجتناب نواهيه ـ فليعمل بطاعة الله على نور من الله يرجو ثواب الله ، وليترك معصية الله على نور من الله يخاف عقاب الله ـ وقد يكون فى التوبة علة ونقص وآفة تمنع كمالها ، وقد يشعر صاحبها بذلك وقد لا يشعر به .. فيتوب من نقصان التوبة ، وعدم توفيتها حقها.. وصاحب البصيرة إذا صدرت منه الخطيئه فله أن ينظر إلى أمر الله ونهيه ، ويحدث الإعتراف بالخطيئة والإقرار بالذنب ، وأن ينظر إلى الوعد والوعيد ويحدث الخوف والخشية ، وأن ينظر إلى تمكين الله له فيها ، وتخليته بينه وبينها وأنه سبحانه لو شاء لعصمه منها فتحدث بذلك العبودية لله .

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور] .

الحادى عشر : ميراث الجنة والفردوس الأعلى .

الذين خشعوا فى صلاتهم لله تعظيماً لجلال الله وتقديراً لعظمة الله ، وأعرضوا عن اللغو واللهو والهذر ، وانشغلت قلوبهم بذكر الله ، وطهروا أموالهم من الحرام ، وقلوبهم من البخل والشح ـ فأدوا ما عليهم من أمر الله ، وصانوا أعراضهم وفروجهم إلا بعفة الحلال التي شرعها الله ، واستقامت فطرتهم بحفظ الأمانات ورد الودائع والوفاء بالعهود .. وصدقت ضمائرهم فحافظوا على صلواتهم ، ووصلوا ما بينهم وبين الله ... هؤلاء الذين استجمعوا لهذه الصفات التي ذكرت في قول الله تعالى :

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون] هم الذين استحقوا وعد الله بالجنة دار الخلود بلا فناء ، ودار الأمن بلا خوف ، ودار الإستقرار بلا زوال .. صلحت قلوبهم فخشعوا ، وطابت نفوسهم فبذلوا واستحقوا ميراث الجنة .. وهذا وعد الله لا يخلف الله وعده ، وقرار الله لا يملك أحد رده .

١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون] .

والخاشعون هم الخائفون من هيبة الله ، المتذللون لله بإدامة ما ألزمهم من طاعته وعبادته .. الخاضعون لجلاله .. يستشعرون فى خشوعهم رهبة الموقف بين يدى الله ، فذهبت كل شواغلهم من الأذهان إلا من مشاهدة الله وخشوع القلب لله واستسلام الجوارح لطاعة الله .. فغضوا أبصارهم إلا من مواضع السجود فى الصلاة .. وقد استيقنت قلوبهم بها فهى أول فرض فى شريعة الإسلام ، وأخر ما يبقى للعبد يقرع بها باب الرحمن .

«روى أحمد والنسائى عن النبي ﷺ أنه قال : حبب إلى الطيب والنساء ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة».

وروى الترمذي عن أبي ذر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الرحمة تواجهه ... ولا يزال الله مقبلاً على العبد فى صلاته مالم يلتفت فإن إلتفت قطع الله عنه إحسانه . وقد روى عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه رأى رجلاً يعبث بلحيته فى الصلاة فقال : لو خشع قلب هذا الرجل لخشعت جوارحه [1] .

والخشوع فى الصلاة يكون بأمرين « بأفعال القلب كالخوف والرهبة واستحضار عظمة الله ـ وبأفعال الجوارح كالسكون وترك الإلتفات والنظر إلى موضع السجود » .

ولا عبرة لجسد بلا روح ، وكذلك لا عبرة لصلاة بلا خشوع ـ ذلك أن المصلى إنما يناجى ربه ، والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة .. وما الصلاة إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود .. فأى سؤال فى قول العبد :

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة] .

إذا كان القلب غافلاً عن جلال الله وكبريائه وقد جعل الله الذين هم فى صلاتهم خاشعون صفة من صفات المؤمنين الذين استحقوا ميراث الجنة .

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٢٣٨) (القرطبى الجامع لأحكام القرآن ٦ / ٤٦٣٧) .

٢ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [المؤمنون] .

واللغو فى كلام العرب « كل كلام كان مذموماً ، وفعلاً لا معنى له مهجوراً » معرضون عن الباطل .. والباطل يشمل الشرك ، معرضون عن الهزل واللعب والخوض فيما لا يفيد ، معرضون عن التطفل والفضولية – فذلك إستهتار بأمر العقيدة التى تمنع الخوض فى الباطل .

والمراد باللغو كل ما لا يعود على الشخص منه فائدة فى الدين أو الدنيا سواء كان قولاً أو فعلاً أو مكروها ـ ما يلفظ ابن أدم من قول أو يتكلم بكلمة إلا ولها من يرقبها ويكتبها: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق] .

وإن علينا رقباء من الملائكة يحفظون الأعمال ويحصونها علينا ، ويكتبون ميع أعمالنا . ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار] .

«عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[1].

«وأخرج الترمذي أيضاً وابن ماجة من حديث أم حبيبة عن النبي ﷺ قال : كل كلام ابن أدم عليه لا له إلا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وذكر الله عز وجل» .

«وروى الترمذي والنسائي وابن ماجه : إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت . يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وأن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله عز وجل عليه بها سخطه إلى يوم القيامة».

«وأخرج البخارى عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ إن العبد يتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالاً يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً تهوى بها فى جهنم».

«ولا خير فى حديث الناس الذين يتحدثون بينهم إلا إذا كان التناجى بأعمال البر والخير من الصدقة والمعروف ، والإصلاح بين المتخاصمين .. ومن يفعل الخير طلباً لرضا الله فسوف يعطيه الله جزاء عمله ثواباً لا يعلم قدره إلا الله » .

---

(١) رواه الترمذي وغيره .

قال الله تعالى : ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء] .

«وضرب الله مثلاً للإيمان والمؤمن – شبه الله فيه كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » بالشجرة الطيبة المثمرة ـ فالإيمان هو الشجرة الطيبة أصلها راسخ في قلب المؤمن وفرعها في السماء وهو العمل الصالح يرفعه الله إليه ويتقبله ، ومثل الشرك بالله كشجرة الحنظل الخبيثة استؤصلت من فوق الأرض ليس لها أصل ولا ثبات ـ فكذلك الكافر لم يجعل الله فيه بركة ولا منفعة ولا يصعد له عمل » .

قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم] .

وفي صحيح البخاري عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال : المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ـ فذلك قول الله تعالى : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم] .

والتثبيت في الدنيا على العمل الصالح وقول لا إله إلا الله وفي الآخرة عند السؤال في القبر .

«وفي سنن أبوداود عن عثمان رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال : استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسئل » .

فإذا سمعتم من يسخر ويستهزئ بآيات القرآن فلا تجلسوا معهم حتى يتحدثوا حديثاً غيره ، وإن جالستم من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها فأنتم مثلهم في إرتكابكم معصية الله ومخالفتكم أمره : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام] .

«وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل »[1] .

---

(١) الإيمان لابن تيمية / ١٠٣.

وهذه الوصايا القرآنية والنبوية تعني ترك العبد ما لا يعنيه وكل ما لا يعود عليه من فائدة في الدين والدنيا قولاً وعملاً كالهزل واللعب وضياع الأوقات فيما لا ينفع والإسترسال في الشهوات والهذر واللغو واللهو .. وينبغي للمرء أن ينشغل بما ينفعه من عمل صالح لمعاده أو درهم حلال لمعاشه .. والحق سبحانه وتعالى يمتدح الكملة من عباده فيقول: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان].

واللسان قوام البدن كله .. فإذا استقام اللسان إستقام البدن ، واستقامت الجوارح .. وإذا اضطرب اللسان لم تقم له جارحه ، ولا يصلح العبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه .. وفي الخبر أكثر خطايا ابن أدم في لسانه ، وأكثر الناس ذنوباً يوم القيامة أكثرهم خوضاً فيما لا يعنيه [1].

والكلام مفتاح كبائر اللسان .. فيه الكذب والغيبة والنميمة والبهتان والخوض فيما لا ينفع والقيل والقال وكثرة السؤال .

ووصية رسول الله ﷺ : من كان يؤمن بالله واليوم الأخر فليقل خيراً أو ليصمت[2]. فالصمت يجلب التقوى ويعلم الورع ويكسبك صفو المحبة ، ويؤمنك سوء المغبة ، ويلبسك ثوب الوقار، ويكفيك مؤنة الإعتذار .

فاعقل لسانك إلا عن حق توضحه .. أو باطل تدحضه .. أو حكمة تنشرها .. أو نعمة تذكرها . وقالوا : فتعلم الصمت كما تتعلم الكلام فإن كان الكلام يهديك فإن الصمت يقيك .. ولك في الصمت خصلتان .. تدفع به جهل من هو أجهل منك .. وتتعلم به علم من هو أعلم منك . والتزم الوقار.. ذلك بالإمساك عن فضول الكلام ، وكثرة الإشارة ، والحركة فيما تستغني عن الحركة فيه ، والإصغاء عند الإستفهام ، وعدم التسرع والمبادرة في جميع الأمور ، والتحفظ من التبذل بالهذل القبيح ومخالطة أهله وحضور مجالسه ، وضبط اللسان من الفحش وذكر القبيح والمزاح السخيف .

فلا كرامة لمبتذل ، ولا عظمة لمن يسرف في المزاح ويفحش فيه، والترفع عن الجلوس في الأسواق وقوارع الطرق من غير ضرورة ـ فإن الإكثار من ذلك مخل بالكرامة .

---

(١) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ١٠/ ٢٩٩ : ٣٠٠ .

(٢) رواه البخاري مطولاً في كتاب الأدب ٨/ ١٣ومسلم في كتاب الإيمان وفيه ليسكت بدلاً (ليصمت).

وأعظم الناس قدراً عند الناس من ظهر اسمه وخفى شخصه .. وأعظم الناس عند الله من تستحى جوارحه من معصيته ، وتستقيم على طاعته وعبادته .. وقد جعل الله صفة الذين هم عن اللغو معرضون من صفات المؤمنين الذين استحقوا ميراث الجنة.

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به .

وفى السنن أن معاذ بن جبل قال : يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم [(١)] .

قال عقبة بن عامر : قلت يارسول الله وما النجاة ؟ قال عليه الصلاة والسلام : أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وأبك على خطيئتك [(٢)] .

وعن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فأصنع ما شئت [(٣)] .

٣ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [المؤمنون] .

والزكاة فى ترتيب بناء الإسلام ومنهج الحياة تأتى بعد الصلاة ـ فهى الركن الثالث من أركان الإسلام ، وقد قرنها الله سبحانه وتعالى بالصلاة فى إثنتين وثمانين آية من كتاب الله .. وهى طهارة للقلب والمال، طهارة القلب من الشح وإستعلاء على حب الذات ، وانتصار على وسوسة الشيطان بالفقر ، وثقة بما عند الله من العوض والجزاء ، وطهارة للمال تجعل ما بقى منه حلالاً طيباً لا تحوم حوله الشبهة ..

«جعلها الله تعالى للأغنياء لتطهر أنفسهم من رذيلة البخل والشح والشره والطمع .. وتزكية للنفس بفضل الرحمة بالفقراء ».

«وجعلها الله تعالى للفقراء لمواساتهم وسد حاجات البؤساء والمحرومين وإعانتهم على نوائب الدهر ».

«جعل الله الزكاة لربط الصلات وتوثيق العلاقة بين المزكى وآخذ الزكاة لما فيها من ذهاب الأحقاد بينهما ، ولما فيها من سد الخلل والتخفيف من آلام الحياة وضيق المعيشة ».

---

(١) رواه الترمذي مطولاً فى أبواب الإيمان وابن ماجه والحاكم وأحمد وهو صحيح على شرط الشيخين.

(٢) رواه الترمذي .

(٣) من رواية منصور بن المعتمر عن حذيفة وله وجه أخر رواه بن مسعود من رواية مسروق - وخرجه الطبراني من حديث أبو الطفيل - وأخرجه البخاري .

«جعلها الله سبحانه وتعالى وقاية للجماعة من التفكك والإنحلال ، وجعلها للتقريب بين الطبقات .. حتى لا تنكسر قلوب الفقراء بتكبر الأغنياء عليهم».

قال سبحانه وتعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة] .

«أى تطهرهم من الذنوب ، ومن حب المال الذى يصرفهم عن الله وعبادته، وتزكيهم وتنمى حسناتهم ، وترتفع بها درجاتهم إلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين » .

والزكاة فرع من فروع نظام التكافل الإجتماعى بين القادرين والعاجزين .. فريضة إجتماعية تؤدى فى صورة عبادة إسلامية ، ليطهر الله بها القلوب ، ويجعل منها التراحم والتضامن بين أفراد الأمة المسلمة .

«وليست الزكاة إحساناً من المعطى ، وليست شحاذه من الأخذ ، فما قام النظام الإجتماعى فى الإسلام على التسول .. ولن يقوم » .

«وليست الزكاة تطوعاً ولا تفضلاً ممن فرضت عليهم .. إنما هى فريضة محتمة ، وإحدى فرائض الإسلام .. فريضة من الله الذى يعلم ما يصلح لهذه البشرية ، ويدبر أمرها بالحكمة ـ والله عليم حكيم » .

والذين يؤدون الزكاة ذكرهم الله فيمن رضي عنهم وأجزل لهم ثوابه فقال سبحانه :

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل] .

وهنا فى هذا المقام جعلها الله صفة من صفات المؤمنين الذين استحقوا ميراث الجنة.

وفى قول الله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [المؤمنون] .

يقول الإمام بن كثير : إن هذه الآية مكيه ، والزكاة فرضت بالمدينة فى السنة الثانية من الهجرة .. والظاهر أن التى فرضت بالمدينة هى ذات النصب والمقادير الخاصة ، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة لقول الله تبارك وتعالى فى سورة الأنعام وهى مكية : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام] .

وقال : وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا زكاة النفس من الشرك والدنس لقوله تعالى :

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس] .

وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال .. فإنه من جملة زكاة النفوس [١] .

٤ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥﴾ [المؤمنون] .

يحفظون فروجهم عن الحرام فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط إلا من أزواجهم بالنكاح الذى أحله الله لهم أو ما ملكت أيمانهم من السرارى .. وفى ذلك طهارة فى الروح والبيت والجماعة ، ووقاية للنفس والأسرة والمجتمع من دنس الحرام ، وحفظ الجماعة من فساد البيوت والأنساب ، ومن إنطلاق الشهوات بغير حساب لما يعرضها للخلل والفساد ، وضياع الأمن والإستقرار والطهارة .

يقول صاحب الظلال فى بيان ملك اليمين : جاء الإسلام والرق نظام عالمى ، واسترقاق أسرى الحرب نظام دولى .. وما كان للإسلام أن يلغى هذا النظام والإسلام مشتبك فى حروبه مع أعدائه الواقفين بالقوة المادية فى طريقه فتصبح أسارى المسلمين رقيقاً عند أعدائه بينما هو يحرر أسارى الأعداء .. فعندما كانت الأسيرات فى المعسكر الإسلامى أباح الإسلام الإستمتاع بهن إلا أن يتحررن [٢] .

وقال المرحوم الشيخ محمد متولي الشعراوي:وملك اليمين حلال لم يعد له موضع، ولم يعد له وجود الأن .. فلم يعد إماء كما كان قبل الإسلام .. والحكم لم يلغى ولكنه قائم إنما لا يوجد له الآن موضوع .. وإن من حكمة الله أن أباح لسيدها معاشرتها فإذا ما حملت من سيدها فقد أصبحت حرة بولدها .. وكان ذلك يفتح باب العتق ويعدد أسبابه [٣] .

ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج ، ومن ابتغى غير الأزواج والإماء فأولئك هم المعتدون : ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون] .

---

(١) ابن كثير ٣/ ٢٣٩ .

(٢) ظلال القرآن ٤ / ٢٤٥٦ .

(٣) الشعراوي ١٦ / ٩٩٦٥ .

«وقد استدل الإمام الشافعى رحمه الله ومن وافقه على تحريم الإستمناء باليد بهذه الآية الكريمة»[١].

... ولكن الإمام أحمد بن حنبل على ورعه أجاز إستعداء المنى باليد وهو فى إستفعاله، وتحجج بأنه إخراج فضله من البدن فجاز عند الحاجة «وأصله الفصد والحجامة» .. وأما عامة العلماء حرموه وقال بعضهم : إنه كالفاعل بنفسه .. وهى معصية أحدثها الشيطان وأجراها بين الناس .. ولو قام الدليل على جوازها لكان ذو المروءة يعرض عنها لدناءتها .

ويقتضي تحريم الزنا والإستمناء ونكاح المتعة لأن المتمتع بها لا تجرى مجرى الزوجات « لا ترث ولا تورث » ولا يلحق به ولدها، ولا يخرج من نكاحها بطلاق .. وإنما بإنقضاء المدة التى عقدت عليها وصارت كالمستأجرة .. ومن سلك غير ذلك وأعتدى وجاوز الحد وجب أن يقام عليه الحد[٢].

عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال : سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولا يجمعهم مع العالمين، ويدخلهم النار فى أول الداخلين إلا أن يتوبوا، ومن تاب تاب الله عليه .. الناكح يده، والفاعل، والمفعول به، ومدمن الخمر، والضارب والديه حتى يستغيثا، والمؤذى جيرانه حتى يلعنوه، والناكح حليلة جاره.. والله أعلم[٣].

وخلاصة القول أن الذين هم لفروجهم حافظون غلبت عقولهم على شهواتهم فصانوا فروجهم، وغضوا أبصارهم عن الحرام .. وتلك أيضاً صفة من صفات المؤمنين الذين استحقوا ميراث الجنة .. أما من التمس لفرجه منكحاً خلاف ذلك أو استمنى بيده فأولئك تجاوزوا ما أحل الله لهم إلى ما حرم الله عليهم، ومن أرضى شهوته ولم يحصن فرجه واعتدى على الأعراض ومزق ثوب العفاف، فقد عرض نفسه وأمته لمخاطر الشقاء فى العاجل والأجل، ورضى لنفسه الهلاك .

٥ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المؤمنون] .

أى الذين يحافظون على ما ائتمنوا عليه فيما بينهم، أو فيما بينهم وبين الله إذا اؤتمنوا لم يخونوا .. بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك .. ترد الأمانات إلى أربابها .. الأبرار منهم والفجار .

---

(١) ابن كثير ٣/ ٢٣٩ .

(٢) القرطبي ٦ / ٤٦٣٩ .

(٣) والحديث رواه ن كثير فى تفسير القرآن العظيم م ٣ / ٢٣٩ والله أعلم صحته - ولكنى تناولته لما رأيت فيه من خطورة السبعة المذكورين فيه إذ تأنف منهم النفس والفطرة .

«أخرج الدارقطني عن أبي بن كعب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أدّ الأمانة إلى من أئتمنك ولا تخن من خانك ».

«وروى أبو هامه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول في خطبته عام حجة الوداع : العارية مؤداة ، والمنحة مردودة ، والدين مقضى ، والزعيم غارم» (١) .

تلك من علامات المؤمنين ينيبون بها إلى الله بالمحبة والخضوع والإقبال عليه سبحانه وتعالى والإعراض عما سواه .. وتلك الصفات الحية والمستنيرة تتعارض شكلاً وموضوعاً مع علامات المنافقين الرخيصة والدنيئة ، ومنها كما تحدثنا في شأنهم إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا اؤتمنوا خانوا ، وإذا عاهدوا غدروا ، وإذا خاصموا فجروا .. وتلك صفات تفتك المجتمعات والأفراد .

والأمانة هي كل ما أودعه الله سبحانه وتعالى قلب المؤمن وضميره وعقيدته الخلقية من أعمال وأقوال وأفعال وتكاليف وفرائض وأوامر ونواهي وحقوق وواجبات .. وكل ما أؤتمن عليه العباد وتحملوا مسئوليته أمام الله وأمام الناس .. وعلى سبيل المثال وليس الحصر وبصورة ميسرة ومبسطة نأخذ من أقوال العلماء ما يلي في شأن تلك الأمانات .

أ ـ أمانة التكاليف والعبادات : والعبادة في الإسلام هي مدارج الصلة بين المخلوق والخالق يتقرب العبد بها إلى الله بالخضوع والخشية لعظمة الله وجلال الله ـ وإفراده سبحانه وتعالى بالعبودية والوحدانية .. فالعبودية هي أسمى أهداف العبادة وأقصى غاياتها .. وهي التي ترتكز عليها حكمة خلق الإنسان : ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام] .

وما شرع الله تبارك وتعالى العبادات إلا لخير الناس وصالحهم وفيها الإقرار لله بالألوهية والربوبية ، وبها تتحسن العلاقة بين العبد وربه بتحقق الوحدانية ، وتتحسن العلاقة بين الإنسان وأخيه بتوثيق الروابط والعلاقات بين أفراد الأمة الواحدة والمجتمع

---

(١) صحيح وأخرجه الترمذي وغيره ، وزاد الدارقطني فقال رجل : فعهد الله ؟ قال عهد الله أحق ما أدى - والعارية هي ما تأخذه من غيرك لتستفيد منه ثم ترده إلى صاحبه ، واحتج الشافعي رحمه الله فيما استدل به لقول صفوان للنبي ﷺ لما استعار منه الأدراع : أعارية مضمونة أو عارية مؤداه فقال النبي ﷺ : بل مؤداه (القرطبي ٢/ ١٩٢١)

الواحد .. فيؤدى كل أمانته فى عمارة الكون بالخير والصلاح والحب والإخلاص والفضيلة لتحقيق الخلافة فى هذه الأرض على البر والتقوى والخير والمعروف كما سبق أن بينا ذلك ... وبالعبادة يرى الله من عباده مدى إمتثالهم لأمره ، والإمتثال هو أعلى درجات الطاعة ، ومجال إتصال الإنسان بربه والإنقياد لمنهجه ، ووسيلة للتعرف عليه سبحانه والتقرب إليه ، ومن ثم فهى باب مفتوح يهرع الناس إليه كلما حزبهم أى أمر أو قست عليهم نوائب الحياة .

شرعها الله تبارك وتعالى ليربى فى خلقه ملكات التقوى والخشية والخوف من الله ، والرجاء إليه وللمنهج الذى أراده الله.

والعبودية والعبادة أمران متلازمان لا يقوم أحدهما دون الأخر ، ولابد من الجمع بينهما فى كيان الإنسان المسلم ـ فالعبودية حظ القلب ، وهي بدون العبادة دعوى بلا دليل .. والعبادة بلا عبودية عمل هش لا يقوم على عقيدة .

فإذا أديت هذه العبادات على وجهها الصحيح من الدقة والإخلاص والخشوع والفهم فإنه الخير ، وإنها تأدية الأمانة التى أؤتمن الناس عليها لتطهير الأرواح وتزكية النفوس وتوظيف الحياة كلها لله : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام] .

وإذا ما توجه الإنسان بكل كيانه إلى مولاه غمره بنعمه ، وأكرمه بالمغفرة ، وأهله لدخول الجنة والتنعم بالثواب .

ولقد فتح الله سبحانه وتعالى أبواباً كثيرة يدخل منها طلاب المغفرة والرحمة إلى مغفرة الله ورحمته .. ولكل عبادة من العبادات مهمة وتكليف وجب الكمال فى تأديتها لإستقبال منهج الحياة فى ترشيد السلوكيات على منهج الله وطاعة الله ، وإلا فهو التفريط فى أمانة التكليف والعبادات .

الصلاة عبادة وهى أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة وعمود الإسلام فإذا صلحت صلح سائر العمل وإن فسدت فسد سائر العمل [1] . وهي وصية وصى بها ﷺ أمته عند مفارقة الدنيا .. جعل يقول وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة « الصلاة .. الصلاة وما

---

(١) من الحديث الذى رواه أحمد والنسائى والترمذى وصححه – والطبرانى فى الأوسط .

ملكت أيمانكم » كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفى كلامه ، جعل يقول : الصلاة وما ملكت أيمانكم ، لا تكلفوهم ما لا يطيقون ، الله الله فى النساء فإنهن عوان لكم [١].

وحقيقة الصلاة فى البعد عن الرذائل والتطهر من سوء القول وسوء العمل.

قال تعالى : ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت].

«فإذا لم تؤدى الصلاة مهمتها فلا فائدة للعبد منها..فقد أضاع الصلاة وعطل الأمانة .

والزكاة عبادة وهى أحد أركان الإسلام وقد تناولنا فى بياننا ما تحتوى عليه مهمتها فى التكليف من التطهير والتزكية وتوطيد العلاقات وإعطاء الحقوق وصلة القرابة .. وبإكمال مهمتها تغرس مشاعر الحنان والرأفة وتنظف النفس من كل الأدران والنقص ، وتطهر من دنس البخل والطمع والدناءة ... قال تعالى :

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة] .

فإذا لم تؤدى الزكاة مهمتها فلا فائدة للعبد منها .. فقد أضاعها وعطل الأمانة » .

والصيام عبادة ومن أركان الإسلام الخمسة ومهمته تربية التقوى فى النفوس .. والتقوى هي الغاية التى يتطلع إليها المؤمنون لتفيق ضمائرهم ويتحرك وجدانهم بالمشاعر النبيلة والأخلاق العالية ، فتصل هذه العبادة بين العبد وربه فى سره وجهره ، وتخشع جوارحه لطاعة الله ، ويستقيم لسانه على الصدق واجتناب الفسوق من القول : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة] .

والصيام جنة ووقاية .. وهو واجب التنفيذ والتطبيق فى حياة العبد لتحقيق هذه الوقاية .

روى الجماعة ـ إلا مسلما . عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجه فى أن يدع طعامه وشرابه: أي من لا يترك قول الزور فليس لله إرادة فى قبول صيامه ـ أى لا يقبل صيامه ـ ذلك خلاف ما للصوم من مهمات منها : الصبر ، وضبط النفس ، والنظام ، والرحمة ، وحب العدل والمساواة .

---

(١) الحديث النسائي فى الكبرى وابن ماجه من حديث أم سلمه أن النبي ﷺ وهو فى الموت يقول – وفى حجة الوداع رواه مسلم من حديث جابر ﷺ .

فإذا لم يؤدّ الصيام مهمته فلا فائدة للعبد منه فقد قصر فى صيامه وعطل الأمانة .

والحج فريضة وركن من أركان الإسلام الخمسة ـ وحقيقته فى تربية الخلق والشعور بالمساواة بين الناس الكبير والصغير، والغنى والفقير كلهم بملابس الإحرام واحد ـ يربي الخلق للمسلم فيترك الرفث وهو اللغو وفجر الكلام والمغازلة ويترك الفسوق وهو الخروج من الطاعة والتعدى لحدود الله وترك الحلال وما يحتويه من الخصومة والمراء .

قال سبحانه : ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة] .

فإذا لم تؤدّ هذه الفريضة مهمتها فلا فائدة للعبد منها وقد قصر فى أداء الأمانة .

وهكذا فى كل ما أعلمنا الله به وفرضه علينا وعلمنا الإسلام كيف تكون الأبواب إلى الله، وكيف نعبده ونتقرب إليه لصلاح قلوبنا وتهذيب نفوسنا .. كل ذلك إذا لم يؤدّ فى كل تكليف مهمته فما تحققت الأمانة – ذلك عندما يهمل العبد تطبيق أوامر الله فى حياته ـ فلنعبده سبحانه وتعالى ولا نجحده ، ونشكره فلا نكفره ، ونطيعه فلا نعصاه ، ونذكره فلا ننساه ، لا نعبد إلا إياه ولا نستعين بأحد سواه .

ب ـ **أمانة الكيل والوزن** : والكيل والوزن أمانة فى ذمة الناس بيعاً وشراءا ـ وأمر من الله بالقسطاس المستقيم .. والأمر والنهى من الله أمانة وجب الإلتزام بها وإلا فهى الخيانة والندامة .

والذين ينقصون الناس حقوقهم فى مكاييلهم أو موازينهم عن الواجب لهم يستوفون ما لأنفسهم وينقصون من حق الناس ـ هؤلاء وصفهم الله تبارك وتعالى بالمطففين . فقال سبحانه وتعالى : ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطفّفين] .

وقد علمنا تلك الصفة السيئة فى أهل مدين .. قال لهم نبيهم شعيبا : ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الشعراء] .

أمرهم عليه السلام بإيفاء المكيال والميزان ، ونهاهم عن التطفيف وأن لا يبخسوا الكيل فيعطوه ناقصاً ويأخذوه لأنفسهم تاماً وافياً .. وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما

كانوا يبخسون الناس فى الميزان والمكيال وقال متوعداً لهم : ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين] .

وإنه ليوم عظيم الهول ، كثير الفزع ، جليل الخطب لمن خان هذه الأمانة .. يلجمهم العرق يوم يبعثون بعد مماتهم ويسئلون .. والويل لهم: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ [المطففين] .

ولما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً ، فلما نزلت الآيات إستجابوا لأمر الله وأحسنوا الكيل .

قال الفراء : فهم من أوفى الناس كيلاً إلى يومهم هذا [1] .

وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده بالوفاء فى المعاملة مع الناس بالكيل والوزن ، فقال سبحانه : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٣٥﴾ [الإسراء] .

وشن سبحانه وتعالى الحرب على المطففين الوارثين لقوم شعيب وفى أى صورة فى أمانات المال والحقوق والواجبات وأعد لهم الويل بشدة العذاب ـ وقيل إنه واد فى جهنم يسيل فيه صديد أهل النار .

وخلق الله السموات والأرض بالحق والعدل لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس لديه إلا مخافة الله تعالى إلا أبدله الله فى عاجل الدنيا قبل الأخرة ما هو خير له من ذلك [2] .

فتلك أمانة الكيل والوزن من أداها كما أمر بها الله فقد أدى الأمانة فيها .

جـ ـ **أمانة العدل واستنكار الظلم** : خلق الله سبحانه وتعالى السموات والأرض بالحق الذى لا تستقر الحياة إلا به ، ولا يصلح التدبير إلا به .. ورفع سبحانه وتعالى السماء فوق الأرض بميزان القسط والعدل ، ووضع العدل بين خلقه فى الأرض حتى لا يظلم بعضهم بعضا ، ولا يبخسوا فى الوزن لتكون الأشياء كلها على هذا الميزان الذى لا طغيان فيه ولا خسران : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن] .

---

(١) القرطبي ١٠ / ٧٢٨٦ .

(٢) القرطبي ٥ / ٣٩٨٥ .

والعدل أمانة الضمير ووديعته والحكم به بين الناس من أوامر الله وشريعته .. وما أمر الله خلقه إلا بالخير والفلاح ، وما نهاهم إلا عن الشر والسوء .. يأمر سبحانه بالقسط والإنصاف ، وأداء الفرائض فى الشدة والرخاء ، والمنشط والمكره ، وإعطاء الحقوق وصلة الأرحام ـ وينهى عن كل ما تنكره العقول وتأباه الأخلاق ، وعن الظلم والتعدى على حياة الناس وحقوقهم .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل] .

وجاء الحكم بالعدل مقترناً بأداء الأمانة فى قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء] .

ذلك لأن الحكم بالعدل أمانة .. والأمانة أداء والتزام ، وصيانة لحقوق الرعية .. كل فيما أؤتمن عليه .. وبالعدل تستقر الأمور والأوضاع، وينتشر الأمن والأمان ، وتتحقق السلامة والإطمئنان،وتقوى روابط الثقة بين الحاكم والمحكوم دون خوف أو اضطراب ، وتشد أواصر العلاقات وتوثيق الصلات فتنعم الدنيا بالراحة والأمان والإنصاف ، وتحفظ الحقوق وتصان الأمانات ...

وفى الحديث «إن الله مع الحاكم ما لم يجر. فإذا جار وكله إلى نفسه »[1].

وفى الحديث « وما من وال يلى أمر عشرة إلا جاء يوم القيامة يداه مغلولتان إلى عنقه حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور»[2].

وفى حديث البخارى ومسلم عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله عز وجل ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله إجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته إمرأة ذات حسن وجمال فقال إنى أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه[3] .

---

(١) أخرجه الترمذي فى الأحكام ٤ - وابن ماجه فى الأحكام ٢ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ٢/ ٤٣١ .

(٣) رواه أبوهريرة والحديث متفق عليه .

بذلك فيكون أول السبعة إمام عادل وهو قوام كل مائل عن الحق ، وقصد كل حائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف .

قال الحسن البصرى : الإمام العادل كالراعى الشفيق على ما يرعى ، وكالأب الجانى على ولده ، وكالقلب بين الجوانح تصلح بصلاحه وتفسد بفساده .

والعدل له قاعدة واحدة لا تتغير هى قاعدة الحق التى لا تميل إلى الهوى ، فيها يعطى الحق إلى مستحقيه ، ولا تأخذ المؤمنين فيه لومة لائم ـ يدعونا إلى التعاون والتناصر فيه لتنفيذ شرع الله والحكم بمقتضاه ، وتلك كانت مهمة رسل الله جميعا عليهم الصلاة والسلام ... ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥] .

ميزان القيم والمبادئ والأخلاق توزن به الأعمال وتحفظ به الحقوق ويقضى به بين الناس بالإنصاف ويحكم فيهم بحكم الله فى كتابه .

لكل ذى حق حقه الغنى كالفقير والقريب كالبعيد والعدو كالصديق : ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾ [النساء:١٣٥] .

قائمين لله بالحق شهداء بالعدل : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام] .

فمن أطاع الله فى حقه وعدله جعل الله له الفرج والمخرج من كل ما يضيق عليه ، فلا تحملنكم العداوة على ألا تعدلوا أو تجوروا فى حكمكم .

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة] .

العدل الذى لا يفرق فى الحقوق بين المسلمين وغيرهم ، يعم إنصافه على المؤمن والكافر ، والصديق والعدو ، والأبيض والأسود ، العرب والعجم .. لا تفرقة فيه ولا تجزئه ، ولا وساطة ولا محسوبية .

وفى إحدى غزوات رسول الله ﷺ سرق درع قتادة بن النعمان « والدرع هو القميص الواقي بملفات الحديد المتشابكة من طعن السلاح » فأتى رسول الله ﷺ فقال : إن طعمه بن إبيرق سرق درعي .. فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فألقاها فى بيت رجل يهودي برئ من سرقته وهو زيد بن السمين .

وانطلق الأنصار إلى نبي الله ﷺ يبرئون طعمه من سرقة الدرع وقالوا لرسول الله ﷺ : إن لم يعصمه الله بك يهلك ـ فقام رسول الله ﷺ فبرأه وعذره على رءوس الناس .

ورغم كره اليهود للمسلمين ونشرهم الأكاذيب وإطلاقهم الإشاعات وتضليلهم العقول وطعنهم في رسالة النبي ﷺ وتشكيكهم في وحي السماء وتأليبهم خصوم الإسلام عليه .. إلا أن العدل في الإسلام هو العدل لا تفرقة فيه .

وتأتي التبرئة لليهودي بوحي من السماء في قول الله تعالى : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ [النساء] .

وبرأ الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ اليهودي البرئ وأدان عليه الصلاة والسلام المسلمين الذين تآمروا على إتهامه وهم من أنصار المدينة عدة رسول الله وجنده [1] .

قال القرطبي : وهرب بن أبيرق السارق إلى مكة ، ونزل على سلامة بنت سعد التى أخذت رحله فطرحته خارج المنزل لقول بلغها في بيت من أبيات حسان بن ثابت حيث قال :

وقد أنزلته بنت سعد وأصبحت ... ينازعها جلد إستها وتنازعه

ظننتم بأن يخفى الذى قد صنعتموا ... وفينا نبى عنده الوحى واضعه

فهرب إلى خيبر وارتد .. قال : ثم إنه نقب بيتاً ذات ليلة ليسرق فسقط الحائط عليه فمات مرتدا .

ليس فقط .. ولكن الله تبارك وتعالى قال لرسوله ﷺ لا تكن لمن خان أحداً في نفسه أو ماله خصيما تخاصم عنه وتدافع ، واستغفر ربك مما سلف من خصومتك عن هذا الخائن .. إن الله يصفح عن ذنوب عباده المسلمين ويرحمهم .

قال سبحانه : ولا تخاصم الذين يخونون أنفسهم بالسرقة وأكل الوديعة .. إن الله لا يحب من يخون الناس في أموالهم أو يرتكب الآثام والمعاصي .. وإن الذين يستخفون بقبائحهم من الناس حياءاً وحذرا فإن الله مطلع عليهم وبيده العقاب والعذاب ، وهو أحق أن يستحيا منه ، فهو المطلع على كل شيء.

---

(١) ابن كثير ١/ ٥٥٠ ـ القرطبي ٢/ ٢٠٣٧ ـ الشعراوي ٤/ ٢٣٦١ .

هذا عدل الإسلام الذى لا يفرق بين الناس ـ قال سبحانه وتعالى :

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء] .

إنه العدل المطلق الشامل ينصف بين الناس جميعا فهم جميعاً خلق الله .

ويوم أن تولى أبوبكر الصديق الخلافة قال « أيها الناس الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له ، والقوى فيكم ضعيف حتى أخذ الحق منه » وهذا حق يشد أزر الضعيف حتى ينتصر .

ويوم أن تولى عمر الأمر قال « أيها الناس إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أصبت فأعينونى ، وإن إعوججت فقومونى) فقام إليه رجل وقال : والله ياأمير المؤمنين لو أعوججت لقومناك بسيوفنا !! فما كان من عمر إلا أن قال : الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يقوم إعوجاج عمر إذا إعوج » ومن أقواله رضى الله عنه : أفلح منكم من حفظ من الهوى والغضب والطمع ، ووفق إلى الصدق فى الحديث ـ فإنه يجره إلى الخير ، ومن يكذب يفجر ، ومن يفجر يهلك ، وإياكم والفجور . ما فجور من خلق من التراب وإلى التراب يعود ؟ اليوم حى وغداً ميت ـ أعملوا عمل يوم فى يوم ، واجتنبوا دعوة المظلوم ، وعدوا أنفسكم من الموتى [١] .

فى عهده ﷺ أصاب العراق جدب ، واضطر شعب العراق إلى أن يأتدم الخبز بالزيت ، فلما علم عمر بذلك شاركهم فى طعامه الذى لا يتجاوز الخبز والزيت ، وكان يوماً يتحدث مع الناس فى مجلسه فقرقرت بطنه بصوت يسمعه الجالس .. وخاطب بطنه قائلاً : قرقرى ما تشائين حتى يذهب الله القحط عن المسلمين [٢] .

ولقد كان عمر بن الخطاب ﷺ ينظر بنور الله فيرى حقيقة تركيبة النفس البشرية وطبيعتها وهو يقول لعماله على الأنصار موصياً لهم بالناس« ولا تضربوا أبشارهم فتذلوهم » كان يعلم أن ضرب البشرة يذل الناس ، وكان الإسلام فى قلبه يريد منه أن لا يذل الناس فى حكومة الإسلام وفى مملكة الله .. فالناس فى مملكة الله أعزاء وليسوا عبيداً للحكام ، ولقد ضربت أبشار بنى إسرائيل فى طاغوت الفرعونية حتى ذلوا ـ بل كان

---

(١) حياة الصحابة للكاندهلوي ٣ / ٤٥١ .

(٢) مجلة التوحيد ٣/ ١٧ / ١٤٠٩ .

ضرب الأبشار هو أخف ما يتعرضون له من الأذى فى فترات الرخاء .. ولقد ضربت أبشار المصريين كذلك حتى ذلوا هم الأخرون .. ولم يستنقذ الخلق من هذا الذل إلا الإسلام ـ يوم جاءهم بالحرية فأطلقهم من عبودية البشر للبشر إلى عبودية رب البشر .

فلما أن ضرب ابن عمرو بن العاص فاتح مصر وحاكمها ظهر ابن القبطي من أهل مصر ولعل سياط الرومان كانت آثارها على ظهره ما تزال، غضب القبطى لسوط واحد يصيب ابنه من ابن فاتح مصر وحاكمها، وسافر شهراً على ظهر ناقة يشكو إلى عمر بن الخطاب الخليفة المسلم هذا السوط الواحد الذى نال ابنه وهو يصبر على السياط منذ سنوات قلائل فى عهد الرومان[1] .

تلك قصة ابن القبطي الذى سابق ابن عمرو بن العاص فاتح مصر فأخذ ابن عمرو يضرب بن القبطي الذى غلبه فى السباق ويقول : كيف تسبقني وأنا ابن الأكرمين ، فذهب القبطي إلى عمر بالمدينة ، فكتب عمر إلى عمرو يدعوه إلى المدينة ويصطحب إبنه معه .. ولما تحقق عمر بن الخطاب من صدق ابن القبطي أعطاه درته وقال له : اضرب بن الأكرمين كما ضربك ، ثم التفت إلى عمرو وقال : لِمَ تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ [2] .

هذه هي أخلاق الإسلام الذى لا يقبل التفرقة العنصرية ، ويرد على الذين يشعلون الفتن ويبين لهم أن الدين لله وأن الوطن للجميع .

بدل الله بالإسلام حال العباد من الخوف والإضطهاد والإرهاب إلى الأمن والقوة والجراءة بالعز بعد الذل والاستعباد .. وقد رأينا قبل كيف عاش بنو إسرائيل فى ظل الوثنية الفرعونية ففسدت نفوسهم والتوت فطرتهم ، وامتلأت نفوسهم بالجبن والذل من جانب ، والحقد والقسوة من الجانب الأخر . ذلك لما تعرضوا له طويلاً من الإرهاب والطغيان .

وجاء العدل الذى لم تعرفه البشرية إلا بحكم الإسلام ، ورعاية الإسلام ، وحرية الإسلام .

هذه خوله بنت مالك ـ لقيها عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ﷺ فى الطريق فسلم عليها فردت عليه السلام وقالت : هيه « يا عمر » عهدتك وأنت تسمى « عميرا » فى سوق عكاظ تروع الصبيان بعصاك ـ فلم تذهب الأيام حتى سميت « عمر » ثم لم تذهب

---

(١) فى ظلال القرآن للشيخ سيد قطب ٣ / ١٣٦٤ .

(٢) مجلة التوحيد المصرية ٣/ ١٧/ ١٤٠٩ .

الأيام حتى سميت « أمير المؤمنين» فاتقى الله فى الرعية ، واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد ، ومن خاف الموت خشى الفوت .

فقال الجارود : قد أكثرتِ على أمير المؤمنين أيتها المرأة ؟؟ فقال عمر « دعها » أما تعرفها ؟ هذه خولة إمرأة أوس بن الصامت التي سمع الله قولها من فوق سبع سموات ، وعمر أحق أن يسمع لها [١] .

وهو عمر نفسه الذى نصحه رجل بقوله « اتق الله ياأمير المؤمنين ـ فغضب أحد الجالسين وقال للناصح : أتقول لأمير المؤمنين اتق الله ، فقال عمر : دعه فليقلها ـ نعم ما قال . لا خير فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا إذا لم نتقبلها »[٢].

ولما شيع عمر جيش القادسية كانوا أربعة آلاف « ثلاثة آلاف من اليمن وألف من سائر الناس الذين خرجوا من المدينة فقط مع قائدهم سعد بن أبي وقاص » أما جميع من شهد القادسية فقد بلغوا ثلاثين ألفا .. قام فيهم عمر خطيبا فقال : إن الله تعالى إنما ضرب لكم الأمثال وصرف لكم القول « أى بينه ووضحه » ليحيى القلوب ، فإن القلوب ميتة فى صورها حتى يحييها الله ـ من علم شيئاً فلينتفع به ..

وإن للعدل أمارات وتباشير .

... فأما الأمارات فالحياء والسخاء والهين واللين ، وأما التباشير فالرحمة ـ وقد جعل الله لكل أمر بابا ، ويسر لكل باب مفتاحا .. فباب العدل الإعتبار ، ومفتاحه الزهد .. والإعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات ، والإستعداد له بتقديم الأعمال .. والزهد أخذ الحق من كل أحد قبله ، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق ، ولا تصانع فى ذلك أحدا..

واكتف بما يكفيك من الكفاف فإن من لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء ..إني بينكم وبين الله ، وليس بيني وبينه أحد ، وإن الله قد ألزمنى دفع الدعاء عنه فانهوا شكاتكم إلينا فمن لم يستطع فإلى من يبلغناها نأخذ له الحق غير متعتع [٣] .

---

(١) المصباح ٢/ ٣٧ العقد الفريد ٢/ ٣٥٨ .

(٢) ابن كثير ٤/ ٣١٨ - القرطبى ١٠/ ٦٦٨٥ : ٦٦٨٦ .

* نقلاً من مختصر منهاج القاصدين بتحقيق علي حسن عبدالحميد ص ١٧٠ـ ١٧١ .

(٣) غير متعتع : أي من غير أن يصيبه أذى يقلقه ويزعجه .(تاريخ الطبري ٣/ ٤٨٥، البداية والهاية ٧/ ٣٦ ، ١/ ١٩٠ - دكتور محمد عاشور فى خطب عمر بن الخطاب / ٦٢ ، وأمر ﷺ سعداً باليسير.

obeikandi.com

وكتب ﷺ إلى معاوية كتاباً فى القضاء يقول فيه : إذا تقدم إليك الخصمان فعليك بالبينة العادلة أو اليمين القاطعة وإدناء الضعيف حتى يشتد قلبه وينبسط لسانه ، وتعاهد الغريب فإنك إن لم تتعاهده ترك حقه ورجع إلى أهله ، وإنما ضيع حقه من لم يرفق به [١].

ووصى ﷺ عتبة بن غزوان حين وجهه إلى البصرة : ياعتبة إتق الله فيما وليت ، وإياك أن تنازعك نفسك إلى كبر يفسد عليك إخوتك .. وقد صحبت رسول الله ﷺ فعززت به بعد الذلة ، وقويت به بعد الضعف حتى صرت أميراً مسلطا ، وملكاً مطاعا ، تقول فيسمع منك، وتأمر فيطاع أمرك .. فيالها نعمة إن لم ترفعك فوق قدرك وتبطرك على من دونك ! احتفظ من النعمة إحتفاظك من المعصية [٢].

وقال ﷺ ألا وإني ما وجدت صلاح ما ولاني الله إلا بثلاث: أداء الأمانة ، والأخذ بالقوة ، والحكم بما أنزل الله ـ ألا وإني ما وجدت صلاح هذا المال إلا بثلاث : أن يؤخذ من حق ، ويعطى فى حق ، ويمنع من باطل . ألا وإنما أنا فى مالكم كوالى اليتيم إن استغنيت استعففت ، وان افتقرت أكلت بالمعروف [٣].

وقال ﷺ حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا فإنه أهون لحسابكم ـ وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وتزينوا للعرض الأكبر [٤].

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة] .

وحدثنا عبدالرحمن بن زيد عن أبيه عن جده أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: والذى بعث محمداً بالحق لو أن جملاً هلك ضياع بشط الفرات خشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب[٥].

وعن مسروق بن الأجدع قال : ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ فخطب الناس فقال : يأيها الناس ما إكثاركم فى صدقات النساء « أى مهورهن » وقد كان رسول الله ﷺ يقللون ، وإنما الصدقات ما بين أربعمائة درهم فما دون ذلك ، ولو كان الإكثار فى ذلك تقوى أو مكرمة لم تسبقوهم إليها ، فلا أعرف ما زاد رجل فى صداق إمرأة على

---

(١) العقد الفريد ١/ ٨٥ .

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٥٩٣ : ٥٩٤ ـ خطب عمر بن الخطاب للدكتور محمد عاشور - القرطبي ١/ ١٢١

(٣) نثر الدر من ٣٠ : ٣٢ .

(٤) رواه أحمد فى الزهد ١٢٠ -وكنز العمال ٣/ ٤٤٢ وأخرون .

(٥) تاريخ الطبري ٤ / ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

أربعمائة درهم . قال : ثم نزل فأعترضته امرأة من قريش فقالت ياأمير المؤمنين : أنهيت الناس أن يزيدوا النساء فى صدقاتهن على أربعمائة درهم ؟ قال نعم ـ فقالت : أما سمعت ما أنزل الله فى القرآن ؟ قال : وأى ذلك ؟ قالت : أما سمعت الله يقول : ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ [النساء:٢٠] .

فقال عمر : كل الناس لأفقه من عمر .. فرجع فركب المنبر فقال : أيها الناس إنى كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء فى صدقاتهن على أربعمائة درهم فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب وطابت به نفسه فليفعل « وفى رواية أخطأ عمر وأصابت امرأة »[1] .

الحق الذى تشهد به العقول المستقيمة والقلوب النيرة والضمائر الحية ـ والعدل الذى لا شك فيه ولا عدل سواه شرطان يتوقف عليهما صلاح الناس وأمانة فى أعناق الناس يسألون عن أدائها أمام الله ...

وبهذا العدل الذى قرنه الله تبارك وتعالى بأداء الأمانة إلى أهلها أرشد الله عباده المؤمنين أن يكتبوا ما بينهم من معاملات مؤجله ويشهدوا عليه ، وأمر الذى يكتب أن يكتب بالحق ولا يجر فى كتابته على أحد ، ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان .. وأمر سبحانه وتعالى من يعرف الكتابة ألا يمتنع إذا سئل أن يكتب ، وأمر المدين أن يملل للكاتب ما فى ذمته من الدين وأن يتقى الله ولا يكتم منه شيئا ، فإذا كان الذى عليه الحق لا يستطيع لعدم قدرته أو جهله أو لمرضه أو لكبر سنه أو ثقل لسانه فليملل وليه بالعدل .. كل هذه تكليفات ومسئوليات فى أعناق القائمين بها أمانات وجب أداؤها وعدم الإهمال بما جاء فيها .

إلى ذلك تشير الآية وهى أطول آية فى كتاب الله فيها يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة:٢٨٢] .

وقال سبحانه وتعالى فى موضع أخر :

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق:٢].

---

(١) سيرة عمر بن الخطاب لبن الجوزي ١٧٣ ـ تفسير ابن كثير ٢/ ٢١٣ ـ د/ محمد عاشور خطب عمر بن الخطاب .

والآية تأمر بحسن العشرة بين الزوجين والمحافظة على كيان الأسرة ـ يريد بها الإسلام الطهارة وإحياء الضمائر وحفظ الألسنة من التجريح حماية لكرامة الإنسان ـ فإذا ما حدث الفراق بين الزوجين أو عاد الزوج وراجعها فقد يعلم الناس بالطلاق ولا يعلمون بالرجعة فتحدث الريبة وتثار الشكوك والأقاويل ـ لذلك أمر الله بشهادة إثنين من العدول ، وجعل الشهادة فيها لله يحاسب ويجازى عليها .

أمانات غالية كلفنا بها الإسلام لأدائها وصيانتها في كل جوانب التشريعات الإسلامية التي لا تتجزأ .

وليس الحكم بالعدل مقتصراً على القضاة وحدهم إنما هي أمانة التكليف لكل راع فيما هو مسئول فيه عن رعيته .

روى البخاري عن بن عمر رضي الله عنهما : عن النبي ﷺ قال : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيتها ، والخادم في مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته.

وعلى كل منا أن يقف من نفسه ومن أخيه ومن أهله ومن الناس جميعاً موقف القاضي فيحاسب نفسه قبل أن تحاسب ، ويزن أعماله قبل أن توزن عليه .

لقد منع الله نفسه من الظلم لعباده فقال سبحانه :

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [آل عمران] .

وكثير من آيات القرآن تحذر خلق الله من الظلم ، وقد وجه الله سبحانه وتعالى إليهم جميعاً خطاباً يقول فيه « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا »[١] .

«وعن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم »[٢] .

---

(١) رواه مسلم عن أبي ذر ﷺ .

(٢) رواه مسلم .

«وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين »[١] .

«وعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ـ فقال: إن المفلس من أمتي من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ـ ويأتى قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ـ فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ـ فإن فنيت قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار»[٢] .

«وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو من شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ـ إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»[٣] .

وعن أبي موسى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته ثم قرأ ﷺ[٤] .

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود] .

وكم ذكرنا القرآن الكريم بمصير الظالمين .

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿١٥﴾﴾ [ق] .

أعلمنا الحق تبارك وتعالى أن الذين اتخذوا أنداداً من دون الله ظلموا الحق وظلموا أنفسهم ، ولو أنهم مدوا بأبصارهم إلى اليوم الذى يقفون فيه بين يدى الله لرأوا أن القوة لله وحده وأنه لا إله إلا الله ـ فقال سبحانه وتعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة] .

وأوضح لنا سبحانه وتعالى حال الظالمين حينما يفزعون بما يقع وبما عملته أيديهم ـ وعلى الوجه المقابل أعلمنا سبحانه وتعالى كيف حال المؤمنين عندما يأتيهم فضل الله بلا حدود ولا قيود ـ قال جل فى علاه .

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه البخاري .

(٤) متفق عليه .

﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّٰتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الشورى] .

وأعلمنا سبحانه وتعالى أنه لا سلطان لأحد على من ينتصر بعد ظلمه ، إنما الذين يجب الوقوف فى طريقهم هم الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق ـ فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الشورى] .

ذلك لأن الأرض لا تصلح وفيها ظالم لا يقف له الناس ليمنعوه .

وويل للظالمين والكافرين ، ويل للمشركين والمعاندين والمستكبرين ، ويل للخارجين عن دين الله ، والعابثين بشرعه ، والمستهزئين بمنهجه ... ويل لهم جميعاً يوم القيامة - هذا اليوم الطويل الذى تقشعر منه الجلود ، وتنخلع لهوله القلوب .. تعرض فى هذا اليوم أعمال العباد ، ويتقرر فيه المصير .

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس] .

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : تحشرون عراه غرلا ـ أو قال : تحشرون حفاة عراه مشاه غرلا ـ فقالت إمرأة : أيبصر أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ وفى رواية قالت عائشة يا رسول الله فكيف بالعورات ؟ فقال : لكل إمرء منهم يومئذ شأن يغنيه [١] .

«قال الحسن : أول من يفر يوم القيامة من أبيه إبراهيم ، وأول من يفر من ابنه نوح ، وأول من يفر من إمرآته لوط » .

فإذا كان يوم القيامة أذن مؤذن ليتبع كل أمة ما كانت تعبد فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار ، ثم يدعي عبدة العزير لعنهم الله وعبدة المسيح ـ ويحشر الجميع إلى جهنم [٢] .

---

(١) رواه الترمذي والنسائي (ابن كثير ٤/ ٣٢٤) .

(٢) التذكرة للقرطبي ١/ ٤٦٨ .

«ويوم القيامة تدعى الأمم بأنبيائها فيقال : يا أمة موسى ، يا أمة عيسى ، يا أمة محمد.. غير المحبين لله فإنهم ينادون .. يا أولياء الله هلموا إلى الله سبحانه .. فتكاد قلوبهم تنخلع فرحا»[١] .

«ويوم القيامة يلقى إبراهيم أباه » .

«عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: يلقي إبراهيم أباه أزر يوم القيامة وعلى وجه أزر قترة وغبرة ـ فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصنى .. فيقول له أبوه فاليوم لا أعصيك .. فيقول إبراهيم يارب : إنك وعدتنى أن لا تخذنى يوم يبعثون ، وأى خزى أخزى من أبى الأبعد .. فيقول الله إنى حرمت الجنة على الكافرين .. ثم يقال ياإبراهيم : ما تحت رجليك .. فينظر فإذا هو بذبح يتلطخ فيؤخذ قوائمه فيلقى فى النار»[٢] .

«ويوم القيامة تتبرأ الأوثان من عبادها والرؤساء من السفلة ، وكل صداقة وصحابة لغير الله تنقلب عداوة ، وعندما تتلاقى الأرواح يرى كل خليل خليله ، وصارت كل خلة عداوة إلا المتقين » .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزُّخرُف] .

«ويوم القيامة يشهد محمد ﷺ وأمته تحقيقاً لشهادة الرسل على أقوامهم ، وتشهد الأرض والأيام والليالى بما عمل فيها وعليها ، وتشهد الجوارح على أصحابها » .

﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [فُصِّلَت] .

وإن كل أحد يقول يوم القيامة نفسي نفسي من شدة أهوالها[٣] .

ويوم القيامة يطوى الله السماء ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أنا الملك ـ أين الجبارون ـ أين المتكبرون ـ ثم يطوى الأرض بشماله ، ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون[٤] .

---

(١) التذكرة للقرطبي ١/ ٤٣٧ .

(٢) هكذا رواه البخاري منفردا (البداية والنهاية ١/ ١٦٢) .

(٣) التذكرة ١/ ٤٤٧ .

(٤) انفرد به مسلم .

فإذا لم يبق إلا الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد كان أخراً كما كان أولاً . طوى السموات والأرض كطى السجل للكتاب ، ثم دحاهما ثم تلقفهما ثلاث مرات وقال : أنا الجبار «ثلاثا» ثم ينادى لمن الملك اليوم ؟ « ثلاثاً » فلا يجيبه أحد ثم يقول مجيباً لنفسه «لله الواحد القهار » [١] .

قال المقداد بن الأسود : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قيد ميل أو ميلين » قال سليم : لا أدرى الميلين مسافة الأرض أم الميل الذى يكحل به العين ... قال:فتصهرهم فيكونون فى العرق بقدر أعمالهم، فمنهم من يأخذه العرق إلى عقبيه ، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من يلجمه إلجاما ـ قال : فرأيت رسول الله ﷺ يشير بيده إلى فيه قال : يلجمه إلجاما [٢] .

فإذا قام الناس من قبورهم وجدوا الأرض غير صفة الأرض التى فارقوها ـ قد دكت جبالها ، وزالت تلالها ، وتغيرت أحوالها ، وانقطعت أنهارها ، وبادت أشجارها ، وسجرت بحارها ، وتساوت مهادها ورباها ، وخربت مدائنها وقراها ـ وقد زلزلت زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ـ وقال الإنسان مالها .

وكذلك السموات قد بدلت ونجومها انكدرت وانتثرت ، ونواحيها قد تشققت ، وأرجاؤها قد تفطرت ، والملائكة على أرجائها قد أحدقت ، وشمسها وقمرها مكسوفان ـ بل مخسوفان ، وفى مكان واحد مجموعان ، ثم يكوران بعد ذلك ـ ثم يلقيان [٣] .

وقضت سنة الله تبارك وتعالى فى تأخير عذاب الظالمين لإمهال القصاص، وليس للرضا بأفعال العباد .

قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم] .

ولو أخذ الله الخلائق بذنوب المذنبين لأصاب بالعذاب جميع خلقه ، ولكنه سبحانه وتعالى يأخذ بالعفو والفضل ويعفو عن كثير .

---

(١) البداية والنهاية (الملاحم ١/ ١٦٨) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا (الملاحم البداية والنهاية ٨ – ١ / ٢٠٢) .

(٣)التذكرة - الملاحم ابن كثير ٢٠٧ .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل] .

والعاقل من أنصف نفسه قبل أن ينتصف الله منه ، وإلا فهو الفساد فى الأرض حينما يتجاوز الإنسان حده، ويضع أوامر الله فى غير موضعها ، فيظلم بذلك نفسه، ويظلم ربه ، ويبغى على خلق الله فى أرضه ... وتلك كلها معاصى ، والمعصية أنواع ـ وميراث من أمة سابقة .. أولها وأخطرها الخروج عن دين الله : إما بالكفر والعياذ بالله لقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ [البقرة] .

وإما بالشرك والعياذ بالله لقول الله تعالى : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان] .

فذلك ظلم من المخلوق لخالقه ، ومن مات على شيء من ذلك مات مشركاً كافرا لا يغفر الله له أبدا : ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء:٤٨] .

وأما النوع الثانى من المعصية فى ظلم الناس بعضهم بعضا بالأذية فى الأعراض والأموال والأبدان ـ وفى هذا إعتداء على حقوق الناس كما سبق أن أوضحنا من قبل من لسان العلماء .. ومغفرة الله فيه مشروطة بعودة الحقوق إلى أصحابها ورد المظالم .. وإلا فالقصاص شديد .

وألوان أخرى يظلم الإنسان بها نفسه عندما يرتكب الذنوب والسيئات ويعرضها للعنة الله والبعد عنه سبحانه ، وعندما يهمل الإنسان حق الله فى خلقه من وفاء بالوعود والعهود ، وحفظ أمانات الناس ، ورعاية الحقوق للجيران والجوار ،، وكم يظلم الإنسان نفسه بالتذلل لغير الله والتكبر على خلق الله .

قال بن الجوزي رحمه الله : الظلم يشتمل على معصيتين : أخذ مال الغير بغير حق ، ومبارزة الرب بالمخالفة .. والمعصية فيه أشد من غيرها.

قال الشافعي رحمه الله : أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه ، ورغب فى مودة من لا ينفعه،ومدح من لا يعرفه... أظلم الظالمين لنفسه اللئيم إذا ارتفع جفا أقاربه ، وأنكر معارفه ، وأستخف بالأشراف ، وتكبر على ذوي الفضل .

«ولا إكراه للعبد يوم القيامة من أن يقف أمام الله وقد ظلم هذا وسب هذا وأكل مال هذا وتجاوز حدود الله وشرعه وشريعته».

«عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فقال : اتقى دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[١].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين – الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا[٢].

«وعن أبي هريرة ﷺ ـ أن رسول الله ﷺ قال : لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاه الجلحاء من الشاه القرناء »[٣].

«وعن خوله بنت عامر الأنصارية وهي امرأة حمزة ﷺ وعنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول إن رجالاً يتخوضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة »[٤].

والإسلام يدعوك أن تمنع نفسك مما فيه هلاكها بالبعد عن الأطماع ولزوم القناعة في كل حال .. يدعوك الإسلام إلى العدل والخير والكرامة ، وأن تؤثر حق الله على حظ نفسك وتقدم رضا الله على هواك .. يدعوك الإسلام أن تكف يدك عن ظلم الناس وإهانتهم وقد حملك رعاية الأمانة ، الأمانة في نفسك وفي كل ما ترعاه وتملكه وتحكم فيه .. وعليك الوفاء بتلك الأمانة ، وأعلم أن آيات الله قد كملت صدقاً في الأخبار والأقوال وعدلاً في الأحكام ، وأنه لا يخفى على الله الحكم العدل فإنه سبحانه السميع لأقوال العباد والعليم باحوالهم : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأنعام] .

«فمن تجاوز الحد وتصرف في ملك غيره .. فهو ظالم».

«ومن ضرب الناس وشتمهم وتعدى عليهم واستطال على الضعفاء منهم..فهو ظالم».

«ومن أخذ حقه من رعيته ولم ينصفهم من نفسه ويدفع الظلم عنهم .. فهو ظالم » .

«ومن كان زعيماً في قوم يطيعونه ولا يساوى بين القوى والضعيف ، ولا يحكم بعدل الله ، ويحكم بهواه ...فهو ظالم » .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه مسلم والنسائي .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه البخاري .

«ومن لا يأمر أهله وولده بالصلاة والتخلق بأخلاق رسول الله ﷺ ، ولا يعلمهم أمر دينهم .. فهو ظالم » .

«ومن ميز أحداً من أولاده على الأخر أو إحدى زوجاته ، ولم يوف صداق امرأته أو نفقتها أو كسوتها .. فهو ظالم » .

«ومن أخذ مال اليتيم فهو ظالم ، ومن لم يرع حق جاره فهو ظالم ، ومن استأجر أجيراً فاستوفى منه العمل ولم يوفه أجره .. فهو ظالم » .

«ومن كان عليه حق يستطيع وفاؤه ولكنه يماطل فيه فهو ظالم» .

واعلم أنك لا تأتى الناس شيئاً إلا كان زائلاً عنهم باقياً عليك ، ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب .. يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول « وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين » .

وغداً يقف الحاكم والمحكوم ، والظالم والمظلوم – بين يدى الله حينما ينادى المولى : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾ [غافر] .

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الانفطار] .

الحق أمانة فى عنقك لا تخش أحداً فيه ولا تستحى من أداء الأمانة فيه .. والعدل قسط الله فى الأرض وكَّل به كل خلقه ، كل فيما يملك ويقضى وهو أمانة فى عنقك . فإذا قضيت فيما تملك فأقض بأمانة وأدِّ الحق فيها .

واخشع لملك الملوك ورب الأرباب ، وليس الخشوع فى الرقاب .. إنما الخشوع فى القلوب لمقلب القلوب ،، وإذا هممت بظلم أحد أو دعتك قدرتك على ظلم الناس .. فتذكر قدرة الله عليك .. فعين الظالم تنام ، والمظلوم منتبه يدعو عليه ، وعين الله سبحانه وتعالى لا تنام ... وسيعلم الذين ظلموا أى مرجع يرجعون إليه بعد مماتهم .. فإنهم يصيرون إلى نار السعير ، ذلك إخبار من العليم القدير بالوعيد فى عقاب الظالمين المعرضين .

﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ [الشعراء] .

د ـ أمانة الجوارح : وجوارح الإنسان نعم عظيمة من الله تعالى أنعم بها الله على خلقه من ساعة علوقه نطفه فى رحم أمه إلى أن يلقي ربه .

obeikandi.com

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل] .

فبين سبحانه أن الإنسان ظالم لنفسه جاهل بنعم الله عليه ـ وأن الله تبارك وتعالى يصفح ويرحم وهو غفور لمن تاب ورحيم لمن أناب .

وفيما يبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه يقول ربنا تبارك وتعالى « يابن أدم قد انعمت عليك نعماً عظاما لا تحصى عددها ولا تطيق شكرها ، وإن مما أنعمت عليك أن جعلت لك عينين تنظر بهما وجعلت لهما غطاء فأنظر بعينيك إلى ما أحللت لك فإن رأيت ما حرمت عليك فأطبق غطاءهما » .

وجعلت لك لساناً وجعلت له غلافاً فأنطق بما أمرتك وأحللت لك فإن عرض عليك ما حرمت عليك فأغلق عليك لسانك .

وجعلت لك فرجا وجعلت لك سترا فأصب بفرجك ما أحللت لك فإن عرض عليك ما حرمت عليك فأرخ عليك سترك .. يابن أدم إنك لا تحمل سخطى ولا تطيق إنتقامى [1] .

ولله على خلقه فى نعم الجوارح أمانة .. هي أمانة العبودية والشكر والطاعة ـ فوظيفة الأذن أن تنصت وتستمع لآيات الله وسنة رسوله ﷺ ، ومجالس العلم ، وخطبة الجمعة ، وما يعود بالنفع من أمور الدين والدنيا المختلفة .. وترفض الإنصات للفتنة والغيبة والنميمة ، والقيل والقال ، ومعازف الشيطان وآلات الطرب والمغنى «فتلك عبودية الأذن ما لم يصبها الصمم » .

والمعلوم أن المرء يُسأل عن سمعه وبصره وفؤاده ماذا فعل بها ؟ هل قام بشكر واهبها فأستعملها فيما خلقت لأجله أم لا ؟

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء] .

ووظيفة العين أن ترى آيات الله فى خلقه ونعم الله التي لا تحصى، وتبصر الطريق إلى الله بدوام النظر فى كتابه، والقراءة فى حلاله وحرامه للتحلى بها فى كل ما تراه من أمور الدنيا ، والتخلى عما هو دون ذلك من كتب الإثارة ورؤية المراقص والملاهى، وأن تستحى من المحرمات والمكروهات « وتلك عبودية العين ما لم يلحقها العمى» .

---

(١) رواه الحافظ بن عساكر في ترجمة أبي الربيع الدمشقي عن مكحول (ابن كثير ٤/ ٥١٢) .

النظر يورث الشهوة ويستدرج صاحبه إلى الوقوع في الإثم والعصيان. لذلك حذر القرآن الكريم من فضول النظر. فقال سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور].

وقال عليه الصلاة والسلام النظرة سهم من سهام إبليس[1].

وأعلمنا ﷺ أن للطريق حق وحق الطريق غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2].

وقال عليه الصلاة والسلام: لتغضن أبصازكم ولتحفظن فروجكم أو ليكسفن الله وجوهكم[3].

ووظيفة اللسان أن ينطق بالشهادتين ويتلو ما يلزم من القرآن ويداوم على الذكر والتسبيح، وتعليم الجاهل وإرشاد الضال إلى طريق الهدى، وأداء الشهادة بالحق وبأمانة الله، وصدق الحديث، والتخلي عن الخوض في الباطل، وقول الزور والفحش والسب والمزاح والسخرية والاستهزاء وإفشاء الأسرار وإخلاف الوعد والكلام فيما لا يعنيك «وتلك وظيفة اللسان ما لم يلحقه البكم والخرس».

... فمن يرحم يرحم،، ومن يصمت يسلم،، ومن يقل الخير ينعم،، ومن يقل الشر يأثم،، ومن لا يملك لسانه يندم،، ومن كثر كلامه كثر خطؤه وسقطه، ومن كثر سقطه وخطؤه كثرت ذنوبه وقل حياؤه .. ومن قل حياؤه قل ورعه .. ومن قل ورعه مات قلبه.

وهكذا فلكل جارحة من الجوارح أمانة في العبودية والطاعة، في الخير والعطاء، والصلاح والحلال .. وتنفر من كل عيب يهين كرامة الإنسان المسلم، وتأنف منه النفوس الطاهرة.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس].

فإذا ما صارت المعاملة مع الله بالقلب حفظ العبد أمانة جوارحه بغير تفريط أو إهمال.

---

(١) من حديث حذيفه (القرطبي ٦ / ٤٧٦٣) الأحياء ١/ ٢٣٥.

(٢) عن أبي سعيد الخدري وخرجه البخاري ومسلم.

(٣) الطبراني عن طريق عبدالله بن يزيد عن أبي أمامه مرفوعاً.

والقرآن الكريم يصف الذين لا يصغون إلى الباطل ولا يستمعون إليه ولا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم وإذا سفه عليهم سفيه أعرضوا عنه ولم يصدر عنهم إلا الكلام الطيب يصفهم القرآن الكريم بقوله : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص] .

ويقتضي لمن تهيأت جوارحه لطاعة الله أن يعترف بنعم الله ، ويداوم على شكرها وتصريفها فى مرضاة وليها ، بحبس النفس عن التسخط بالمقدور ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن المعصية .. وتعظيم خالقها بدوام شكره وذكره .. وأن تستحضر قلبك مع الله لا تغفل عنه ولا تذهل عن ذكره ، فالذكر يطرد الشيطان ، ويرضى الرحمن ، ويزيل الهم والغم ، ويجلب النعم ، ويدفع النقم ، وينور الوجه والقلب ، ويورث الإنابة والقرب من الله ، والهيبة لجلاله ، ويحط الخطايا، وينجى من عذاب الله ، ويورث الحياة فى القلوب ، ويذهب المخاوف ، ويوجب الأمان .

قال معاذ بن جبل ﷺ : أخر كلام فارقت عليه رسول الله ﷺ أن قلت : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله [1] .

والمعصومون من شر إبليس وجنوده ثلاثة « الذاكرون الله كثيراً بالليل والنهار .. والمستغفرون بالأسحار .. والباكون من خشية الله» .

وقد وصف الحسن البصرى رحمه الله الذكر على سبعة أنحاء .. « فذكر العينين البكاء ، وذكر الأذنين الإصغاء ، وذكر اللسان الثناء ، وذكر اليدين العطاء ، وذكر البدن الوفاء ، وذكر الروح الخوف ، وذكر القلب التسليم والرجاء » وأهل الخشية هم أهل العلم بالله وأيامه وأحكامه ، وحكمة أحكامه .

فمن تذكر ذكر ، ومن ذكر شكر ، ومن شكر استحضر قلبه مع الله، ومن استحضر حضر ، ومن حضر نال المزيد من خير الله وبركته فى الدنيا والآخرة تحقيقاً للوعد الإلهي : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم].

والشكر بالعينين إذا رأيت بهما خيراً ذكرته ، وإن رأيت بهما شراً سترته .. والشكر بالأذنين أن إذا سمعت بهما خيراً حفظته ، وإذا سمعت بهما شراً نسيته .. ومن لم ينتفع

---

١ – رواه الطبرانى

بعينيه لم ينتفع بأذنه ،، وأن الشياطين لتحوم حول قلوب الناس تضلهم عن نور الله ، وتصدهم عن هداية الله .. فوجه قلبك لله لا تدخل فيه حباً غيره .. وبدنك لله لا تشغله بخدمة غيره .. ولسانك لله لا تذكر به أحداً غيره .. وإذا أردت شيئاً لا تطلبه إلا من الله الذى ذللت قلبك وجوارحك لرضاه .. وللعبد ستر بينه وبين الله ، وستر بينه وبين الناس .. فمن هتك الستر الذى بينه وبين الله هتك الله الستر الذى بينه وبين الناس .

وفى وصية لقمان الحكيم لولده قال : يا بني إني موصيك بثمانية أمور إن أنت عملت بها كنت سعيداً في الدنيا والآخرة « احفظ قلبك فى الصلاة،واحفظ نظرك في بيوت الناس، واحفظ لسانك في مجالس الناس، واحفظ بطنك من حلقومك ، واذكر اثنين وانسى اثنين .. أذكر الله والموت وانسى إحسانك للناس وإساءتهم إليك . وسئل عن سبب نعمته فقال : غض بصري ، وكف لساني ، وعفت طعمتي ، وحفظي فرجي ، وقولي بصدقي ، ووفائي بعهدي ، وتكرمتي ضيفي ، وحفظي جاري ، وتركي ما لا يعنيني » .

وقالوا : معالى الأمور فى الترفع عن الدنايا والغضب عند الإحساس بالنقص والغيرة لإنتهاك الحرمات .

وجاء فى الآثار أن أسامة بن زيد اشتكى قسوة قلبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه الصلاة والسلام : جمود العين من قسوة القلب ، وقسوة القلب من كثرة الذنوب ، وكثرة الذنوب من نسيان الموت ، ونسيان الموت من طول الأمل ، وطول الأمل من حب الدنيا ، وحب الدنيا رأس كل خطيئه .. ووضع النبى صلى الله عليه وسلم يده الشريفة على صدره قائلاً : أخرج ياعدو الله .. فبكى أسامة ورق قلبه .

قال بن قيم الجوزيه : واستقامة القلب والجوارح تتحقق بمحبة الله تعالى ، واستقامة القلب على تعظيم الأمر والنهى ، وهو ناشئ عن تعظيم الآمر الناهى ، فإن الله تعالى ذم من لا يعظم أمره ونهيه .

فقال سبحانه : ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح] .

.. أى مالكم لا تخشون لله تعالى عظمة ـ وقال : أبدان الغافلين قبور لقلوبهم ، وقلوبهم فيها كالأموات فى القبور [١] .

---

(١) الكلم الطيب لابن قيم الجوزية .

هـ ـ والشهادة أمانة : يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾ [البقرة] .

أى أدوا الشهادة ولا تكتموها لترد الحقوق إلى أربابها والمظالم إلى أصحابها ، وقال العلماء أن شهادة الزور من أكبر الكبائر وكذلك كتمانها .. فالشهادة أمانة ومن يكتمها فإنه فاجر مكتسب بذلك معصية الله العالم بجميع الأعمال والمجازى عليها إذ أمرنا سبحانه وتعالى بتقواه ، وأخبر المسافرين إذا لم يجدوا كاتباً يكتب لهم أمر الدين أن يرتهنوا بهذه الديون رهوناً يقبضونها لتكون ثقة لهم بأموالهم ... قال تعالى :

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ [البقرة:٢٨٣] .

فإن إئتمن الناس بعضهم ولم يأخذوا رهناً للثقة فيما بينهم فليدفع المدين دينه الذى أؤتمن عليه ، وليخف الله ربه أن يجحده حقه فيتعرض لعقوبته : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾ [البقرة].

.. المدين مؤتمن على الدين ، والدائن مؤتمن على الرهن ، وكلاهما مدعو لأداء ما أؤتمن عليه ، والشاهد مؤتمن على صدقه وضميره والثقة التى أودعها الله فى قلبه بإخلاص النية وتقوى الله.

عن أبي هريرة ﷺ ـ عن النبي ﷺ أنه قال: من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله ومن أخذ ديناً وهو يريد أن يؤديه أعانه الله عليه [1] .

فليتقوا الله فى أموال الناس: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ﴾ [الطلاق] .

والأعمال بالنيات والنية الخبيثة تبدد المال وتقضى على صاحبها بالفقر والهلاك والخسران ، والشهادة بالزور خسار وبوار وكتمانها إثم توعده الله بالعذاب ، فهو حق وجب أداؤه كحق أداء المدين لدينه ، وتلبية الدعوة للشهادة فريضة فيها يظهر الحق وتقام شريعة العدل : ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ [البقرة:٢٨٢] .

والكتاب والشهداء مكلفون بالحيدة والذمة وأداء ما تمليه عليهم ضمائرهم وثقة الناس فيهم وثقتهم بأمر الله فيهم وتكليفه ، والقرآن يدعو المؤمنين إلى تقوى الله ويذكرهم بأن

---

(١) من رواية البخاريوابن ماجه وغيرهما .

الله هو المتفضل عليهم .. وعليهم القيام بواجبهم كل فيما كلفه الله به ،، والشهادة أمانة فى عنق الشاهد وقلبه .

وفى الحديث عن النبي ﷺ قال : يطبع المؤمن على كل شيئ إلا الخيانة والكذب (١) .

وقال بن مسعود ﷺ: يؤتى يوم القيامة بصاحب الأمانة الذى خان فيها فيقال له : أدّ أمانتك فيقول : أنى يارب وقد ذهبت الدنيا ؟ قال فتمثل له كهيئتها يوم أخذها فى قعر جهنم ثم يقال له إنزل إليها فأخرجها(٢) .

وما أجهل النفوس إذا ضلت ، والضمائر إذا انعدمت ، والشهود إذا ما أبوا عن شهادتهم للحق الذى يقام به العدل ، أو كتموها فعطلوا رد الحقوق إلى أصحابها .

و ـ والغلول خيانة وكبيرة من الكبائر : ومن الأمانة ألا يستغل الرجل منصبه أو سمعته ووجاهته وجاهه فى الغلول بما لا يحق له ، ويتستر فى جلب المنفعة الشخصية فى الخفاء ـ بالظلم والجهل ـ الآفتان اللتان لا يتحقق للناس الإيمان إلا بزوالهما .

يقول رسول الله ﷺ : والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حله إلا لقى الله يحمله يوم القيامة فلأعرفن أحداً منكم لقى الله يحمل بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاه تبعر ، ثم رفع يديه حتى رؤى بياض إبطيه يقول : اللهم قد بلغت (٣) .

وكم من هؤلاء الذين أفسدوا علينا ثرواتنا وأتلفوا لنا الأرض والطعام والخضار والفاكهة ، وجاءوا بالمعلبات الفاسدة والبلاوى المستوردة ، وأخذوا من ورائها البلايين وهربوا .

وكانت العرب ترفع للغادر لواء ، وكذلك يطاف بالجانى مع خيانته .

فى صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال : قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال : لا ألفين أحدكم يجيئ يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء

---

(١) رواه أحمد عن وكيع عن الأعمش عن أبى همامة - والخيانة قبيحة فى كل شيئ وبعضها شر من بعض وكتمان الشهادة خيانة .

(٢) فى الترغيب والترهيب ورواه أحمد والبيهقى وقال فيه الصلاة أمانة والوضوء أمانة والوزن أمانة والكيل أمانة وأعظم ذلك كله الودائع

(٣) رواه البخاري ومسلم - رغاء بضم الراء صوت البعير ، وخوار بضم الخاء صوت البقرة ، والبعار صوت الغنم .

وذكر فرساً له همهمه ، وكل من حمل حملاً على رقبته يستغيث برسول الله ﷺ فيقول له الرسول عليه الصلاة والسلام لا أملك لك من الله شيئا ـ قد بلغتك[١] .

والغلول كبيرة من الكبائر «في القرطبي » وهو الأخذ في الخفاء.. وأطلق شرعاً على الخيانة في الغنائم .

ومن معاني الأمانة أن يؤدى كل ما أؤتمن على شيء واجبه ويتقيه ويراعي الله فيه فإن استهان الفرد بما كلف به وإن كان تافهاً استشرى الفساد ، وعمت الخيانة .

قال عليه الصلاة والسلام : إذا جمع الله بين الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء يعرف به فيقال : هذه غدرة فلان[٢].

ومن يخن من غنائم المسلمين شيئاً يأتى به يوم القيامة يحمله على عنقه، فتعطى كل نفس جزاء عملها وافياً لا ينقصون شيئا .

قال تعالى : ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [آل عمران] .

وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد .. القليل والكثير لا يحل أخذه ، وعلى الغال أن يرد جميع ما غل إلى صاحبه قبل أن يفترق الناس إن وجد السبيل على ذلك .

قال عليه الصلاة والسلام : إياكم والغلول فإن الغلول خزى على صاحبه يوم القيامة .. أدوا الخيط والمخيط وما فوق ذلك وجاهدوا في سبيل الله القريب والبعيد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة . إنه لينجى الله به الهم والغم ، وأقيموا حدود الله في القريب والبعيد ولا تأخذكم في الله لومة لائم [٣].

وقال عليه الصلاة والسلام : أعظم الغلول عند الله ذراع من الأرض تجدون الرجلين جارين في الأرض أو في الدار فيقطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعا فإذا قطعه طوقه سبع أرضين يوم القيامة [٤].

---

(١) الحديث لمسلم عن أبي هريرة ـ ورواه أحمد - ابن كثير ٤٢١ .

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه أحمد عن عبدالله (ابن كثير ٤٢٢) .

(٤) رواه الإمام أحمد عن أبي مالك الأشجعي .

عن عبدالرحمن بن جبير قال : سمعت المستورد بن شداد يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : من ولى لنا عملاً وليس له منزل فليتخذ منزلا ، أو ليست له زوجه فليتزوج ، أو ليس له خادم فليتخذ خادما، أو ليس له دابة فليتخذ دابة .. ومن أصاب شيئاً سوى ذلك فهو غال [١] .

وروى ابن جرير الطبري .. لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض أقبل رجل بحق معه ، فدفعه إلى صاحب الأقباض .. فقال والذين معه ما رأينا مثل هذا قط ! ما يعدله ما عندنا وما يقاربه فقالوا : هل أخذت منه شيئا ؟ فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به .. فعرفوا أن للرجل شأناً فقالوا من أنت ؟ فقال لا والله لا أخبركم لتحمدونى ، ولا غيركم ليقرظونى .. ولكن أحمد الله وأرضي بثوابه ، فأتبعوه رجلاً حتى إنتهى إلى أصحابه فسأل عنه فإذا هو « عامر بن عبد قيس » وقد حملت الغنائم إلى عمر ﷺ بعد القادسية وفيها تاج كسرى وإيوانه لا يقومان بثمن .. فنظر ﷺ إلى ما أداه الجند فى غبطة وقال إن قوماً أدوا هذا لأميرهم لأمناء .

ذلك أيضاً أنه من الأمانة ألا يستغل الرجل منصبه الذى عين فيه لجر منفعه إلى شخصه أو قرابته ، فإن التشبع من المال العام جريمة ويعتبر إختلاس من مال الجماعة الذي ينفق فى حقوق الضعفاء والفقراء .

قال عليه الصلاة والسلام : من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول [٢] .

ز ـ والأموال أمانة : لا ينكر الإسلام على أحد جهده الذى يسعى به لتحصيل المال مادام من الطرق التي أحلها الله والتي يبتغي فيها رضي الله وتقواه ، ولم يكن سعى الإنسان وجهده إلا بعون الله الذى جعلنا مستخلفين فيه بوراثته من الآباء والأجداد .. ولم يكن ملكاً لأحد فقد تركوه جميعاً ورحلوا من الدنيا ، ونحن تاركوه ليتولي أبناؤنا رعايته ويتركوه .. جيل يرث من جيل .. كله من خير الله ، ورزق الله وعطاء الله .. ويعود إلى الله كل شيء فيحاسب الناس عليه من أين جمعوه ؟ وفى أى شيء صرفوه ؟ قال تعالى : ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الحديد] .

---

(١) رواه الإمام أحمد .

(٢) رواه أبوداود .

أخِلاَّء بنى أدم ثلاثة « واحد يتبعه إلى قبض روحه ـ والثاني إلى قبره ـ والثالث إلى محشره » فالذى تبعه إلى قبض روحه فهو ماله ، والذى يتبعه إلى قبره فهو أهله ، والذى يتبعه إلى محشره فهو عمله ...قال النبى صلى الله عليه وسلم: يتبع الميت ثلاثة« أهله وماله وعمله . فيرجع إثنان ويبقى واحد . يرجع أهله وماله ويبقى عمله »[١] .

وقال عليه الصلاة والسلام : لا تزول قدما عبد حتى يسئل عن عمره فيم أفناه وعن علمه فيم فعل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيم أبلاه[٢] .

ويقول عليه الصلاة والسلام : ألهاكم التكاثر ، يقول ابن أدم مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت[٣].

لقد أباح الله سبحانه وتعالى لخليفته فى الأرض أن يتمتع بكل طيبات الحياة ويستمتع بكل ما أحله الله من الرزق الحلال والكسب الحلال والمال الحلال ، شرط ألا يغويه الشيطان ويزين له أبواب المال الحرام ... قال تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة] .

وإن الذي خلق الإنسان وكرمه وأكرمه وعلمه وأعطاه ورزقه وأغناه أمر الناس بالإنفاق من هذا المال فى حقوق الله ، ودعاهم إلى البذل والعطاء .. وأن يقدموا الشكر لمن أعطاهم هذه النعمة وأعانهم عليها .. وهو الله المالك للسماوات والأرض ومن فيها ومن عليها وما فيهما ـ فالذين يتصرفون فى أموالهم بغير مراد الله ويجمعونه من غير حله ، ولا يؤدون حق الله فيه ، مهما أعطتهم الدنيا من الغنى فإنه ذاهب إلى الفساد والطغيان ، وهو مجاوزة الحد فى العصيان .

قال عبدالله : منهومان لا يشبعان . صاحب العلم وصاحب الدنيا ولا يستويان ، فأما صاحب العلم فيزداد برضا الرحمن وأما صاحب الدنيا فيتمادى فى الطغيان .. ويقتضي نزاهة النفس عن شبه المكاسب والإكتفاء باليسور ، فإن شبه المكاسب إثم ، وكد الطلب ذل ، والأجر أجدر به من الإثم ، والعز أليق من الذل .. فمن عف نفسه عما فى أيدى

---

(١) متفق عليه من حديث أنس ﷺ .

(٢) رواه الترمذى عن أبى برزة (براء ثم زاى) - نضله بن عبيد الأسلمى .

(٣)رواه مسلم - ابن كثير ٤/ ٣٠٥ .

الناس استغنى عنهم ، ومن كان غير ذلك فقد باع دينه بدنياه ، ومن تنزه عن شبه المكاسب دفع عن نفسه الإثم ، ومن اكتفى باليسور دفع عن نفسه ذل المطالب .

وطغيان الإحساس بالملكية والسيادة يؤدى إلى الظلم وتجاوز أحكام الله فى تصريف الأموال .. فكأن المال أداة لاستعباد الخلق وإذلالهم ... وقد أخبرنا الله تعالى أن الإنسان ذو فرح وأشر وبطر وطغيان إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله ،، أخبرنا سبحانه أن الغنى أبطره ولم يشكر المنعم على ما أفاض عليه.. إلا من رحم الله وعصمه إيمانه بالله ... قال تعالى :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ ﴾ [العلق] .

وبين سبحانه وتعالى أن الإنسان كفور بنعم ربه وشاهد على كفره وأنه لحب المال لشديد فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ﴾ [العاديات] .

.. وفى موقع أخر من كتاب الله أنه يحب جمع المال واقتناؤه حباً كثيرا . فقال سبحانه : ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠ ﴾ [الفجر] .

وحرص الإسلام على تهذيب علاقة المسلم بماله لا يتميز بشيء منه، أو يستأثر به دون غيره، أو يحبس ما في يده من هذا المال عن غيره إذا كان الغير في حاجة إليه، وليس له أن يحبسه عن المصالح العامة، أو يكنزه ويعطله ـ فالمال « مال الله» والناس مستخلفين فيه ووكلاءَ عليه [١] .

وروى البخاري عن النبي ﷺ قال : هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا يكلفه من العمل ما يغلبه فإن كلفه فليعنْه عليه ـ وهذا مفهوم قول الله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٧١ ﴾ [النحل] .

وبين الحق تبارك وتعالياً ن الذى جمع مالاً وأحصى عدده ولم ينفقه فى سبيل الله ولكنه جمعه فأوعاه يظن أن ماله الذى جمعه وبخل بإنفاقه مخلده فى الدنيا فإنه ليس مخلده ، بل يقذف في النار التي تحطم كل ما فيها .

---

(١) نقلا من صوت المنبر للشيخ محمد نجيب الصابوني ص ٣٣٢.

قال تعالى : ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾ [الهُمَزة] .

لقد كان قارون من قوم موسى وأتاه الله مالا كثيرا تعى المجموعة من أقوياء الرجال حمل مفاتح كنوزه وخزائنه ، وقد أنكر فضل المنعم عليه بهذا الغنى وأدعى أنه قد حصل عليه بجهده وعلمه .. فأهلكه البغى وأغرته فتنة المال والثراء،ولم يشكر الله على ما أعطاه، وتطاول بماله على الخلق وترفع به على قومه ، فأعماه الغرور ، وأعمته النعمة عن المنعم جل جلاله .. ولم يستجب لنصيحة الصالحين من قومه الذين أرشدوه لإستعمال المال الذى وهبه الله له فى طاعة الله والتقرب إلى الله وأن لا يكفر بنعمة الله ، ويؤت كل ذى حق حقه ، ولا ينسى نصيبه مما أباح الله له ، وحذروه من الفساد بالمعاصي في الأرض ... قال تعالى :

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٧٧﴾ [القصص] .

وفرح البطر والبغي ينسى صاحبه نعمة الله المتفضل بها عليه وينكر له الحمد والشكران ..... قال تعالى :

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ [فُصِّلَت:٥٠] .

قال قارون : لقد أعطانى الله هذا المال لعلمه بأنى أستحقه وأنى أهل له وفضلنى به عليكم :

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٧٨ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩﴾ [القصص] .

وتلك طائفة جهلاء بالحقيقة .. عمت الدنيا بصائرهم فلم ينظروا فى أمرها ، ولم يتكشفوا سوء حالها ومآلها ، وقد فتنتهم بزينتها التى تزين بها قارون وماله الذى احتوى خزائنه ، ولو كان لهؤلاء وأمثالهم فى كل جيل قدر من البصيرة لعلموا أن الدنيا لا تعدل

عند الله جناح بعوضه ، ولو كانت تعدل ما سقى كافرا منها شربة ماء ، وأن المال والزينة مصيرهما إلى الزوال .. إما بالموت فيترك النعم ، وإما بكفرها فيحرمه الله منها .

يقول الإمام علي : نعيمها إبتلاء ، وحياتها عناء ، وعيشها نكد ، وصفوها كدر ، وأهلها منها على وجل .. إما بنعمة زائلة ، أو بلية نازلة ، أو منية قاضية .. ومسكين ابن آدم رضي بدار حلالها حساب وحرامها عقاب .. إن أخذه من حل حوسب عليه ، وإن أخذه من حرام عذب به .. من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن، ومن أحبها أذلته، ومن أصر عليها أعمته .

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله : مصيبتان للعبد في ماله عند موته لا تسمع الخلائق بمثليهما ـ قيل ما هما ؟ قال : يؤخذ منه كله ويسئل عنه كله ـ وفي رواية يتركه كله ويسئل عنه كله ، ولكن المتصلون بالله فطناء علموا أن الدنيا بمالها ظل زائل ، ونعيم حائل ، وأضغاث أحلام ، بل هي نعم في طيها نقم [1] .

وقد أوتي ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليهما السلام فسخر له الإنس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم ، وسخر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع فقال له: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾ [ص] .

... فما عدها سليمان نعمة أو كرامة ، ولكنه خاف أن يكون إستدراجاً من الله تعالى ومكراً به فقال :

﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ٤٠﴾ [النمل] .

ودخل ابن السماك يوماً على أمير المؤمنين هارون الرشيد فوافق أن وجده يرفع الماء إلى فمه ليشرب . فقال : ناشدتك الله يا أمير المؤمنين . إنتظر به قليلا ، فلما وضع الماء قال له : أستحلفك بالله تعالى لو أنك منعت هذه الشربة من الماء فبكم كنت تشتريها ؟ قال بنصف ملكي .. قال : أشرب هنأك الله ، ولما شرب قال : أستحلفك بالله تعالى ياأمير المؤمنين لو أنك منعت خروجها من جوفك بعد هذا فبكم كنت تشتريها ؟ قال بملكي كله .. فقال ياأمير المؤمنين إن ملكاً تربو عليه شربة ماء لخليق ألا ينافس فيه .. فبكى هارون حتى ابتلت لحيته ..

---

(١) أقوال الصحابة من هداية المرشدين للشيخ علي محفوظ .

فقال الفضل بن الربيع وكان واقفاً بين يدى الأمير : مهلا يا ابن السماك فأمير المؤمنين أحق من رجى العافية عند الله بعدله فى ملكه وحسن قيامه بحق ربه ، فقال ابن السماك : يا أمير المؤمنين والله إن هذا ليس معك فى قبرك غدا فأنظر لنفسك فأنت بها أخبر وعليها أبصر .. وأما أنت يافضل فمن حق أمير المؤمنين عليك فى تقريبه إياك وبره بك أن تكون يوم القيامة من حسناته لا من سيئاته .. فذلك أكفأ ما تؤدي به حقه عليك [1].

.. ولما قال الله تعالى : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [القصص] .

بين أن قارون أوتيها وأغتر بها ولم تعصمه من عذاب الله كما لم تعصم فرعون ، فلم ينفع فرعون جنوده وأمواله ، ولم ينفع قارون قرابته من موسى ولا كنوزه .

ولما أمر الله تعالى برجم الزانى عمد قارون إلى امرأة بغى وأعطاها مالاً وحملها على أن إدعت على موس أنه زنى بها وأنه أحبلها ، فعظم على موسى ذلك وأحلفها بالله الذى فلق البحر لبني إسرائيل وأنزل التوراة على موسى إلا صدقت فتداركها الله فقالت : أشهد أنك برئ وإن قارون أعطاني مالاً وحملني على أن قلت وأنت الصادق وقارون الكاذب .. فجعل الله أمر قارون إلى موسى ، وأمر الأرض أن تطيعه ، فجاءه وهو يقول للأرض يا أرض خذيه ، وهي تأخذه شيئاً فشيئا ، وهو يستغيث يا موسى ! إلى أن ساح فى الأرض هو وداره وجلساؤه الذين كانوا على مذهبه .. وكم من الناس فى الدنيا أمثال قارون ينكرون نعمة الله عليهم ، ويجحدون بالشكر والعرفان للمنعم المنان ، أيظنون أن كدهم وعلمهم سبب غناهم وعزهم؟ ..

وكم أهلك الله من قبل قارون أجيالاً كانت أشد منه قوة وأكثر مالا : ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾[القصص].

إبتلعته الأرض التى علا فيها واستكبر وتفاخر بماله وتزين به عليها .. وأما الذين أخطأوا الحكم وتمنوا أن يؤتيهم الله مثل ما أوتى قارون حمدوا الله سبحانه وتعالى أنه لم يستجب لهم .

---

(١) هداية المرشدين للشيخ علي محفوظ ٣٩٦ .

.. ومشهد آخر ننظر فيه إلى صاحب الجنتين فى سورة الكهف أذهلته الثروة والغنى وأبطرته النعمة وركبه الغرور فجحد بنعمة الله ورزق الله ..

لقد أعطاه الله الخير الواسع والرزق الكثير بستانين من عنب محاطه بشجر النخيل يتوسطها الزروع ويتفجر بينهما النهر .. نعم عظيمة قابلها المنعم عليه بالكفر والجحود ، والبطر والغرور .. ويحسب أن نعمته خالده لا تفنى ولا تزول ، بل وأنكر القيامة التى فيها الحشر ، وتعالى على صاحبه المؤمن الفقير الذى لا مال له ولا نفر ولا جنة ولا ثمر .

قال تعالى : ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف] .

وكما قال قارون لقومه : ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨] .

وصاحبه الفقير المؤمن الذى يعتز بإيمانه يرى فى النعمة قدرة المنعم الموجبة لحمده وشكره ودوام ذكره .. يذكر صاحبه ، صاحب الجنتين بالأدب الواجب فى حق المنعم سبحانه وتعالى ، وينذره عاقبة البطر والكفران ، ويرجو ما هو خير عند ربه ... ولكن ياويلهم جميعاً هؤلاء الذين يجحدون نعمة الله ويكفرون بها وهم يعلمون أن القوة لله وحده ، وأمام قوة الله تتوارى قوة الإنسان وقدرته .. لقد حل الدمار والهلاك بصاحب الجنتين : ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف] .

تماماً كما قالها فرعون وهو يغرق فى سكرات الموت .

﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس] .

وكأن الله إستجاب للعبد المؤمن الفقير حين قال لصاحب الجنتين : ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ [الكهف] .

لقد عادت الجنتين خرابا لا غراس فيهما ولا نبات ..غار ماؤها في الأرض ، وأحاط الهلاك بثمار جنتيه ... والأمنية التي يتمناها كل جبار جاحد لنعمه الله بعد ما نزلت به المصائب أمنية لا تتحقق .. والتوبة التي تجيء بعد معاينة العذاب والدخول في الموت توبة غير مقبولة .. وتلك سنة الله في الطاغين المستبدين المنكرين آية لمن خلفهم إلى يوم الدين : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص] .

والإسلام حرر المسلم من العبودية إلا لله ، وحرر المال أن يكون حكراً لفرد فهو جمر على صاحبه حتى ينفقه في طاعة الله ، وكما أعطى أحقية المال لصاحبه فرض فيه حقاً للسائل والمحروم : ﴿ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات] .

وليس للمرء أن يستأثر بالمال وحده دون غيره إذا كان الغير في حاجة إليه .. وكنز المال وتعطيله يمنع الإنتفاع به،ولا يجب أن ينسى الناس أنهم مستخلفون على المال وقوام عليه، وأن الله قادر على أن ينزعه ، ويدمره .. إذا أراد سبحانه ، كما أعطاه صاحبه وأغناه .

فمن كان له فضل من مال أو زاد فليعد به على من لا زاد له ، ولا يبخل بمال الله على خلق الله .. وتلك أمانة في عنقه .. وإن في الطمع لشك في المقدور ، وإكتساب للذل – وفي القناعة النعيم وراحة البدن .. وقد أمرنا أن نتصدق ولو بشق تمره :

النفس تجزع أن تكون فقيرة ... والفقر خير من غنى يطغيها
وغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت ... فجميع ما في الأرض لا يكفيها
وهي القناعة لا نبغي بها بدلا ... فيها النعيم وفيها راحة البدن
أنظر لمن ملك الدنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير القطن والكفن

والإسلام يحارب الشح ، وينذر الأشحاء الذين أمسكوا بأيديهم عن الخير ، وأعرضوا بجانبهم عن إخوة لهم حق عليهم ، وأصموا آذانهم عن الشكوى والأنين ، وقد ورد في الحديث القدسي « الفقراء عيالي والأغنياء وكلائي فإن بخل وكلائي على عيالي أذقتهم وبالي ولا أبالي » [1] .

---

(١) من كتاب صوت المنبر للشيخ محمد الحجار من علماء حلب - والناشر هو الشيخ محمد نجيب الصابوني ص ٣٣٦ .

وأشد درجات البخل أن تبخل على نفسك مع حاجتها ، وكم من بخيل تمسك بالمال ويمرض فلا يتداوى ، ويشتهى الشهوة فيمنعه منها البخل .. وأرفع درجات السخاء أن تجود بمالك مع حاجتك إليه ، ذلك هو الإيثار .. وقد أثنى الله على أصحاب رسول الله ﷺ فقال : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر] .

وقال رسول الله ﷺ إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلا بما يصنع أغنياؤهم إلا وأن الله يحاسبهم حساباً شديدا ويعذبهم عذاباً أليما (١) .

ولا يكتمل إيمان المؤمن حتى يحب لخيه ما يحبه لنفسه : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات] .

وويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم .. يقول الله تعالى « أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم فى ظلي يوم لا ظل إلا ظلي» (٢) .

المال عصب الحياة ..هذا شيء لا جدال فيه .. لذلك وضع الإسلام فى تشريعه كيف يتم توظيفه لخدمة الأمة ورعاية مصالحها .. والمال لذاته لا يذم ، ولكن المذموم منه ما تحرص عليه أو تتناوله من غير حله، فهذا فساد فى حق المجتمع .. أو تحبسه عن حقه ، أو تخرجه فى غير وجهه ، أو تتفاخر به .. فذلك البطر بالنعمة والجحدان لشكر الله عليها .

قال العلماء : المال الذى تنفقه على نفسك فى عبادة كالحج والجهاد ، أو تستعين به على العبادة بتوفير مستلزمات المعيشة من الطعام والشراب والملبس والمسكن ، أويصرفه الرجل لوقاية عرضه حتى تقطع ألسنة الناس ويكفوا شرهم عنه ، أو تعطيه أجراً لمن تستخدمه فى عمل لك ، أو توجهه لبناء المساجد والقناطر والإصلاح ، أو تساعد به محتاجاً أو فقيراً ، أو تتبرع به فى أوجه الخير .. هذا كله مال حلال ، ومصرفه حلال .. فهو من باب الإحسان بعد تأدية ما فيه من فريضة الزكاة التي تطهر النفس وتسد حاجة الفقراء ، وتذهب الأحقاد بين الأغنياء والفقراء ، وتحقق نظام التكافل الإجتماعي كما سبق أن بيناه تفصيلاً فى موضعه بين القادرين والعاجزين .. كذلك المال الذى يغنيك عن ذل السؤال ، وحقارة الفقر ـ فذلك مال لا بأس به .

---

(١) رواه الطبراني عن علي ﷺ .

(٢) رواه مسلم .

المال المذموم هو الذى تكنزه دون الإنتفاع به أو نفع الناس به .

عن ثوبان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : من ترك بعده كنزاً مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له ذبيبتان يتبعه . فيقول من أنت ؟ فيقول : أنا كنزك الذى خلفت .. فلا يزال يتبعه حتى يلقم يده فيقضمها ثم يتبعه سائر جسده [١] .

المال الذى يحببه الشيطان إليك ويدفعك به إلى المعصية والتنعم فى المباحات ويلهيك عن ذكر الله .. فهو مال مذموم ، ومتى تمكن الشيطان من القلب أفسده ، وحمله على طلب المال من غير وجهه ، وأخرجه إلى البخل ، وخوفه الفقر .

والمولى تبارك وتعالى خلق الإنسان ليكرمه لا ليهينه أو يضيع مقداره أو يؤخر منزلته ، ولا يحب سبحانه أن يهين الإنسان نفسه وأن يشوه صورته بتنمية موارده وأمواله عن طريق الغش والرشوة والقمار ، أو استغلال فرص الناس عند الضروريات .. فكل هذه أموال باطله وفيها خيانة للأمانة التى أوجبت علينا صيانة المال وتوظيفه فيما أمر به الشرع .. فإذا هانت على الإنسان نفسه كانت على غيره أهون .. ويتحمل المرء ما يصيبه فى تلويث ماله وكرامته .

وأكل المال بالباطل إما ظلماً بطريق التعدى والنهب والغصب والخيانة والسرقة ، وإما عن طريق الهزل باللهو والقمار وثمن الخمر والملاهى والمغنى ، وإما بالخيانة فى الودائع والأمانات وهى أهم ما أؤتمن عليه الناس .

وقال العلماء : يدخل فى هذا الباب المنجم والساحر والمقامر ومنقص الكيل والوزن ، ومن باع شيئاً فيه عيب فغطاه ، والدلال إذا أخذ أجرته بغير إذن من البائع ومخبر المشترى بالزيادة .

وإن الذى يقبل على نفسه المال الحرام قد أفسد فى ميزان العدل الذى قامت عليه السموات والأرض .

وفى صحيح مسلم ذكر النبي ﷺ الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأني يستجاب له ؟ وكل لحم نبت من حرام فالنار أولى به [٢] .

---

(١) رواه البزاز .

(٢) شعب الإيمان من حديث كعب بن عجره (وفى رواية بلفظ سحت) .

وكم من الإختلاسات والجرائم والرشاوى إرتفع بها الباطل، وانخفض بسببها الحق ، وضللت بها العدالة ، وهؤلاء جميعاً مهما تقربوا إلى الله لا يستجاب لهم دعاء ، فالتطهر من الحرام شرط أساسى لقبول الدعاء ، إذ لا يقبل الله دعاء المفسدين الظالمين والمعتدين على حقوق الخلق ، إلا بعد توبة صادقة مخلصة .

وقد اجتمع الناس على إبراهيم بن أدهم فى سوق البصرة فقالوا : يا أبا اسحق ما لنا ندعوا الله فلا يستجاب لنا ؟ فقال : لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء :

عرفتم الله فلم تؤدوا حقوقه ، زعمتم أنكم تحبون رسول الله ﷺ وتركتم سنته ، قرأتم القرآن فلم تعملوا به ، أكلتم نعم الله فلم تؤدوا شكرها ، قلتم إن الشيطان عدوكم ولم تخالفوه ، قلتم إن الجنة حق ولم تعملوا لها ، قلتم إن النار حق ولم تهربوا منها ، قلتم إن الموت حق ولم تستعدوا له ، إنتبهتم من النوم فانشغلتم بعيوب الناس ونسيتم عيوبكم، دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم ... فكيف يستجيب لكم ؟ [1] .

وكل فساد فى ميزان هذا الكون تعود أسبابه للمال الحرام .. وهو الخيانة بعينها لفطرة الله الطاهرة والمطهرة .

حـ ـ **والأولاد أمانة** : ورعاية الأولاد أمانة تتوزع مسئوليتها بين الرجل والمرأة ..الزوج وزوجته .. الزوجه عليها النصيب الأكبر فى المسئولية لدورها فى الأمومة التى تصنع الأجيال ، والرجل عليه التكاليف والقوامة .

تلك الأمانة محورها فى البداية الأسرة الصالحة ، والأسرة الصالحة محورها الأساسى الزوجة الصالحة والإختيار الموفق، ذلك لأن الزوجة هى السكن والحرث وموضع السر ، وربة البيت وأم الأولاد المنجبة لهم ، وشريكة حياة الرجل ، وعنها يرث الأبناء أكثر المزايا والصفات ، وفى أحضانها تتولد ملكات الحب والرحمة والحنان ، وتتولد العواطف وتورث السلوكيات .. لذلك شدد الإسلام فى إختيار الزوجة التي إذا نظرت إليها سرتك وإذا غبت عنها حفظتك فى مالك وعرضك ، والمطيعة لأوامرك .. وجعل القاعدة فى الإختيار من تتمسك بدين الله .. فأظفر بذات الدين تربت يداك .

والمرأة المسلمة فى مراحل حياتها من فتاة إليزوجه إلى أم هي المعول الذى عليه صنع الرجال والأجيال .. فهى التى أنجبت العصبة المؤمنة التى تحقق على يديها نصرة الإسلام

---

(١) نقل من مقدمة الجزء الثالث من وصايا الرسول شرح وتعليق الشيخ طه عبدالله عفيفي .

«أبوبكر وعثمان وعبدالله بن مسعود وعبدالرحمن بن عوف والأرقم بن الأرقم وسعيد بن زيد ومصعب بن عمير وبلال وعمار وأخرون » كلهم شباب أنجبتهم أمهاتهم بالتربية الصالحة فحملوا راية الإسلام وأعلوا كلمة لا إله إلا الله .

ولم تنجب الرجال فقط بل جاهدت أيضاً فى سبيل الله.

ونذكر هنا الخنساء بنت عمرو حضرت حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال فحرضتهم على القتال ونصر الإسلام إلى أن استشهدوا جميعاً .. فلما بلغها نعيهم قالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم وأرجو الله أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته [١] .

وفاطمة بنت قيس الفهرية إجتمع أهل الشورى فى بيتها لإختيار أمير المؤمنين عمر ﷺ خليفة للمسلمين ـ ذلك لعقلها وكياستها وإطمئناناً لسريتها وسرية بيتها .

وهذه أسماء بنت أبي بكر «ذات النطاقين » أم عبدالله بن الزبير ـ يستشيرها عبدالله فى حرب الخوارج فتقول له : إن خرجت لإحياء كتاب الله وسنة نبيه فإن الشاة لا تعذب بالسلخ فمت على الحق ، وإن كنت إنما خرجت على طلب الدنيا فلا خير فيك حياً ولا ميتاً أيابنى مت كريماً ولا تستسلم [٢] .

فالمرأة الصالحة المدركة لدينها الراعية لحق الزوجية عليها العبء الأكبر فى التربية السليمة ـ والتحصن بالخلق والفضيلة .

وللأسرة قوام واحد هو الرجل رأسها والقائم على شئونها ومصرف أمورها والمنفق عليأفرادها والساعى على رزقها .. ودرجته فى هذه الأمور قول الله تعالى :

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ [البقرة] .

والأسرة هى حجر الزاوية فى بناء المجتمع وهى المدرسة الأولى للتربية ، والنساء فيها شقائق الرجال يتعلم منهما الطفل الأخلاق والقيم والمبادئ ـ وهى بطبيعة تكوينها رباط وثيق يقوم على وشائج القربى وصلة الدم والأهداف المشتركة ـ لهذا شرع الله رابطة الزواج وجعلها أساساً لقيام الأسرة واعتبر كل علاقة غيرها خطراً يهدد كيانها .

وحاجة الطفل إلى أمه وأبيه حاجة أصلية ، فهما القدوة المثلى للأبناء يرون فيهما صورة الكمال ، ويقلدونهما فى كل السلوكيات ، وفى الحديث عن النبي ﷺ ما من مولود يولد إلا

---

(١) الإصابة فى تميز الصحابة .

(٢) مستدرك الحاكم ٤/ ٥٢٥ .

على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء [(١)] .

وللوالدين الأهمية الكبرى والأمانة العظمى فى تربية الأولاد وتوجيههم إلى تعاليم الدين من القرآن والسنة ، وتنشئة أجسامهم وعقولهم وأرواحهم على مبادئ الإسلام وقواعده وعاداته وسلوكه وأدابه ... وأول واجبات الرجل المسلم أن يحول بيته إلى بيت مسلم وأن يوجه أهله إلى أداء الفريضة التى تصلهم وهو معهم بالله .

قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه] .

ولو أن كل فرد أمر أهله بالصلاة واصطبر عليها لأستقام الكون وصلح حال الناس جميعا .

أخرج ابن ماجه فى سننه عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ إمرأته فصلت فإن أبت رش فى وجهها الماء ـ رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فصلى فإن أبى رشت فى وجهه الماء .

وقد وجه الله سبحانه وتعالى النداء للذين أمنوا أن يؤدبوا أهلهم ويعلموهم أن يعملوا بطاعة الله وتقواه وأن يصلح الرجل نفسه وأهله إصلاح الراعى للرعية ليقوا أنفسهم من النار وفظاعتها وما عليها من ملائكة الله الكالحة أنيابهم وهم لا يخالفون الله فى أمره وينتهون إلى ما يأمرهم به ربهم ، وقد نزعت من قلوبهم الرحمة على أعداء الله . قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم] .

هذه التربية ليشب الأبناء رجالا ويزدادوا فى سلوكهم كمالاً وجمالا ـ فتكون عزائمهم قوية ، وسواعدهم فتية ـ والعلم لهم سلاح ـ ومن شب على شيئ شاب عليه وإن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع حتى يسأل عن أهل بيته [(٢)] .

---

(١) حديث عبدان عن عبدالله عن يونس عن الزهري عن أبو سلمة عن عبدالرحمن عن أبي هريرة (ورواه البخاري) (ابن كثير ٣/ ٤٣٢) .

(٢) رواه بن ماجه فى صحيحه .

والبداية منذ لحظة ميلاد الطفل حيث تأمر سنة رسول الله ﷺ بالآذان فى أذن المولود اليمنى ، والإقامة فى الأذن اليسرى ـ ليكون أول ما يطرق سمعه اسم الله ، ولترسخ كلمة التوحيد فى أذهانهم من البداية ثم تعتاد عليه أسماعهم بعد ذلك فتلهج بها ألسنتهم ... ومن السنة أن تختار للمولود اسم حسن وأن تحلق شعره وتتصدق بوزنه فضه إن تيسر ذلك لما رواه أحمد والترمذى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ عق عن الحسن بشاه وقال : يافاطمة إحلقى رأسه وتصدقى بوزنه فضة على المساكين « يقول فوزناه فكان وزنه درهم أو بعض درهم » وقال رسول الله ﷺ كل مولود رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويحلق ويسمى « أى تنشئته تنشئه صالحة وحفظه حفظاً كاملاً مرهون بالذبح عنه» «رواه أصحاب السنن عن سمره ـ وعن سلمان بن عامر الضبي أن النبي ﷺ قال: مع الغلام عقيقته فأهريقوا عليه دما وأميطوا عنه الأذى » « أى أزيلوا عنه القذارة والنجاسة »[1].

وروى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : افتحوا على صبيانكم أول كلمة لا إله إلا الله ، ولقنوهم عند الموت لا إله إلا الله « فتزداد صلة الولد بخالقه من البداية » .

وفرض الله للمولود على أمه أن ترضعه حولين كاملين وهى الفترة المثلى للطفل صحياً ونفسياً، وفرض على والد الطفل أن يرزق الأم ويكسوها بالمعروف والمحاسبة من النفقة ، وذلك يصير على المرأة التى طلقت من زوجها ولها أولاد . فقد ألزم الشرع ألا تمتنع عن إرضاع طفلها إضراراً للأب الذى انفصل عنها لئلا يكون الطفل هو الضحية : ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا﴾ [البقرة:٢٣٣] .

ـ أى لا تحمل نفس شيئاً يضيق عليها ويجهدها : ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق] .

وعن أبي مسعود البدري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : إذا أنفق الرجل على أهله نفقه يحتسبها فهي له صدقة(متفق عليه) .

---

(١) رواه الخمسه . فقه السنة ٣/ ٣٢٧ .

وقد وجب من الأمانة مع نشأة الطفل وبداية نطقه تعليمه ما تيسر من القرآن والذكر فيهتز وجدانه من طفولته فلا يموت قلبه ولا يضل ضميره عندما يكبر ، ومع القرآن يغرس فى قلب الطفل حب رسول الله ﷺ وآل بيته وتلاوة القرآن ـ فإن حملة القرآن فى عرش الله يوم لا ظل إلا ظله مع أنبيائه وأصفيائه ... ويراعى عدم التفريق بين الأولاد فى المعاملة أو استرضاء أحدهم على حساب الأخر .

كان بشير الصحابى يحب ولده النعمان أكثر من أولاده ، فأراد أن يؤثره بعطيه ، فأبت زوجته إلا أن يشهد رسول الله ﷺ .. فلما أخبر النبي ﷺ قال لهم : أكلهم أعطيت مثل ما أعطيت النعمان ؟ قال :لا . قال له : لا تشهدنى على جور [١] .

وقد شدد الإسلام على البنات وأنه من أدى فيهن الأمانة كانت له الجنة .

روى الترمذي لا يكون لأحدكم ثلاث بنات أو ثلاث أخوات فيحسن إليهن إلا دخل الجنة .

فإذا بلغ الطفل سبع سنين وجب عليه الأمر . لقوله عليه الصلاة والسلام : مروا أبناءكم بالصلاة لسبع وأضربوهم على العشر وفرقوا بينهم فى المضاجع [٢] .

ودخل الأحنف بن قيس على معاوية ، ويزيد بين يديه وهو ينظر إليه إعجابا . فقال : يأبا بحر ما تقول فى الولد ؟ فعلم ما أراده فقال : يا أمير المؤمنين هم عماد ظهورنا ، وثمرة قلوبنا ، وقرة أعيننا، بهم نصول على أعدائنا ، وهم الخلف منا لمن بعدنا .. فكن لهم أرضاً ذليلة، وسماءاً ظليلة ـ إن سألوك فأعطهم وإن استعتبوك « أى طلبوا منك الرضى» فأعتبهم ، لا تمنعهم رفدك « أى عطاءك » فيملوا قربك ، ويكرهوا حياتك ، ويستبطئوا وفاتك .. فقال لله درُّك يأبا بحر هم كما وصفت [٣] .

وقال لؤي بن غارب لامرأته أي بنيك أحب إليكي ؟ قالت : الذي اجتمعت فيه ثمانية خلال : لا يخامر عقله جهل ، ولا يخالط حلمه سفه ، ولا يلوي لسانه غى ، ولا يفسد يقينه ظن ، ولا يغيره عقوق ، ولا يقبض يده بخل ، ولا يكدر صنعه من ، ولا ترد أقدامه جبن .

---

(١) متفق عليه ـ رياض الصالحين ٦٣٦ .

(٢) أخرجه جماعة أهل السنة والحديث - القرطبى ١٠/ ٦٩٢٠ .

(٣) هداية المرشدين ص ٣٤٠ .

ودخل أحد الولاه على عمر بن الخطاب وهو يقبل أولاده فقال له: إن لى عشرة أولاد. ما قبلت واحداً منهم، ولا دنا أحد منى .. فكان جواب عمر: نزع الله عز وجل الرحمة من قلبك، إنما يرحم الله من عباده الرحماء، وعزله عمر من الولاية وهو يقول: إنه لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية [١].

وقال ﷺ: أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه على دابته فى سبيل الله، ودينار ينفقه على اصحابه فى سبيل الله [٢].

ويقول عليه الصلاة والسلام من فر بميراث وارثه قطع الله ميراثه من الجنة يوم القيامة [٣].

وقال عليه الصلاة والسلام إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس [٤].

وكل ما يدعو الإسلام به من الأخلاق الكريمة أمانة وجب أن نورثها الأبناء ليرثها الأحفاد، فيظل دين الله قائماً فى القلوب والأرواح جيلاً بعد جيل ـ فرعاية الأولاد أمانة فى عنق الوالدين، وخاصة الأم التى تتحدد مسئوليتها فى تدبير شئون البيت ورعايته وتربية الأولاد، وتهيئة الجو الصالح للرجل ليستريح، فيتجدد نشاطه للسعى والكسب لتغطية مستلزمات البيت والأولاد ـ فرعاية الأولاد تحرك الدوافع الفطرية وتقوى المواهب للنهوض بالأعباء ـ والمال والبنون هما زينة الحياة وغريزة الأبوة والأمومة تنمو وتتكامل فى ظلال الطفولة، ومعها تنمو مشاعر العطف والود والحنان ـ وهى فضائل لا يكتمل الإنسان بدونها ـ والشعور بها يبعث على النشاط وبذل الوسع فى تقوية ملكات الفرد ومواهبة.

والأموال والأولاد هبه وهبها الله للناس، وبين فى كتابة الكريم أنها فتنة وابتلاء واختبار من الله لخلقه ليبلوهم بها ويفتنهم فيها ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، ويرى صنع

---

(١) وصايا الرسول للشيخ طه عفيفى ج ٢ / ٥٣.

(٢) رواه الإمام مسلم عن أبي عبدالله، ويقال له أبي عبدالرحمن ثوبان بن بحدد مولى رسول الله ﷺ.

(٣) ذلك يعني تأمين حاجة الأبناء عند الكبر والمرض والوفاء بحيث لا يحرم وارث من ميراثه. رواه البخاري (لجنة علماء الأزهر. الجمعة والعيدين).

(٤) من حديث أبي اسحق سعد ابن أبي وقاس عن لؤي القرشي الزهري أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ـ والحديث متفق عليه (رياض الصالحين).

العبد وتصرفه .. أيشكر عليها ويؤدى حق النعمة فيها ؟ أم ينشغل بهما ويغفل عن أداء حق الله فيهما أو ينشغل بهما عن تكليفات الله ؟

عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : ليس عدوك الذى إن قتلته كان فوزاً لك وإن قتلك دخلت الجنة ـ ولكن الذى لعله عدوك ولدك الذى خرج من صلبك ، ثم أعدى عدو لك مالك الذى ملكت بيمينك [١] .

وفي الحديث : يؤتي برجل يوم القيامة فيقال : أكل عياله حسناته [٢] .

والفتنة لا تكون بالشدة والحرمان وحدهما إنها كذلك تكون بالرخاء والعطاء ، والأموال والأولاد من الرخاء ومن العطاء .

في المال جمالاً ونفعاً ، وفى البنين قوة ودفعا ـ وهما حرث الدنيا وزينتها ـ والمال والبنون التيفخّر بها بعض الناس تفنى وتزول ، وما عند الله باق ويدوم – فأمل الناس عادة تتعلق بالأموال والبنين ، ولكن الذى عند الله أبقى وأفضل. ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف] .

فأتقوا الله وتجنبوا عذابه وأدوا ما عليكم من الأمانة باداء فرائضه واجتناب معاصيه ، وراقبوه فيما جعل من أموالكم وأولادكم فتنه أن تغلبكم وتصدكم عن الحق ، واستجيبوا لله سمعاً وطاعة وأنفقوا من خير الله ونعمته على خلق الله . إلى هذه المعانى يشير قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التغابن] .

ومن يحفظه الله من هوى نفسه ويقه شحها فهؤلاء هم الذين أدركوا ما عند الله سبحانه وتعالى .

قال بن مسعود ﷺ: لا يقولن أحدكم اللهم أعصمني من الفتنة فإنه ليس لأحد منكم يرجع إلى مال وأهل وولد إلا هو مشتمل على فتنة – ولكن ليقل اللهم إني أعوذ بك من

---

(١) رواه الطبراني عن هاشم بن مرثد عن ـ عن ـ عن شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري (ابن كثير ٤/ ٣٧٦) .

(٢) نقلاً من تفسير الإمام القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ١٠ / ٦٨٦٧ .

مضلات الفتن ـ فالأموال والأولاد لا تخلو من الفتنة واشتغال القلب بهما [١] . « وهكذا قالها الإمام على » [٢] وأضاف فإن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن:١٥] .

ـ ومعنى ذلك أنه سبحانه وتعالى يختبرهم بالأموال والأولاد ليتبين الساخط لرزقه والراضى لقسمته وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم .

فالأموال والأولاد ملهاه ومشغله ومصدر من مصادر الشقاء فى هذه الحياة إذا لم يستيقظ القلب ويدرك غاية وجوده فى هذه الأرض ـ ومتى تمكن حب المال من القلب أفسده وحمله على طلب المال من غير وجهه وخرجه إلى البخل والشح والخوف من الفقر ، ومن يستعلى على فتنة الأموال والأولاد فعند الله وراءهما أجر عظيم ، ومن يخسر نفسه فقد خسر كل شيئ مهما ملك من أموال ومن أولاد ، وصار الحرص على المال والولد بالصورة المفرطة سبباً من أسباب الشقاء فى هذه الحياة .

والخاسرون من شغلتهم الدنيا عن طاعة الله وألهتهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله ـ حكم الله سبحانه وتعالى عليهم بالخيبة والخسران ـ إلى هذا المعنى يشير قول الله تبارك وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [المنافقون] .

ط ـ الأمانة فى شمولها : وتلك كانت بعض الأمانات على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر فإن الدين بما جاء فيه كاملاً صغيراً أو كبيراً فيه أمانة وجب على العبد المؤمن أداؤها ـ وقد ذكرنا فيما تقدم من الأمثلة : أمانة التكليف والعبادات ـ أمانة الكيل والوزن ـ أمانة العدل وخيانة الظلم ـ أمانة الجوارح ـ أمانة الشهادة ـ الخيانة فى الغلول ـ أمانة المال ـ أمانة الأولاد ـ وفتنة الأموال والأولاد وتقدم فى موضع آخر بالكتاب الحديث عن أمانة القول والفعل فى قول الله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المؤمنون] .

ونكتفى بما تقدم وما أفاض الله علينا به ، ولنعلم أن كل ما أودعه الله سبحانه وتعالى قلب المؤمن وضميره وعقيدته الخلقية من أعمال وأقوال وأفعال وتكاليف وفرائض

---

(١) القرطبي ١٠ / ٦٨٦٧ .

(٢) نهج البلاغة للشيخ محمد عبده ج٤ / ٢١ .

وأوامر ونواهى وحقوق وواجبات ـ لكل حرف أخبرنا به الله فى كتابه وفى سنة رسوله ﷺ فى أقواله وتقريراته وأفعاله .. وكل ما أؤتمن عليه العباد وتحملوا مسئوليته أمام الله فهو أمانة فى عنق العبد يحاسب عليها أمام الله .

والأمانة أصل عظيم من أصول الدين وعلامة من علامات الكمال واليقين ، والدليل على الإيمان الصحيح والإخلاص لله رب العالمين ،، وهى الفريضة التي يتواصى بها المسلمون برعايتها ، ويستعينون بالله سبحانه وتعالى على حفظها حتى أنهم عندما يكون أحدهم على أهبة سفره يقول له أخوه«استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك» (رواه الترمذى).

فيها تصان الحقوق وتحفظ الأعمال من دواعى التفريط والإهمال ، وبها يصان المجتمع من الفساد والإنحراف والغش والتضليل والرشوة والمحسوبية ، وبها يتخلق العبد بالصدق والوفاء والإخلاص ، ويأنف من الكذب والغيبة والنميمة .

ولا تجتمع الأمانة والخيانة فى قلب المؤمن الذى يأمنه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم .

والأمانة خلق من خلق سيد المرسلين ، فقد كان عليه الصلاة و السلام يلقب قبل بعثته وبعدها بالصادق الأمين حتى من أعداء دعوته الذين لم يودعوا حاجاتهم إلا عنده ، ولا غرو فى ذلك فقد مدحه ربه تعالى بقوله : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[القلم] .

وقد استخلف رسول الله ﷺ عند هجرته ابن عمه على ابن أبى طالب ليسلم المشركين ودائعهم .

أخرج ابواسحق فى سيرة ابن هشام قال : ما كان بمكة أحد عنده شيء يخاف عليه إلا وضعه عند رسول الله ﷺ ، وكانوا يعلمون صدق رسول الله ﷺ وأمانته ـ وقد قرر الشارع الحكيم أن من صفات الأنبياء والمرسلين : الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة .. فالأمانة والإصطفاء فى النبوة والرسالة ـ وقد تكرر قوله وتماثل فى سورة الشعراء قول الله تعالى :

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٠٧﴾ [الشعراء] .

وذكر القرآن الكريم موسى عليه السلام حين توجه نحو أرض مدين وهو فيها غريب مطارد ، فلما ورد بمائها وجد جماعة من الناس يسقون مواشيهم ، ووجد إمرأتين تحبسان

غنمهما عن غنم الناس حتى ينصرف الرعاة الرجال ، وتحركت فيه نخوة الرجال من الشهامة والفطرة ، وتلك طبيعة الأنبياء .

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القصص] .

هكذا جاءته إحدى المرأتين تمشي ويعلوها الحياء[1] ـ وكان الجهد قد أضناه وفي حاجة إلى الراحة والطعام .. وكأن الله قدر ذلك لتبدأ رسالة موسى التي لم تكن لتبدأ بعد مع بني إسرائيل : ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [القصص] .

ـ وقدكان حقاً أميناً ،... تلك الأمانة التي اقتضت موسى رغم أنه مجهد ومطارد من وطنه ألا يفرط فيها .. لم يقبل أن يسير إلا أمامها لئلا ينظر منها ما لا يحل، وطلب منها أن تسير خلفه ، وتدله على الطريق ، والأمر الملفت جماله هذه الفتاة التي جاءت على استحياء بالطهارة والعفة لتتعلم منها أن المرأة لها مهمة ـ فإذا ما لزم الأمر خرجت تسعى ولا حرج، ولكن من الأمانة المحافظة على حياتها عند لقاء الرجال حتى لا يطمع فيها أحد .. والمرأة بالفطرة لا تستريح لمزاحمة الرجال ، ولا للهزر واللغو والفوضى التي يحتمل حدوثها بالإختلاط والمزاحمة بين النساء والرجال .

ولله في الأمانة حق الوفاء بالإخلاص والطاعة والعبادة « الصلاة والزكاة والصيام والكفارات والنذور ، وما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد » وللعباد فيها حق الوفاء« برد الأمانات والودائع ، وعدم التحايل بالغش والرشوة والتزييف ، والخيانة للهروب من أداء الأمانة » .

وشأن المؤمن الصادق أن يكون أميناً في كل أقواله وأفعاله على حقوق الله وحقوق العباد ، وأن يكون ضميره مستجيباً لأمر الله فيصلح الله عمله بأمانة قوله وفعله ، ويغفر له ذنبه .. ولا ينبغي للإنسان أن يستهين بالأمانة أو يفرط في حقها .

---

(١) ورد في مختصر تفسير الطبري ٢/ ١٥٤ تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني(فجاءت إحدى المرأتين تمشي، ويعلوها الحياء وقد سترت وجهها بثوبها.

والصراع بين الناس فى الدنيا بالظلم والجهل أفقدهم الصبر على تحمل الأمانة ، وأفحم قلوبهم بالغدر والخيانة ـ وكلما أشتد تعلق الناس بأموال الدنيا وفتنة الدنيا ، وتعلق نجاحهم فى كل شأن من الشئون بأذيالها، كلما أشتدت نيران هذا الصراع بالعداوة والكره والبغضاء .

وكثير من الناس يتعاملون مع الدنيا بلا رحمة ، وكأنما هى عمرهم الذى لا يفنى ولا يزول «ما بين طبيب لم يعد يعنيه من حالة المريض إلا ما يدفعه من المال ، وما كان من أمر الإستشارات المجانية والأمور الإنسانية التى كانت فى قيمنا إلى عهد قريب فقد طوى عليه الزمان » « وبين تاجر يكدس بضاعته ويتربص بها زيادة الأسعار ليزيد من حجم أمواله وتجارته » « وأخر يخفى سلعة من السلع ، فتشتعل السوق بالتجارة السوداء ويبدأ فى إظهارها فى الخفاء » « وبين معلم أو مدرس فقد أمانة العلم فى المدرسة واستبدلها بالدروس الخصوصية التى لم يعد لأولادنا مفر منها » .

« وبين موظف صارت وظيفته التوقيع بدفتر الحضور والإنصراف بأى طرق ملتوية حتى لا تتوقف نشاطاته الخارجية » وأخرون وأخرون .... فماذا جرى لضمائر الناس ؟؟.

كل ما وكل إلى الإنسان من مصالح العباد أمانة عنده .. وتأدية تلك الأمانة يكون بحسن التصرف فيها والمحافظة عليها ، فإن أحسن العبد التدبير فله أجر كبير ، وإن جار العبد بنفوذه وسطوته على الآخرين فقد خان الأمانة.. وكلُ مسئول فى مجاله وعليه مسئوليته في تأدية الأمانة المكلف بها .

والأمانة فى حقيقتها لون من المسئولية ومظهر من مظاهر الضمير الحى والشرف والإحساس النبيل ـ وهى تنظيم للفرد والجماعة والأمة والإنسانية .

فجاء الأمر بالحكم مقترناً بأداء الأمانة لأن الحكم بالعدل أمانة ، والعدل أقامه الله فى كونه وقضى به بين عباده ودعاهم إلى نصرته ولقد سميت أمانة لأنه يؤمن معها من منع الحق .

ويخاطب الحق تبارك وتعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال] .

والآية تنهانا عن الخيانة وشرها ـ وكان رسول الله ﷺ يقول فى دعائه : اللهم إنى أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، ومن الخيانة فإنها بئست البطانة ـ فجمع عليه

الصلاة والسلام فى استعادته اتقاء شقاء العيش فى الدنيا وسوء المنقلب فى الأخرى - فالجوع ضياع الدنيا ، والخيانة ضياع الدين [١] .

وعن سفيان - عن الزهري سمع عروة يقول : حدثنا أبوحميد الساعدي قال : استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له ابن اللتيبيه فجاء فقال : هذا لكم وهذا أهدى لى فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال : ما بال العامل نبعثه على عمل - وفى رواية فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله - فيأتي فيقول : هذا لكم وهذا أهدى لي أو هذا هدية أهديت لي..أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقا - والله ، أو قال : والذى نفس محمد بيده لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقى الله يحمله يوم القيامة على رقبته [٢] .

وروى عن أبي ذر ﷺ قلت يارسول الله « ألا تستعملنى؟ قال : فضرب يده على منكبى ثم قال : يأبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزى وندامه إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها » [٣] - وذلك يعنى أنه من معانى الأمانة وضع الشيء المناسب فى مكانه المناسب ، أو كما قالوا : الرجل المناسب فى المكان المناسب ، واعتبار الولايات والأعمال العامة والرئاسة بالكفاءة التى ترفعه إلى هذه المرتبة ويستطيع تحمل مسئوليتها .

وكم من الدارسين والباحثين على أرض الله تفوقوا فى مجالات العلم فى إختصاصاتهم وأسند إليهم ما لا ينتفع به الناس لعلمهم الذى تعلموه ، فكانت حصيلة كل هذه الدراسات والعلوم وظيفة يأكل منها العيش.

ولقد رأى يوسف عليه السلام فى نفسه الكفاءة لتحمل مسئولية إدارة شئون الأعمال : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف] .

وأبو ذر وهو من هو خلقاً وديناً وعلماً وفضلاً ، ولكن رسول الله ﷺ يحذره منها .

---

(١) رواه أبوداود .

(٢) رواه أحمد ومسلم من حديث سفيان بن عتيبة (بن كثير ١ / ٤٢١) - وللحديث بقية أخرى ومنها (فلا أعرف أحد منكم لقى الله يحمل بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار - إلخ) – وقد سبق ذكره فى موقع أخر من الكتاب .

(٣) رواه الإمام مسلم .

قال عليه الصلاة والسلام : من استعمل رجلاً على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنون [١] .

وعن حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ قال : والذى نفسى بيده لا تقوم الساعة حتى تقتلوا إمامكم ، وتختلدوا بأسيافكم، ويرث دنياكم شراركم[٢]، وتلك النبوءة قد تحققت ، وقتل المسلمون إمامهم وخليفتهم عثمان بن عفان حينما أعتمد على أقاربه من بنى أمية وأسند إليهم المناصب الهامة بالدولة ـ فظلموا وبغوا بإسم خليفتهم وهو برئ من أفعالهم ـ وحدثت الفتنة بين المسلمين .

وعن أبي هريرة ﷺ أن أعرابياً سأل النبي ﷺ متى الساعة؟فقال عليه الصلاة والسلام: إذا ضيعت الأمانة فأنتظر الساعة ـ قال الرجل : وكيف إضاعتها ؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم إذا وسد الأمر إلى غير أهله [٣] .

والأمانة هي الضمير الحي في القلب السليم الطاهر يقرها الإيمان في وجدان العبد بالثقة والنزاهة ، والعفة والقناعة ، والشرف ، والمشاعر التي تعصمه من الخطايا والدنايا .. وعزة النفس تحفظ لصاحبها الكرامة ـ فلا تقبل الإهانة ، أو التفريط بالأمانة .

لقد عرض الله طاعتهم وفرائضهم على السموات والأرض والجبال على أنها إن أحسنت أثيبت وجوزيت ، وإن ضيعت عوقبت ـ فأبت حملها خوفاً من أن لا تقوم بالواجب عليها .. وقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه إلا من وفقه الله .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب] .

وعن حذيفة بن اليمان ﷺقال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه ﷺ جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ـ ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال « ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل الوكت ، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر المجل ، كجمر دحرجته على ترجلك

---

(١) رواه الحاكم .

(٢) رواه الترمذي .

(٣) رواه البخاري .

فنفض فتراه منتبرا وليس فيه شيء » ثم أخذ حصاه فدحرجه على رجله ـ فيصبح الناس يتبايعون ، فلا يكاد أحد يؤدى الأمانة ، حتى يقال : إن فى بنى فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال للرجل : ما أجلده ما أظرفه ، ما أعقله – وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ـ ولقد أتى على زمان وما أبالى أيكم بايعت ، لئن كان مسلماً ليردنه على دينه ، ولئن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه على ساعيه ، وأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلانا [١] .

وفى الصحيحين عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقه ، وعفة طعمه ـ فإذا مات الضمير وتم التفريط بالأمانة وعدم المبالاة فيها فتلك الخيانة التى استحق بها اليهود غضب الله ، وحلت عليهم اللعنة حينما كذبوا رسلهم ورفضوا رسالة موسى .

وقد وعد الله أهل الإيمان والأمانة والطاعة بالمغفرة والرحمة بعد توبتهم منها ، ومن وجه أخر فإن المنافقين الذين يبطنون الكفر متابعة بأهله ، والمشركين عبدة الأوثان والآلهة ـ والذين اسودت قلوبهم فى الظاهر والباطن بالظلم والجهل ـ هؤلاء خانوا الأمانة ، وحق عليهم العقاب .

قال تعالى : ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأحزاب] .

وتنزع الأمانة من القلوب الخائنة ، والضمائر الميتة الخالية من الحياء والرحمة .

قال سلمان الفارسى :إن الله تعالى إذا أراد بعبد شراً أو هلكه نزع منه الحياء ، فلم تلقه إلا مقيتاً ممقتا « أي مبغوضا » فإذا كان مقيتاً ممقتا نزعت منه الرحمة ، فلم تلقه إلا فظاً « أي سيئ الأخلاق » غليظاً ، فإذا كان كذلك نزعت منه الأمانة فلم تلقه إلا خائناً مخونا ، فإذا كان كذلك نزعت ربقة الإسلام من عنقه «أي ما يشد به المسلم نفسه بحدود الله وأحكامه» فكان لعيناً ملعنا[٢] .

---

(١) (قوله جذر) بفتح الجيم وإسكان الذال المعجمة : وهو أصل الشيء ـ والوكت : بالتاء المثناه من فوق : الأثر اليسير ـ والمجل : بفتح الميم واسكان الجيم : وهو تنفط فى اليد ونحوها من أثر عمل وغيره ـ وقوله منتبراً : أى مرتفعا ـ وقوله ساعيه : أي الوالي عليه ـ والحديث متفق عليه .

(٢) حياة الصحابة اللكاندهلوي ٥٠٨ .

وأشد الأمانات الودائع التي تحفظها ثم تردها لأصحابها لا تغنم فيها وإلا فهو التفريط .

روى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة ـ قال : يؤتى بالعبد يوم القيامة وإن قتل في سبيل الله فيقال له : أد أمانتك فيقول : أي رب كيف وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال : انطلقوا به إلى الهاوية ، وتمثل له أمانته كهيئتها يوم دفعت إليه ، فيراها ، فيعرفها ـ فيهوى في أثرها حتى يدركها ، فيحملها على منكبيه حتى إذا ظن أنه خارج زلت عن منكبيه فيهوى في أثرها أبد الأبدين – ثم قال : الصلاة أمانة ، والوضوء أمانة ، والوزن أمانة ، والكيل أمانة – وأشياء عدها – وأشد ذلك الودائع [١] .

وقال عليه الصلاة والسلام أدِّ الأمانة إلى من أئتمنك ولا تخن من خانك [٢] ـ وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عز وجل على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات والنذور ، وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد ، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع والأموال وما يؤتمنون عليه من غير اطلاع على بيِّنه ـ أمر الله تبارك وتعالى بأدائها ، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة .

ذلك عن : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المؤمنون] .

والعهد كل ما يتعهد به الإنسان في غير معصيه ويلزمه الوفاء بما عاهد به ـ قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ ﴾ [النحل:٩١] .

... وفي صفات أهل البر قال سبحانه :

ـ ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟﴾ [البقرة:١٧٧] .

ـ وفي الوصايا قال سبحانه وتعالى : ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ [الأنعام:١٥٢] .

وهو الوفاء بوصية الله وأوامره ـ وكلها أمانات .

وخط رسول الله ﷺ خطاً بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيما ، وخط عن يمينه وشماله ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه [٣] ثم قرأ : ﴿وَأَنَّ

---

(١) أبونعيم في الحلية (القرطبي ٢/ ٢٩٢) .

(٢) أبوداود في البيوع ٧٩ والإمام أحمد ٣/ ٤١٤ .

(٣) رواه الإمام أحمد - ابن كثير ٢/ ١٩٠ .

هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام] .

وفي سورة الإسراء من الوصايا ما ورد في سورة الأنعام وزادت : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء] .

وهو المسافر المنقطع في سفره ، وقد تناولنا ذلك في أركان العقيدة والإيمان .

وتلك كلها أمانات وعهود في ذمة من أئتمنوا عليها ، وليس أعظم خيانة ولا أسوأ من رجل تولى أمور الناس ونام عنها حتى أضاعها .

والدين كله عهد ووفاء فإن الله أخذ عهده على جميع المكلفين بطاعته ، أخذ عهده على أنبيائه ورسله ، وعلى لسان ملائكته ـ أو منه سبحانه إلى الرسول بلا وساطه كما كلم موسى ، وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرسل ، وأخذ عهده على الجهال بواسطة العلماء[1] .

والغدر بعد العهد من علامات النفاق فما أناب إلى الله من خان عهده وغدر به ، كما أنه لم ينب إليه من لم يدخل تحت عهده .

﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح] .

والأمانة والعهد يجمعان كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولاً وفعلا .

روى الإمام أحمد عن أنس ابن مالك ﷺ قال : ما خطب رسول الله ﷺ إلا قال « لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له » .

٦ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [المؤمنون] .

أي يواظبون عليها في مواقيتها ، لا تفوت كسلاً ولا تضيع إجمالا ، وتؤدى الفرائض والسنن في أوقاتها .

عن أبي هريرة ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله الصلاة فإن صلحت فقد أفلح ونجح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر ، وإن انتقص من فريضته شيئا قال الرب تبارك وتعالى : هل لعبدى من تطوع ؟ فيكمل بها

---

(١) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية .

ما انتقص من الفريضة ، ثم يكون سائر عمله على ذلك ، وإنما يحاسب الله العبد ويسأله عن أربع « عمره ، علمه ، ماله ، جسده » [١] .

وكما نرى قد افتتح الله تعالى ذكر هذه الصفات الحميدة في قول الله تبارك وتعالى :

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون] .

واختتم هذه الصفات التي أعلمنا أن المتصفين بها في جنات الفردوس يرثون نعيمها ـ اختتمها سبحانه بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ [المؤمنون] .

فدل على أفضليتها وعظيم مكانتها في بناء الإيمان .

عن عثمان بن عفان ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يؤت كبيرة وذلك الدهر كله [٢] .

«وعن أبي هريرة ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات . هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء . قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » [٣] .

«وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ قالوا بلى يارسول الله قال : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط . فذلكم الرباط » [٤] .

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال : إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فأشهدوا له بالإيمان [٥] .

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ۝١٨﴾ [التوبة] .

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب الصلاة باب المحافظة على الصلاة رقم ٤٦٦ - والترمذي كتاب الصلاة ٤١٣ .

(٢) رواه مسلم .

(٣) متفق عليه .

(٤) روام مسلم .

(٥) رواه الترمذي .

«وعن أبي هريرة ﷺ قال : أتى النبي ﷺ رجل أعمى فقال : يا رسول الله ليس لى قائد يقودنى إلى المسجد ـ فسأل رسول الله ﷺ أن يرخص له فيصلي فى بيته فرخص له، فلما ولى دعاه فقال : هل تسمع النداء بالصلاة ؟ قال : نعم . قال (فأجب) »[١] .

«وروى أبوهريرة أيضا أن رسول الله ﷺ قال : والذي نفسي بيده لقد هممت أن أمر رجلاً فيؤم الناس ، ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم»[٢] .

«وعنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا »[٣].

« وعن بريده ﷺ عن النبي ﷺ قال : العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر[٤] ـ ذلك لأنه بالصلاة تتهذب النفوس ، وتصفو القلوب ، وتمتلئ حياءاً وخشية ، واستقامة الإنسان على أمر الله تعالى تكون على قدر وضوح العقيدة فى نفسه ، ويقظة الإيمان فى قلبه » .

وقد حذرنا رسول الله ﷺ من صلاة المنافق ـ فقال عليه الصلاة والسلام : تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ـ يرقب الشمس إذا كانت بين قرنى شيطان قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا[٥] .

«وفي الصحيحين عن بن مسعود ﷺ قال سألت رسول الله ﷺ قلت يارسول الله : أى العمل أحب إلى الله ؟ قال : الصلاة على وقتها . قلت : ثم أى ؟ قال : بر الوالدين . قلت : ثم أى ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله»[٦].

والصلاة هي المرتكز الأساسي لصلة الإنسان بربه وهي التي تحيي معاني الإيمان فى قلبه، فكانت أفضل الأعمال بعد الإيمان ، وفيها تحيا عقيدة الحق فى نفس الإنسان ، وهي لغة الدعاء لقوله تعالى :

---

(١) رواه مسلم :

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

(٤) رواه الترمذي .

(٥) رواه مسلم فى صحيحه .

(٦) ورد بتفسير ابن كثير ٣/ ٢٣٩ .

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب].

والصلاة فوق أنها ركن من أركان الإسلام وعلامة الإيمان هي وسيلة الإتصال بالله ومظهر من مظاهر العبودية الدائمة له سبحانه لا يقطعها ترك أو إهمال أو كسل أو نسيان ـ هي مستمرة غير منقطعة. قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج].

يعترف المجرمون الذين أدخلوا جهنم التى نجا منها أهل اليمين بطاعتهم لله وصارت كل نفس رهينة بما عملت .. يعترف المجرمون بتقصيرهم فى الصلاة والزكاة والخوض فى الباطل والتكذيب بيوم الجزاء.

﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر].

هؤلاء أصحاب الصفات الحميدة فى بداية « سورة المؤمنون » ـ وهم الخاشعون فى صلاتهم، والمعرضون عن اللغو، والمؤدون للزكاة، والحافظون لفروجهم إلا ما أحل الله لهم، والمؤدون لأماناتهم وعهدهم، ثم الصلاة مرة أخرى للذين يحافظون على صلواتهم، وقد تجملوا مع تلك الصفات بالإيمان الذى به يتحقق الفلاح والإلتزام والطاعة بما علم أنه بالضرورة من دين نبينا محمد ﷺ.

هؤلاء ورثوا دار الخلود بلا فناء، ودار الأمن بلا خوف، ودار الاستقرار بلا زوال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون].

والفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها [1].

وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: إذا سألتم الله الجنة فأسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن [2].

---

(١) القرطبي ٧/ ٤٦٤١.

(٢) ابن كثير ٣/ ٢٣٩.

قال رسول الله ﷺ : إن الله يقول لأهل الجنة ، ياأهل الجنة ، فيقولون لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك ، قالوا: يارب وأى شيئ أفضل من ذلك ، فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا[1] .

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر] .

٧ ـ المتقون فى دار كرامة الله ورضوانه .

والمتقون هم أهل الفضائل ، منطقهم الصواب ، وملبسهم الإقتصاد، ومشيهم التواضع .. غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم ، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم ، لا يرضون من أعمالهم القليل ، ولا يستكثرون الكثير .. فهم لأنفسهم متهمون ، ومن أعمالهم مشفقون .

من علامة أحدهم أنك ترى له قوة فى دين ، وحزماً فى لين ، وإيماناً فى يقين ، وحرصاً فى علم ، وصداً فى غنى ، وخشوعاً فى عبادة ، وتجملاً فى فاقه ، وصبراً فى شده ، وطلباً فى حلال ، ونشاطاً فى هدى .. يعمل الصالحات وهو على وجل وخشية ، يمسى وهمه الشكر ، ويصبح وهمه الذكر ، يمزج الحلم بالعلم ، والقول بالعمل ... تراه قريباً أمله ، قليلاً زلله ، خاشعاً قلبه ، قانعة نفسه ، مكظوماً غيظه ، ميتة شهواته ... الخير منه مأمول ، والشر منه مأمون ... يعفو عمن ظلمه ، ويعطى من حرمه ، ويصل من قطعه .. بعيداً فحشه ، ليناً قوله ، غائباً منكره ، حاضراً معروفه ، مقبلاً خيره ، مدبراً شره ... فى الزلازل وقور ، وفى المكاره صبور ، وفى الرخاء شكور .. لا يحيف على من يبغض ، ولا يأثم فيمن يحب .. يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه ، ولا يدخل فى الباطل ولا يخرج من الحق .

نفسه منه فى عناء ، والناس منه فى راحة .. أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه .. بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة ، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة ... ليس تباعده بكبر وعظمه ولا دنوه بمكر وخدعة[2] .

---

(١) في الصحيحين واللفظ للبخاري عن أبي سعيد الخدري - القرطبي ١٠ / ٦٨٦٧ .

(٢) تلك من صفات المتقين التي ذكرها الإمام علي ﷺ وهو تربية النبوة المحمدية .

وقال الإمام علي وهو يوصي ولده الحسن رضي الله عنهما :

احذر من الكبر والغضب والحرص المذموم ، ووافق كتاب الله وسنة رسوله والصالحين من عباده ، وليكن حياؤك من الله ومن الملائكة ومن الصالحين ... وليكن فزعك خوفاً من المعصية ، وفزعك إلى التوبة ، وفزعك إلى طلب العلم .. وأهرب من الكذب والخيانة والظلم ، واجتنب الشر وأهله ، والنفاق وأهله ، والحمق وأهله .. وخف الله ، وممن لا يخاف الله ، ومن لدغات لسانك ، وأرج الله فى غفران ذنوبك ، وفى قبول أعمالك ، وفى شفاعة نبيك ﷺ [(١)].

إن تقوى الله حمت أولياء الله محارمه « أى منعتهم إرتكاب محرماته» وألزمت قلوبهم مخافته ، حتى أسهرت لياليهم ، وأظمأت هواجرهم « أى بالصيام » فأخذوا الراحة بالنصب «أى التعب» وأوصى عباد الله بتقوى الله التي هي الزاد وبها المعاد [(٢)].

قال : واتقوا ناراً حرها شديد ، وقعرها بعيد ، وحليتها حديد ، وشرابها صديد .. ألا وإن اللسان الصالح يجعله الله للمرء فى الناس خيراً له من المال يورثه من لا يحمده .

وقال ﷺ فى تمام وصف المتقين : إن صمت لم يغمه صمته ، وإن ضحك لم يعل صوته ، وإن بغى عليه صبر حتى يكون الله هو الذى ينتقم له .

وقال رضى الله عنه : إن أفضل ما توسل به المتوسلون إلى الله سبحانه الإيمان به وبرسوله والجهاد فى سبيله ، فإنه ذروة الإسلام ، وكلمة الإخلاص فإنها الفطرة ، وإقام الصلاة فإنها الملة ، وإيتاء الزكاة فإنها فريضة واجبة ، وصوم شهر رمضان فإنه جنة من العقاب ، وحج البيت واعتماره فإنهما ينفيان الفقر ويرخصان الذنب ، وصلة الرحم فإنها مثراة فى المال ومنسأة فى الأجل ... وصدقة السر فإنها تكفر الخطيئة ، وصدقة العلانية فإنها تدفع ميتة السوء ، وصنائع المعروف فإنها تقى مصارع الهوان .

وقال ﷺ : أفرطوا فى ذكر الله فإنه أحسن الذكر ، وأرغبوا فيما وعد المتقين فإن وعده أصدق الوعد ، وأقتدوا بهدى نبيكم فإنه أفضل الهدى ، واستسنوا بسنته فإنها أهدى السنن ، وتعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث ، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب ، واستشفوا

---

(١) هذه الأقوال جميعها للإمام علي - أخذت من نهج البلاغة للشيخ محمد عبده ٢/ ١٦١ .

(٢) نهج البلاغة ١/ ٢٢٣ .

بنوره فإنه شفاء الصدور وأحسنوا تلاوته فإنه أحسن القصص .. فإن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذى لا يستفيق من جهله،بل الحجة عليه أعظم ، والحسرة له ألزم ، وهو عند الله ألوم «أى أشد لوماً لنفسه بين أيدى الله لأنه لا يجد منها عذراً يقبل أو يرد» (١) .

تلك الصفات التى يتجلى بها الإسلام على عباده ، ويتجلى بها المؤمنون بعضهم بعضا فى وصاياهم .

قال معاذ ﷺ أو صاني رسول الله ﷺ فقال:أوصيك بإتقاء الله تعالى،وصدق الحديث، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، وحفظ الجار ، ورحمة اليتيم ، ولين الكلام ، وبذء السلام ، وحسن العمل ، وقصر الأمل ، ولزوم الإيمان ، والتفقه فى القرآن ، وحب الآخرة ، والجزع من الحساب ، وحفظ الجناح ... وأنهاك أن تسب حكيماً ، أو تكذب صادقاً ، أو تطيع آثماً ، أو تعصى إماماً عادلا ، أو تفسد أرضا ... أوصيك بإتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر ، وأن تحدث لكل ذنب توبة ـ السر بالسر ، والعلانية بالعلانية ـ فهكذا آداب عباد الله المتقين ، ودعاءهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب التى تتمثل فى الورع فيما قل وكثر ، وفى الصدق ، والتواضع ، والجود والكرم، والحلم والصبر ، والحياء ... ولا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذار لما به بأس ـ ومن ترك باب الإيمان وأعرض عن صفات المؤمنين فقد جلب لنفسه الشقاء فنسى ذنوبه الماضية وهى عند الله محفوظة ، واغتر بحسناته الماضية وهو لا يدرى أقبلت أم ردت ، ونظر إلى من فوقه فى الدنيا ومن دونه فى الدين ، وحسد على النعم وسخط على القسم واستشعر الندم على ما انحتم ،ومال إلى شهوات الدنيا ولذاتها ، ومنع عن نفسه الحياة بلذة الإيمان ، فمنع عن الناس منفعتهم لقلة إيمانه وبعده عن ربه .

قال أبوبكر الصديق ﷺ : لو كانت إحدى رجلى فى الجنة والأخرى على بابها ما أمنت مكر الله .

وكيف تهنأ الحياة لغير الإيمان والتقوى .. فيهما ما يعصم الإنسان من محارم الله ، وبهما يكون الخلق الذى تتعامل به مع الله ومع الناس وبالحلم فيهما تدفع جهل الجاهل ، وترد

---

(١) نهج البلاغة للشيخ محمد عبده ٢/ ٢١٥ .

كيد الشيطان .. وخير ما رزق الله به العبد عقل يعيش به ويميز بين الحق والباطل ، والحلال والحرام ، وأدب يتحلى به مع الناس فى معاملاته فلا كذب ولا خداع ، ولا رياء ، ولا مداهنة ، ولا خيانة ، ولا نقض للعهود والوعود ، لا كبرياء ولا مماطلة فى حقوق الناس ، ولا عقوق للوالدين ولا إساءة للزوجة .. إلى أخر تلك الصفات الذميمة فتلك كلها صفات تحول بين العبد وتقوى ربه ، وتبعده عن وصف المتقين الصادقين .

والذين يصرون على المعاصى ويعرضون عن الطاعة لله بزعمهم الثقة فى الله وكرمه وعفوه ومغفرته ، وأن نعمته واسعة ورحمته شامله ... فقد أصابوا فى وصفهم لعفو الله ، وأخطأوا فى طمعهم برحمته بغير أداء وتقوى وخوف وخشية من الله الذى وسعت رحمته كل شيئ .

ولقد كان الناس فى الزمان الأول يواظبون على الطاعات والعبادات ، ويبالغون فى الإحتراز عن الشبهات والشهوات ، ومع ذلك كانوا يخافون على أنفسهم ويبكون فى الخلوات .

والحق تبارك وتعالى يمكن المتقين مقعدهم الثابت المطمئن فى دار كرامة الله ورضوانه وفضله وامتنانه وجوده وإحسانه – مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم ، لا يقعد فيه إلا أهل للصدق والإيمان والإخلاص .

وبين سبحانه وتعالى أن للمتقين منجي من النار ويتمتعون بها فى الجنة من البساتين والأعناب والكروم والعذارى النواهد والكئوس المليئة بالخمر الصافية وهم فى أمان من اللغو والباطل من القول ، فقال تعالى :

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النبأ] .

ذلك عند الملك العظيم الخالق المقدر المقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون ، على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين .

قال سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر] .

هؤلاء هم السعداء الذين أدركوا أمر الله .. ينالون فى الآخرة من ثواب الجنة الثواب والجزاء ، ولنعم دار المتقين فى الدنيا ولنعم دارهم فى الآخرة .

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النحل] .

عن جابر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : يأكل أهل الجنة فيها ويشربون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ولا يبولون ولكن طعامهم ذلك جشاءٌ كرشح المسك ، يلهمون التسبيح والتكبير كما يلهمون النفس (رواه مسلم) .

وفى رواية أخرى أنيتهم فيها الذهب ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن ، لا إختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشيا (رواه البخارى ومسلم) .

وعن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن أهل الجنة ليتراءون الغرف فى الجنة كما تتراءون الكوكب فى السماء (متفق عليه) .

تلك مواريث أهل الجنة دار كرامة الله ورضوانه وما أعده الله تعالى للمؤمنين فيها .

قال سبحان وتعالى : ﴿ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يونس] .

أخيرًا وليس آخرًا : النصاب الذهبي وما وسع إجتهادنا فيه .

ذلك دين الله العظيم .. دين الأولين والآخرين .. دين الأنبياء والمرسلين : ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران] .

ذلك ما وسع إجتهادنا بإذن الله وتوفيقه فى تحصيل العلم من لسان أهله لبيان بعض ما تركه لنا رسول الله ﷺ من ميراث النفائس الغالية والكنوز العظيمة لدين الإسلام .. وما تلك السعة إلا كقطرة من محيط واسع عريض ، ومساحات فى هذه التركة لا تسع المجلدات مكنوناتها لعظم ما فيها من الخير والكمال والفلاح بياناً وتشريعا .. وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يظل الباحثون والعلماء يستنبطون الجديد من هذه الكنوز كلما أشرقت شمس يوم جديد على هذه الدنيا ليتبين من آيات الله أنه الحق الذى لا يعلم جهره وسره إلا الله الخالق الرازق المدبر لكل الأمور .

إنه دين كامل وشامل يدعو الخلق جميعاً إلى وحدانية الله والتخلص من كل معبود سواه .. والوحدانية منهج وسلوك وتعامل وخلق يدين به المسلم فى سائر تصرفاته وشتى

أعماله ليكون عبداً لله وحده بعيداً عن كل ما يناقض الإيمان أو يعكر صفو الإخوان .. ذلك الذى يصوغه الدين فى وجدان المؤمنين ، ويوجههم إلى الله ربهم وخالقهم بالولاء والطاعة والإنقياد لشريعته المحكمة التى تحدد للناس معالم الطريق وتبين لهم سبل الهداية والرشاد ، وتنجيهم من ظلمات الجهل والأهواء والضلالات .

دين يقرر الفلاح فى توجه القلب إلى الله بالعبادة والتقوى والصلاح والبناء .. وبالله يهون كل صعب ، ويسهل كل عسير ، ويقرب كل بعيد ، وبه تزول الهموم والغموم والأحزان .. فلا هم مع الله ولا غم ولا حزن ، ما دام كل شيء مفوض لله .. والقلوب لا تعطى مناها حتى تصل إلى مولاها بمخالفة مرضها وهواها .

دين يدعو إلى التعاون بما يرضى الله على مبدأ التسامى والتسامح وفعل الخيرات .

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة] .

ويدعو إلى عدم التخاذل والإستسلام للفشل الذى تذهب معه القوة من قلوب المؤمنين وتسيطر عليهم الأهواء والنزاعات .. قال تعالى : ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال] .

ويدعو إلى الأخوة فى الله والإعتصام بعهده وجمع صفوف المسلمين جميعاً تحت لوائه وولائه قال تعالى :

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران] .

فهو دين الوحدة والمساواة ، تسع رحمته وعدله جميع الأديان على إختلافها ، دين القيم والمبادئ .. يدعو إلى القوة والعزة والإرادة والنصيحة والتضحية ، ولا يؤيد العصبية والأهواء ولا الجدال والمراء .. يهدى الناس إلى الخير ويحذرهم من التفرقة والإختلاف:

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران] .

دين يدعو إلى الطهارة والعفة وإجتناب المعاصي التي تمحق البركة فى العمر والرزق والعلم والعمل والطاعة ، تمحق بركة الدنيا والآخرة وبركة الدين والدنيا ، وهل فى الدنيا والآخرة شر وداء إلا بسبب الذنوب والمعاصى .. وقد رأينا ذلك واضحاً فى قرون الغابرين .

دين يدعو إلى الصدق والأمانة والوفاء والإخلاص والحلم والصفح والجود والكرم والحياء والرحمة ، يدعو إلى القصد والعفاف وسلامة الصدر من الأحقاد والسماحة والمروءة ـ وينهى عن الظلم والعدوان ويذم الحرص والبخل والشح والكبر والغرور والعظمة و الخيلاء .

المتقون فيه سادة والفقهاء فيه قادة ، والفرد فيه جزء من كيان الأمة يعطيها وتعطيه ، والأخوة فيه تعنى الإخلاص والتواضع والمحبة : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحُجرات] .

يقول بن قيم الجوزية فى مدارج السالكين :

الحياة عند المؤمن لا تحسب بعدد السنين والأيام ولكن الأيام دائماً تحسب بثمرات هذه الأوقات التى يعيشها الإنسان مستمتعاً بشكر الله حين يأمن،أو لائذاً تجاه الله حين يخاف، أو ساعياً إلى تحقيق فضل الله حين يحرم .

الخُلق هو الدين ، ومن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى الدين .. وكانت السيدة عائشة رضى الله عنها تقول عن رسول الله ﷺ« كان خلقه القرآن » .. وقد فسر العلماء قول الله تعالى عن رسول الله ﷺ : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم] إنك على دين عظيم .

ومظاهر الأخلاق الحميدة كلها فى أربعة (العدل ـ العفة ـ الصبر ـ الشجاعة) .

فإذا سعى الإنسان بجهده دون إغتصاب لمال أحد أو حق أحد كان عدلاً ، وإذا عف عن السقوط فى الحرام كان عافاً ، وإذا احتمل مشقة العفة والعدل كان صابراً ، وإذا اقتحم المخاطر فى تحقيق ذلك كان شجاعا.

والناس ينقسمون إزاء سلوكهم إلى أقسام :

١ ـ قوم تركوا أنفسهم للتيار يقذفهم وتركوا أنفسهم لعبادة أهوائهم من دون الله ، فهؤلاء هم الضالون المغضوب عليهم : ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم] .

٢ ـ وقوم على عكس السابقين عاشوا بمعزل عن الناس فقالوا نصوم ولا نفطر ولا نتزوج النساء فاشتد عليهم التيار وهدمهم .

٣ ـ وقوم حصنوا أنفسهم ، ونجاحهم لا يؤمن دوامه لأن موجة الصراع لا تهدأ بين نوازع النفس وفضائلها .

٤ ـ وقوم آخرون أحسنوا فهم حكمة الله ، أن الله لم يخلق هذا عبثا ، ولابد لهذه القوة من فائدة .. فالكبر مثلاً خلق ذميم ولكنه ممدوح فى مكابدة الأعداء ... والذل كذلك خلق ذميم ولكنه مع المؤمنين ممدوح أذلة على المؤمنين .. وبالرغم من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عامة نصحه للمؤمنين «لا تغضب » كان هو أول الغاضبين إذا انتهكت محارم الله . وإذا كان الدين هو الخلق ، فإن الدين أيضاً هو المعاملة .. وبذلك يكون الخلق هو المعاملة مع الله ومع الناس ومع النفس ،، فأنت تعيش بالإخلاص فى معاملتك مع الله ، وتحيا بالإيثار فى معاملتك مع الناس ، وتنظر إلى نفسك بعين المراقبة [١]

.

ورسالة الإسلام لا تنشد أكثر من تدعيم الفضائل والسعى إليها على بصيرة ليتحقق الكمال .. وكانت حياة رسول الله ﷺ المثل الأعلى فى مكارم الأخلاق وجلائل الأعمال .. كانت حياته العظيمة عامرة بالخير والهدى ، وكان فى دعوته وعبادته ، وفى حربه وسلمه ، وفى أسرته وبين أصحابه ، وفى كل مظهر من مظاهر حياته مصداقاً لقول الله تعالى فيه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم] .

وتحقيقاً لقوله صلوات الله وسلامه عليه « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» [٢] .

والأخلاق خير ميراث ، وكان عليه الصلاة والسلام يؤلف أصحابه ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ، ويتفقد أصحابه ويعطى كل جلسائه نصيبه .

من جالسه أو قاربه لحاجه صابره حتى يكون هو المنصرف عنه .. وكان دائم البشر ، سهل الطبع ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب ، ولا فحاش ، ولا عتاب ، ولا مداح .. وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويجاريهم ، ويداعب صبيانهم ويجلسهم فى حجره ، ويجيب دعوة الحر والعبد ، والأمة والمسكين ، ويعود المرضى.

قالت عائشة رضي الله عنها في رواية لمسلم : ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا إختار أيسرهما ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه ، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه

---

(١) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية .

(٢) رواه بن ماجه - ورواه أحمد والبيهقي من حديث أبي هريرة .

في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم ، وما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد فى سبيل الله تعالى .

« هذا باب كبير فى أخلاق هذا الدين أخذنا منه البعض اليسير للدلالة والتعبير »

دين يدعو إلى القوة والعزة والإستعلاء ، وحشد كل الإمكانيات والأسباب التي تمكن المؤمنين من إعلاء كلمة الله لا إله إلا الله .. ويكون الدين كله لله .

يأمر بالركوع والسجود وهما ركنا الصلاة البارزان .. ويثني بعبادة الله التي تشتمل على كل الفرائض ، ويحول كل نشاطات الإنسان فى هذه الحياة إلى عبادة متى توجه القلب بها إلى الله، ثم يأمر الله تعالى بعد ذلك بالجهاد وهو التكليف الذى يحتاج إلى القوة والتعبئة ...

دين يعادي من يعاديه ويصفح ويعفو عن كثير ، ويسالم من يسالمه بل يزيد من الأمن والسلامة فيه .. إذا اجتمع المشركون لحرب المؤمنين أمر الله المؤمنين بردهم وإيقافهم عند حدود الأدب فقال سبحانه : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [التوبة] .

عزيمة على المؤمنين وبياناً لحكمته سبحانه وتعالي لما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على هلاك الأعداء بأمر من عنده .. وقد رأينا كيف كان مصير الطغاة فى القرون الغابرة .. قال تعالى : ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [التوبة] .

بين سبحانه وتعالى أن قدر الله بالموت أو القتل محتوم لا مفر منه، ولا ينفع الفرار فى دفعه ، ولا عاصم من الله ، ولا من يحول دون نفاذ مشيئته ، وحذر سبحانه وتعالى من الفرار .. ونحن جميعا تحت مشيئة الله وقدرته فهو ملجؤنا ونحن متوكلون عليه .

قال سبحانه : ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الأحزاب] .

ويمس القرآن قلوب الآباء تجاه ذريتهم الصغار والخوف عليهم من بعدهم ، فهم فى عصمة الله ورحمته .. يهيئ لهم من يتولى أمرهم ، وأمرهم بتقوى الله تعالى :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ [النساء] .

وأمر الله تعالى عباده المؤمنين إعداد القوة التى تحمى العقيدة ، وترهب أعداء الدين فلا يفكروا فى الإعتداء عليه وعلى أهل الإسلام .. تلك القوة بكل أسبابها التى تحمى أبناء هذا الدين من المذلة والإهانة ، وتحرر الإنسان من الفتنة التى قد تصيب الضعفاء ، وتقيم الشريعة التى تقوم على الحق والعدل ، وتعيد الناس إلى الله .

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠] .

وقد خص سبحانه وتعالى رباط الخيل إذ كان هو الأداة البارزة عند من كان يخاطبهم القرآن أول مرة ، ولم يكن ليخاطبهم وقتها بما استجد من عند الله بقوة هذا الزمان ، أو ما يكون بعده فى علم الله بعد هذه الدبابات والطائرات والصواريخ وما شابه ذلك ... وتلك الأن هى القوة التى وجب إعدادها فى حساب المؤمنين الغيورين على دينهم .

ومع ذلك كله فإن هذا الدين لا يمنع السلام بين الناس إن أرادوا السلام ، فالإسلام يميل إلى جانب السلم ، ويأمر بالجنوح إليه ، بالمسالمة والمصالحة والمهادنة كما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية .... قال تعالى : ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال] .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله (رواه الترمذى وقال حديث حسن) .

وعن سهل بن حنيف ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : من سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه (رواه مسلم) .

وعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال : جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم .(رواه أبوداود بإسناد صحيح) .

تلك مهمة المسلم التى لخصها الله فى آية واحدة فى كتابة الكريم فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج:٧٧] .

جهاد ضد من يفسدون عقيدة التوحيد حتى تعود الحاكمية لله .

جهاد ضد المبتدعين الذين يدخلون على الدين الخرافة والشعوذة ويؤذون منهجه .

جهاد ضد أعداء الدين الذين يفرقون صفوف المسلمين ويمزقون وحدتهم .

جهاد ضد الذين يعتدون على أوطاننا وأراضينا ويقسمون دولنا الإسلامية لحسابهم واحدة بعد الأخرى .

جهاد ضد الذين يفسدون الأخلاق بين شباب المسلمين بحجة التقدمية ومسايرة الحضارة .

جهاد ضد كل فساد وضلال ، ضد كل ظلم وكل باطل ...

جهاد الشر والعدوان .. وجهاد النفس والشيطان .. وإن هذه الأمة قد إصطفاها الله تعالي على سائر الأمم ، وهى الشاهدة على الناس يوم القيامة بأن الرسل قد بلغتهم رسالة ربهم وأن الولي هو الله .

والحق كل الحق ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وما جاء به عليه الصلاة والسلام علماً وعملاً بصفات الله وأسمائه وتوحيده ، وأمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وبكل حقائق الإيمان التى هى منازل السائرين إلى الله .

وما تولد الشقاء للبشرية فى كل عصر إلا باتباع أعداء الدين أعداء الحق وأنصار الباطل .

فإذا ما استشعرت النفس كرامتها ، وعرفت علوها أبصرت طريق الحق ، ونفرت من كل عيب وكل نقص ، وعادت إلى دين الفضيلة والمبادئ الصحيحة .

دين الإسلام الذى يرسم للناس حياتهم بالحق وعلى أساس من الحق ، فلا ينحرف الناس عن الفطرة ، ولا تتملكهم الأهواء ، ولا يصحبهم الباطل .

وإذا ما تحقق للقلب التوحيد فقد تمت سلامته من الشرك والبدع والشهوات والأهواء والفوضى والإنحلال ،، وخلصت الأعمال كلها فى حب الله لا محبة لغير ما يحبه الله ، ولا كراهة لغير ما يكرهه الله .

وإذا كان الأمر كله أولاً وأخيراً لله . فلماذا يغرق المسلون فى متاهات الأعداء ؟ ويميلون عن الحق والعدل ؟ ويتيهون فى اليأس والإحباط ؟ .. لماذا وهم خلفاء الله فى الأرض يتوارثون المهانة والإستكانة ؟ ويبتعدون عن دينهم الحق ومنهج رسولهم الحق؟

ما أحوجنا إليك الأن يارسول الله لتعيد إلينا كرامتنا ، وتحقق لنا أمننا وحريتنا ، وتأخذ بأيدينا إلى الله وحده ، كما فعلت بأسلافنا الصالحين « هذا إمام عادل ، وهذا شاب نشأ فى

عبادة الله ، وهذا رجل قلبه معلق بالمساجد ، وهذان رجلان تحابا فى الله إجتمعا عليه وتفرقا عليه ، وهذا رجل دعته إمرأة ذات حسن وجمال فقال إنى أخاف الله ، وهذا رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، وهذا رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » فهؤلاء سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله[1] إذا ما تطهرت النفوس وصفت بالتوحيد إلى الله تجلت القلوب بذكر الله الذى يزيل الهم والغم عن القلب وينور الوجه ، ويجلب الرزق ، ويورث المحبة والإنابة .

ما أحرانا أن نبايعك من جديد يارسول الله على إلتزامنا بالطاعة والتنفيذ بتوجيهاتك لنعود بأمتنا إلى مجدها وعزها ، بعد أن مزقتها المطامع ، وفرقتها الأهواء ، وطمع فى ثرواتها الأعداء .. وتحققت نبوءتك « وتداعت عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها» (من حديث رواه أبوداود) .

وتحقق ما قلته يا رسول الله بعد أن نزعت المهابة من قلوب أعداء الأمة وأصاب أمة الإسلام الوهن « ويل للعرب من شر قد اقترب » (من حديث زينب بنت جحش ـ متفق عليه) .

ألا يستحق هذا الميراث العظيم أن نقدس معانيه ، ونستسلم لمنهجه ، ونتبع أوامره ، ونجتنب نواهيه ، ونحكم فينا كتابه ، وننقاد لشرعه ، ونتأسى بسنة رسوله ﷺ .

لقد سلمت أمانة هذا الدين إلى أمة محمد ﷺ الذى يشهد عليها ، ويقرر صوابها ، ويحدد نهجها .. وهى تشهد على الناس ، فهى القوامة على البشرية بعد أن تحقق منهج الله فى حياتها العملية قولاً وفعلاً وتطبيقا ، وعليها الوصاية ، وتكاليفها أمانة .. والمؤمنون وحدهم هم الذين يملكون الإرادة والقوة لنشر الخير والصلاح ، والأخذ بأيدى الناس إلى الله يعترفون بوحدانيته ، ويشهدون شهادة صدق وإخلاص أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

لقد كان المسلمون قلة .. فلما التزموا الحق نصرهم الله ، وكانوا أذلة فلما اتبعوا أمر دينهم أعزهم الله ، ولم يتحقق لهم ذلك إلا بعد أن وضعوا أنفسهم تحت رعاية الله .

وفى وصايا هذة القلة التى نصرها الله إلى أمتهم من بعدهم قالوا:

---

(١) شرح ـ وأخذت المعلومات من حديث أبي هريرة المتفق عليه .

تعرفوا على الحق وأعملوا به ، واقتدوا بهدى نبيكم ﷺ فإنه أفضل الهدى ، واستسنوا بسنته فإنها أفضل السنن ، وتعلموا كتاب الله فإنه أفضل الحديث ، وتفقهوا فى الدين فإنه ربيع القلوب .

قال عليه الصلاة والسلام : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كان عبداً حبشيا فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى إختلافاً كثيرا .. فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين . تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة (من حديث العرباض أخرجه أحمد وأبوداود وبن ماجه والترمذى) .

وما أشد حاجة البشرية إلى الرجوع إلى المحجة البيضاء التى تركنا عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بميراث الصراط المستقيم وحبل الله المتين.

وعلى العاقل أن يكون بصيراً بدينه مقبلاً عليه ، محافظاً على هذه التركة من الأنصبة الذهبية وهو واثق أن دين الله قائم وكلمته تامة .

والمؤمن الحق يستمد عزته من عزة الله ويلتمس السعادة فياتباع رسول الله ﷺ ، والسعيد من عرف الحق فأتبعه ، وعرف الباطل فاتقاه ... ومن اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه سبحانه كفاه .وهل يستجيب الصم الذين هم لآيات الله معرضون ، وعن سنة رسوله ﷺ مبعدون ؟ وهل ترى أعينهم صفحات الحق والهدى والحياة والوجود وهم لا يبصرون ؟ وكيف تسمع من ختم الله على سمعهم وأبصارهم غشاوة وهم عن الحق موتى وقد ولوا عنه مدبرين : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [النمل] .

والعهد الذى بيننا وبين الله أن تصفو قلوبنا إليه وأن نسلم أنفسنا إليه عبادة وطاعة وإلتزام واستسلام ، بالعقيدة والعمل ، والشعور والسلوك ، والإيمان والإحسان ..

فأجر هؤلاء مضمون لا يضيع ، ورزقهم موفور لا يساوره قلق ولا خوف ولا حزن ولا حيرة ، ويستحقون عطاء الله تبارك وتعالى فى قوله : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [البقرة] .

ومن ضل الطريق إلى الله فقد ضل فى كل شيء ، ومن عرف كل شيء إلا الله فإنه لم يعرف شيئاً . وقال سلفنا الصالح : حاسبوا أنفسكم فإنه من حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خسر ، ومن نظر إلى العواقب نجا ، ومن أطاع هواه ضل ، ومن خاف الله أمن

من كل شيء ، ومن أبصر عيب نفسه شغل عن عيب غيره ، ومن هتك حجاب أخيه إنكشفت عورات بنيه، ومن نسى خطيئته استعظم خطيئة غيره ، ومن أعجب برأيه ضل ، ومن استغنى بعقله ذل ، ومن تكبر على الناس ذل ، ومن خالط الأنذال احتقر ، ومن جالس العلماء وقر ، ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم ، ومن يصحب صاحباً صالحاً يغنم ، ومن لم ينفعه الحق ضره الباطل ، ومن لم يستقم به الهدى جار به الضلال .فإذا استغنى الناس بالدنيا فاستغنى أنت بالله ، وإذا فرحوا بها فأفرح أنت بالله ، وإذا أنسوا بأحبابهم فاجعل أنسك بالله ، وإذا تعرفوا إلى ملوكهم وكبرائهم وتقربوا إليهم لينالوا بهم العزة والرفعة فتعرف أنت إلى الله [١] .

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام] .

قالوا : يا رسول الله كيف يشرح صدره للإسلام ؟ قال عليه الصلاة والسلام : نور يقذفه الله فى القلب فينفسح له وينشرح .. قالوا هل لذلك من أمارة ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والإستعداد للموت قبل الموت [٢] .

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزُّمَر] .

... اللهم إني أسألك من النعمة تمامها ، ومن العصمة دوامها ، ومن الرحمة شمولها .. ومن العافية حصولها ، ومن الإحسان أتمه ، ومن الإنعام أعمه ، اللهم لك الحمد كله .. اللهم لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت ، ولا هادى لما أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطى لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مباعد لما قربت ... اللهم أبسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك .

---

(١) الفوائد لابن قيم الجوزية - والتوصيات السابقة لها من أقوال الحسن البصري وآخرين فى هداية المرشدين للشيخ علي محفوظ .

(٢) عن عبدالرازق عن الثوري عن عمر بن قيس عن أبي جعفر (ورواه بن أبي حاتم) (ابن كثير ٢/ ١٧٤) .

.. اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول ... اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف ، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا ، ومن شر ما منعتنا .. اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، وإجعلنا من الراشدين .. اللهم توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين .. اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ، ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك [1] . نسأل الله تعالى أن يرد ضال المسلمين إلى الحق ويعجل لهم بالفرح والنصر الذى وعد به عباده المؤمنين ، وأن يثلج صدور المسلمين بهزيمة أعدائهم ، ورد كيدهم فى نحورهم ، وتطهير الأرض من أرجاسهم وأنجاسهم ، ورفع راية الإسلام على أرضه .. إنه نعم المولى ونعم النصير وإنه سميع مجيب ...

... وبالله التوفيق والسداد .. وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عبد الوهاب محمد كنانة

(١) رواه أحمد (ابن كثير ٤ / ٢١٠) .

obeikandl.com

obeikandl.com

أولاً : المراجع

١ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير .
٢ـ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي .
٣ـ تفسير القرآن للشيخ محمد متولي الشعراوي .
٤ـ في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب .
٥ـ مختصر تفسير الطبري تحقيق الصابوني .
٦ـ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي .
٧ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ بن حجر العسقلاني .
٨ ـ البداية والنهاية لابن كثير .
٩ـ فقه السنة للشيخ سيد سابق .
١٠ـ رياض الصالحين للنووي .
١١ـ السيرة النبوية لابن هشام.

ثانياً : مجلدات وكتب ومؤلفات تم الإستعانة بها في تحرير البحوث واختيار الفقرات

١ ـ تهذيب مدارج السالكين لابن قيم الجوزية .
٢ـ صفوة الصفوة لابن قيم الجوزية .
٣ ـ التذكرة للقرطبي .
٤ـ الفتن والملاحم لابن كثير .
٥ ـ نهج البلاغة للشيخ محمد عبده .
٦ـ تفسير آيات الأحكام للصابوني .
٧ـ حياة الصحابة للكاندهلوي .
٨ـ الأذكار للنووي .
٩ـ مختصر شعب الإيمان للبيهقي والقزويني .
١٠ـ الكبائر لأبي عبدالله محمد شمس الدين الدمشقي .
١١ـ هداية المرشدين للشيخ علي محفوظ .

obeikandl.com

١٢ـ خلق المسلم / فقه السيرة / ركائز الإيمان للشيخ محمد الغزالي .

١٣ـ الحلال والحرام للشيخ عبدالقادر عطا .

١٤ـ الإيمان لابن تيمية .

١٥ـ حقيقة التوحيد للدكتور يوسف القرضاوي .

١٦ـ منهاج القاصدين لابن قدامه المقدسى .

١٧ـ تبصير الأذهان ببعض المذاهب تحقيق للسبعى

١٨ـ مجلات الأزهر ومختصرات علم التوحيد ومجلات الوعى الإسلامى المتنوعة ومجلات التوحيد المصرية .

obeikandl.com